

الحضارة الهندية

حضاراتها ودياناتها

الدكتور محمد اسماعيل الندوي

مدرس في العلوم الإسلامية من جامعة القاهرة
مدرس في الآداب من جامعة هيوستن



من قبل

الفتىة القديسة

حضاراتها ودياناتها

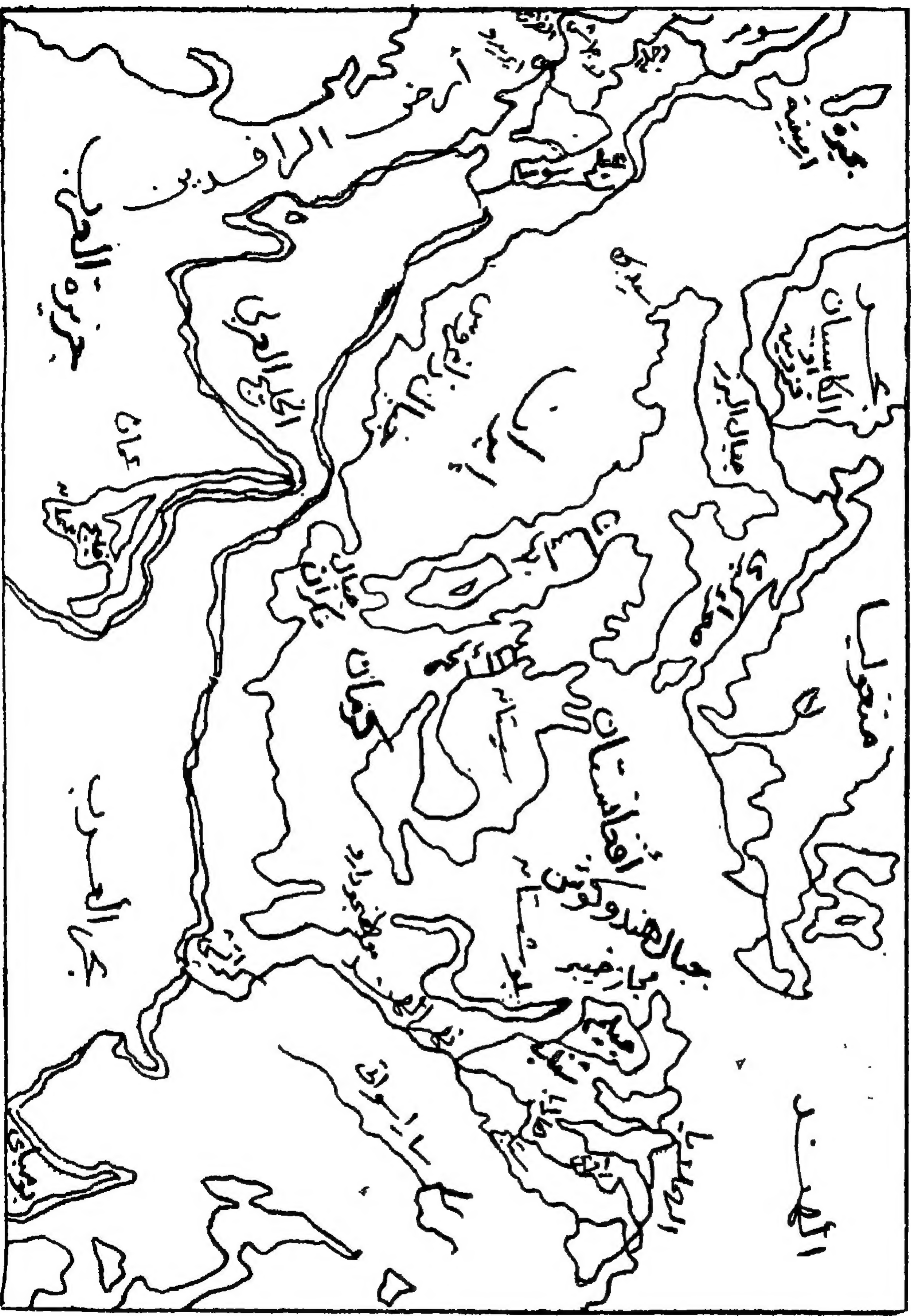
الدكتور محمد اسماعيل النذوي

ماجستير في العلوم الإسلامية من جامعة القاهرة
دكتوراه في الآداب من جامعة عين شمس

دار الشعب

رقم الايـنـاع ٢٧٠٢ / ١٩٧٠

الهند والخرقة خذل النفاثات جن الدير



منذ اتركوا الامم الطور الى عمانية



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذا أول كتاب عن « الهند القديمة : حضاراتها ودياناتها وثقافتها وتقاليدها ولغاتها وشعوبها » يؤلفه مسلم بعد أبي الريحان البيروني (٣٦٢/٤٤٠ هـ ٩٧٣/١٠٤٨ م) - العالم العربي الفذ - بهذه الروح السمحة والعقل المتفتح والصدر الرحيب وبعد دراسات واسعة شاملة استغرقت عشر سنوات . والفرق بين البيروني وهذا المؤلف ، إن البيروني كان خوارزميا ، رغب في العلوم الهندية من الفلك والرياضيات والهندسة ، فسافر إلى الهند ، وأقام فيها عشر سنوات تعلم خلالها اللغة السنسكريتية ، واثقنها وأجادها ودرس علومها ، ثم سجل انطباعاته ونتائجه كلها في كتابه الشهير « تحقيق ما للهند » .

والكنى هذا المؤلف المتواضع هندي مولدا وثقافة . وقد شاهد الديانات الهندية وتقاليدها منذ تفتحت عيناه على الدنيا ، فدرسها وعاشر أهلها ، ولم يزل له منهم الكثير من أصحابه وأصدقائه وزملائه . ولذلك لم يعسر عليه فهم طبيعة الهندوس ومزايا ديانتهم وألوان تقاليدهم والغاز فلسفتهم ، واختلاف أمزجتهم وأجناسهم وميولهم واتجاهاتهم ولغاتهم ، على الرغم من كل الصعوبات والتعقيدات والخلط والمزج التي وجدها خلال دراسته هذه الجوانب كلها .

وبهذا يقدم الكتاب الهند على طبيعتها منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي لها للقراء العرب في عرض أدبي ، دون التوغل في أعماق الفلسفة ، أو اللجوء إلى المنهج الأكاديمي . لأن المؤلف قد أصدر بحوثا عديدة عن الجيوتا وشكنتلا والرامايانا والمهابهاراتا والأساطير الهندية في مجلة « تراث الإنسانية » الصادرة في القاهرة ، وكل ذلك بالأسلوب العلمي والعرض الأكاديمي . وهذه

البحوث — بالإضافة إلى بحوث عديدة عن الفيدا واليويانيشاد — قد جمعت في كتاب سيصدر قريباً بعنوان « الديانة الهندوكية وتراثها الفكري والأدبي » من المكتبة العصرية ببيروت إن شاء الله . وذلك لسد الفجوات الموجودة باللغة العربية في المجال الأكاديمي عن الهند القديمة ودياناتها وثقافتها .

وأما هذا الكتاب فسوف يحقق رغبة القراء العرب الذين يتشوقون إلى معرفة الهند — بلد العجائب والغرائب عندهم — ويشفي غلتهم في هذا الصدد إن شاء الله . وكذلك سيكون مرتعاً خصباً لمن يرغب في الدراسة المقارنة في الآداب والأديان والتاريخ والفلسفة ، وهادياً ومرشداً له ، ويدله على الهند وحضاراتها وثقافتها ودياناتها وتقاليدها ، ويحل جميع الألغاز والغوامض والأسرار التي تعترض طريقه في فهم الهند فهماً صحيحاً لكي يتمكن من رويتها في صفاء ودون ضباب .

وسيكون هذا الكتاب وثيقة صادقة عن الهند وما فيها ، إذا قورن بكثير من الكتب المولفة في اللغة العربية في بعض نواحي الهند أو ترجمت من اللغات الأجنبية إلى العربية .

وإني أشكر الله سبحانه إذا وفقني في أن أضيف إلى المكتبة العربية هذا السفر الطيب الجميل بهذه الصورة المشرقة والمشوقة المغربية ، وخدمة اللغة العربية وثقافتها ، كما وفقني أن أقدم عظمة الهند القديمة إلى القراء العرب بقلب صاف رحيب . والله ولي التوفيق .

المؤلف

مصر الجديدة في ١٩٦٩/٧/٢٨

الفصل الأول

ملامح الهند الطبيعية والجغرافية

وجه الهند من الجو

إذا ألقينا نظرة على الهند من متن إحدى الطائرات نراها أشبه ما تكون بثمررة الكمثرى : أو أشبه بجزيرة بمعنى أدق . إن الهند جزيرة من بعض النواحي ، لأن البحر يفصلها عن غيرها في الجنوب الغربي والجنوب الشرقي والجبال التي يكاد يتعذر اختراقها تفصلها عن العالم في الشمال ، والشمال الشرقي والشمال الغربي ، وبهذا تكاد تكون جزيرة .

تقسيم الهند الجغرافي

إن نظرة عابرة على الخريطة الهندية تهيئنا إلى إنها منقسمة إلى ثلاثة أقاليم رئيسية : (١) الهند الشمالية . (٢) الهضاب الشرقية والغربية . (٣) والأرض الجنوبية وهذا تقسيم جغرافي طبيعي . وتحد الهند الشمالية بجبال الهملايا العالية الشاخنة من الشمال والشمال الشرقي والشمال الغربي كذلك . ومن الجنوب بنهر ، وبسلسلة جبلية . أما النهر فهو نهر النربدا ، وأما الجبال فهي الفندياشل . وأما الهضاب فتقع إلى الجنوب من نهر النربدا ، وإلى الشمال من النهرين اللذين يبدوان في الخريطة وكأنهما يلتقيان ، وهما التونجابادرا والكرشنا . وأما الأراضي الجنوبية فهي كل الأرض للجنوب مبتدئة من هذين النهرين ومنتية إلى حدود سيلان .

صورة الهملايا من الجو

وإذا قمنا بجولة سريعة في سماء الهند على متن الطائرة نرى سلسلة جبلية عالية في الشمال هي سلسلة جبال الهملايا ، وسلسلتين جبليتين أقل ارتفاعا

تقعان على الساحلين البحرين الشرقي والغربي . ونلاحظ بين هاتين السلسلتين الجبليتين مناطق منبسطة من الحقول المزروعة مع عدد كبير من الأنهار تجري بينها ، ثم صحراوين واسعتين وغابات كثيفة مليئة بالأشجار .

موقع الهملايا والمناطق الشهيرة في احضانها

وفي محاذاة نهر الجنجا والشمال الشرقي تقع سلسلة جبال الهملايا أعظم سلسلة جبلية في العالم ، وتقع منابع نهر الجنجا في جبال الهملايا حيث تبقى الثلوج دائما مغطية للقمم البيض التي يعجز الإنسان عن تسلقها ، وأعظم آمنيات كل هندوكي أن يقوم بهذه الرحلة الصعبة إلى منابع نهر الجنجا المقدس وسط الثلوج ومقابلة رجال الدين المفكرين الذين يقيمون دورهم على حافات منطقة الثلوج . ويحقق الكثيرون آمياتهم هذه بأن يقطعوا رحلة الجنجا الطويلة الخطيرة هذه سيرا على الأقدام .

وتمتد الهملايا شمالا إلى الحدود بين روسيا والهند . ومن الطرف الجنوبي الشمالي إلى كشمير .

نهر الهند

يعتبر نهر الهند (River Indus) من أكبر الأنهار الهندية التي تتفجر ينبعها من الهملايا . وفي الصيف حينما تذوب الثلوج في الهملايا تحدث فيضانات عنيفة في هذا النهر . وكان السكان في القديم يستغلون هذه الفيضانات لرى أراضيهم الزراعية ، مع أن هذه الفيضانات كانت تسبب في نفس الوقت دمارا شديدا في أموال هؤلاء السكان وفي أنفسهم . وكذلك عرفوا طرقا عديدة لتخزين هذه المياه ، كما توصلوا إلى إنشاء شبكات كثيرة لتوزيعها .

وعلى ضفاف هذا النهر قامت أقدم حضارة هندية كما سنذكرها قريبا .

كشمير

تقع ولاية كشمير كالعش على الطرف الشمالى للهملايا . وهى جنة الحدائق وأرض الأحلام التى تقطعها الأنهار والقنوات والجبال ، وتغطيها الأزهار فى فصل الربيع حتى تبدو الأرض كبساط سندسى مزركش ، وتعلوها الثلوج فى فصل الشتاء ، وتنبت أرض كشمير فاكهة المناطق المعتدلة كال التفاح والكرز .

ولانتا السند وبنجاب .

حينما يصب نهر الهند فى اتجاه الجنوب الغربى من أرض كشمير تنبع منه خمسة روافد شهيرة وهى : جيلم ، شتاب ، رافى ، بياس ، ستلج . وهذه الروافد بالإضافة إلى حوض نهر الهند تكون المنطقة الرئيسية لباكستان الغربية .

ومن أكبر مدن باكستان الغربية كراتشى ، عاصمة ولاية السند وكلها الآن فى باكستان ، ولاهور عاصمة بنجاب . وجزء آخر من بنجاب يقع فى الهند وأشهر مدنها امرتسر .

المناطق الجبلية المتاخمة لحدود ولاية السند

وعلى الشاطئ الجنوبى لنهر الهند تقع الصحراء الهندية ، وتقع فى الشمال والشمال الغربى سلسلة جبال هندوكش . وهى ليست شاهقة الارتفاع كجبال الهملايا ، إلا أنها وعرة ، وفيها عدد قليل من الممرات الهامة التى تساعد على العبور إلى الهند .

وهذه الممرات والمناطق الجبلية لعبت دوراً كبيراً فى حضارة وادى نهر الهند لأن سكانها الجباليين البدويين هم الذين تدفقوا على المدن الحصينة واستولوا عليها ، وانشثوا فيها حضارات راقية . وقد قطن هؤلاء المناطق

الجباية الممتدة من بلوشستان (وهي تقع الآن في باكستان الغربية) وأفغانستان إلى جبال عيلم في إيران على الحدود المتاخمة لأرض الرافدين .

ثم تدفقت أمم كثيرة قاطعة هذه الممرات الجبلية منها اليونانية ، ثم الأتراك والمغول في العصور الإسلامية .

نهر الجنجا والبرهمبرا والمناطق الشهيرة بين شواطئها

يعد نهر الجنجا والبرهمبرا من أهم الظواهر الجغرافية في الهند . ويبلغ طول نهر الجنجا ما يقرب من ٢٥٠٠ كيلو مترا ، وطول نهر البرهمبرا حوالي ٢٦٦٠ كيلو مترا . ومع أن النهرين أقصر طولاً من نهر المسيسيبي ميسوري بما يقرب من ٦٤٠ كيلو متر ، إلا أننا إذا ما أدركنا أن مساحة الهند نصف مساحة الولايات المتحدة الأمريكية استطعنا إدراك أهمية هذين النهرين .

ويحب الهندوس نهر الجنجا لما يمنحهم من خيره العميم . وهؤلاء يريدون دائماً أن تحرق جثثهم على شاطئيه وأن يلقي بالرماد في مياهه ، ويغتسلون في النهر مؤمنين بأن مياهه تغسل عنهم خطاياهم وتطهرهم وتقربهم إلى الله ويطلقون على النهر اسم « جنجا ماتا » أي الجنجا الأم .

ولاية بنغال ومدينتها الشهيرة كلكتا

تعتبر ولاية بنغال الواقعة في الشمال الشرقي للهند المطلة على خليج بنغال من أهم الولايات الهندية وأخطرها شأناً . وهي موطن الشاعر العظيم طاغور . وهي تنقسم الآن إلى قسمين : القسم الشرقي منها يكون باكستان الشرقية ، وعاصمتها الشهيرة دهاكه ، والقسم الغربي يدخل في إطار جمهورية الهند كأهم ولاية فيها : وفيها تقع أكبر مدينة هندية وهي كلكتا عاصمتها ومركز الثقافة والتجارة والصناعة للهند أجمع .

ووسط حقول بنغال المنبسطة تجرى الروافد السفلية لأعظم أنهار الهند المذكورة الجنجا (Ganges) والبرهمبرا (Brahmaputra) . وأن أرض بنغان خصبة ، وكثافة السكان كبيرة جداً حتى أن القليل من الأرض هو الذى بقى غير مأهول أو غير مزروع .

ويعيش الفلاحون فيها على قطع من الأرض أصغر من أن تمنحهم المستوى الكافى للعيش والقرى تتزاحم وأينما سرنا لا نرقب غير أناس يزاحم بعضهم بعضاً . فالأرض على شاطئ الجنجا خصبة جداً . ثم أن مياه النهر عميقة وسعته كبيرة مما يمكن القوارب النهرية من أن تحمل الحاصلات جيئة وذهاباً .

التقاء نهري الجنجا والچمنا فى الله آباد

وللجنجا الأم روافد كثيرة يجلبها الناس بدرجة أقل من حبهم للجنجا نفسه . وعند مدينة « الله آباد » — وهى أشهر مدينة فى ولاية أناربراديش — يتصل نهر الچمنا ثانى أنهار الهند المقدسة (١٣٦٠ كيلو متراً) بنهر الجنجا . ويملا نهرا الجنجا والچمنا وفروعهما قنوات الري التى تروى الحقول البعيدة كما تروى الحقول التى على مقربة من شاطئيهما .

مدينتا بنارس وآغرا

تقع هاتان المدينتان الشهيرتان فى ولاية أناربراديش . وتعتبر مدينة بنارس من أكبر المراكز الدينية للهندوس الآن . وفى مدينة آغرا يقع أجمل وأروع مباني العالم « التاج محل » الذى يقع على شاطئ نهر الچمنا ، ويبدو أشبه ما يكون بدرة فى حديقة من زمرد .

ولاية بيهار مسقط رأس بوذا

وعلى طول نهري الجنجا والچمنا وقعت أعظم الأحداث والمشاهد التاريخية . وفى مدينة غيا (Gaya) فى ولاية بيهار التى تقع على مسافة ٥٠٩ كيلو متر تقريباً للشمال من كلكتا نشر بوذا العظيم تعاليمه الدينية والاجتماعية تلك التى بدأ

سادت الهند منذ قرون طويلة ثم أخذت طريقها إلى الصين واليابان وبورما وسيلان .

دهلي العاصمة

تقع دهلي أبعد شمالا على شاطئ نهر الجمنا وسط الحقول الخصبة . وهي عاصمة الهند منذ القرون الغابرة . وقد بنيت عاصمة جديدة على مسافة أميال قليلة من المدينة أطلق عليها اسم دهلي الجديدة (New Delhi) .

والمدينة القديمة كانت مركزا هاما بالنسبة إلى الثقافة الإسلامية . إذ أنها ظلت عاصمة المسلمين قرابة ألف سنة ، ولذلك بنيت فيها آثار إسلامية رائعة مثل المسجد الجامع والقلعة الحمراء .

الهضاب الشرقية والغربية وأشهر المدن حولهما

وعلى الجانب الشرقى من الهضاب الغربية تبدأ أرض الدكن (أى الجنوب) وهي الأخرى هضبة خصبة تمتد من الغرب إلى الشرق لمسافة مائتى ميل ، ويبلغ ارتفاع الهضبة إلى الشرق مباشرة من الهضبات الغربية أكثر من ألفى قدم فوق مستوى سطح البحر . على أن هذا الارتفاع يقل تدريجيا مع إتجاهنا للشرق حتى يصل إلى مستوى سطح البحر عند الحافات الشرقية للمنطقة . ونجد في أرض الدكن آلاف الأفدنة من الحقول التى تنتج القطن والحبوب مثل الجوار (Jawar) والباغرا (Bagra) والأرز ، والذرة ، كما توجد بها الفاكهة مثل البرتقال والليمون وثمار المانجو والبطيخ والبايتا (papeeta) والكتهل (Kothal) والشريفة (Shareefa or Sitaphal) . وتنتج الأرض أيضاً خضروات كثيرة مثل البطاطس والباذنجان والقرنبيط (القرنبيط) وعشرات الأنواع غيرها .

ويزرع هذه الأرض كلها فلاحون يعيشون في قرى صغيرة يتوجهون

كل يوم إما إلى الحقول التي يمتلكونها ، وإما إلى العمل بالأجرة في حقول أصحاب الأملاك .

أشهر مدن الهضبة الغربية

وعلى الحافة الغربية للهضبة تقع مدينة « بونا » المركز الثقافي لغرب الهند ، ويطلق على سكان تلك المنطقة « المراتا » . وكون هولاء الآن ولاية خاصة باسم مهاراشتر ولاية أخرى مجاورة لها هي ججرات .

وإذا سافرنا من بونا من ناحية الجنوب واجتازنا الأرض التي تنبت القطن نصل إلى مدينة كبيرة أخرى هي شولابور (Sholapure) وهي مركز لحاج القطن .

وإذا درنا حول الطرف الجنوبي للهضبة سنصل إلى ولاية صغيرة يقال لها « غوا » التي كان البرتغاليون يملكونها بعد استقلال الهند ، ثم فتحت بالغزو العسكري أيام رئاسة نهرو . وهي تتضمن مدناً أخرى مثل : دامن وديو ، وتقع على ساحل البحر . وفي جبالها يوجد المنجنيز والحديد . وفي الأرض المنخفضة على ساحل بحر العرب وعلى شواطئ الأنهار ومجاري المياه توجد أحراش أشجار النخيل التي تتماوج تحت أشعة الشمس .

وتقع غوا على حافة واحدة من غابات الهند المليئة بالأشجار العالية والنباتات المتعرشة والمستنقعات بحيث لا يمكن لأحد أن يغامر باختراقها ، وتنتشر هذه الأحراش هنا وهناك في الهند ، ولكنها تختلف عن الغابات الصديقة الودود للإنسان والحانية عاياه . وفي العصور القديمة أقام الإنسان المدارس في الغابات كما أقام أماكن يلجأ إليها بعيداً عن الضوضاء الصاخبة لدنيا العمل والعمال . ومن هذه المدارس التي أنشئت في العصور القديمة برز أعظم مفكرى الهند .

بومباى

وهذه المدينة ثانى كبرى المدن الهندية بعد كالكوتا . ومحيطها يجتاز جبال هندوكش ونمر بسما كراتشى نصل إلى بومباى مدينة تجارية وصناعية كبرى وهذه المدينة غزيرة الأمطار من يونيو إلى سبتمبر . وقد ينهمر المطر غزيرا ليوم كامل ، أو لبضع ساعات قليلة ، ثم تشرق الشمس وتغمر الأرض بأشعتها ، ولكن لا تلبث الأمطار أن تتساقط من جديد ، ويستمر إنهمارها لأسبوع كامل قبل أن تعود الشمس للظهور ثانية ، فتطل على الأرض من خلال السحب الكثيفة . وعندما ينقطع سقوط المطر تدب الحياة فى الحشائش والأزهار ، فتتموا وتتفتح ، وينسى المرء المطر ، وسط جمال الحدائق والبساتين التى تحيط بالفنادق والمساكن الرحبية .

وعلى شاطئ « شوبانى » فى طرف المدينة الغربى يستلقى الناس على الرمال الفسيحة تحت أشعة الشمس الدافئة ، وتصل إليهم أمواج البحر وتحيط بهم مياهه : ويبدو النخيل كأنه يتأيل على جانبي الطريق ويحول دون وصول الرمال إلى المباني .

ونرى الأطفال فى هذا الشاطئ بصحبة آبائهم ورفاقهم ، ويزدحم بهم الشاطئ وهم يستمتعون بكل جميل فيه ، ويعرض الباعة ما لديهم من الفشار والفول السودانى والحلوى واللعب التى يبتاعها الأطفال كما قد يكون بين الجمع مروض دب مستأنس يؤدى رقصاته مقابل ما يتناوله صاحبه من قروش .

الأرض الجنوبية وأشهر مدنها

وبين الهضاب الشرقية والغربية متجهة إلى الجنوب تقع مدينة حيدرآباد أشهر مدينة علمية بجنوب الهند . وقد كانت ولاية إسلامية مستقلة حتى نهاية الاحتلال الإنجليزى ، ثم ضمتها جمهورية الهند إلى المركز عن طريق الغزو

العسكري . وهي لم تزال تعد أشهر مدينة تطبع الكتب العربية النادرة وتوزعها على العالم الإسلامي كله . وفيها تقع مؤسسة دائرة المعارف العثمانية . وتعتبر هذه المدينة الآن عاصمة ولاية اندرابراديش .

مدراس

وهذه أكبر مدينة في جنوب الهند وتعتبر ثالث مدينة بعد كالكنا وبومباي وتقع على الساحل الشرقي لخليج بنغال . ومن ميناء مدراس البحري أو من « بلاجها » العالمى الشهير « ميرينا » نستطيع رؤية جامعة مدراس . وعلى أرصفة الميناء نستطيع مراقبة سفن النقل وهي تحمل الصادرات من هذا الجزء من أرض الهند ، فتتنقل آلاف الأطنان من الفول السوداني والأرز والبصل والقطن والكروم والمنجنيز والحام والميكا والقماش القطنى .

وتقع في هذه الولاية أشهر المعابد الهندوكية التي تمثل روائع الفن المعماري الهندوكي . وأشهر هذه المعابد تقع في مدينة « مادورى » (Mysdura) التي تعتبر أحد أهم المراكز الدينية للهندوس . وفي نظر الرحالة الأفرنج تبدو هذه المدينة أشبه ما تكون بمدن الكاتدرائية في أوربا حيث يكثر وجود الهياكل والمعابد .

ميسور

فيذا اتجهنا غربا من مدراس دخلنا الولاية الناهضة المتقدمة ميسور مجتازين الجبال المغطاة بالغابات حيث لا تزال القيلة تتجول وسط الأشجار ونجد هذه الغابات ممتلئة بالوحوش الخيفة .

وأن عاصمتها بنغلور تعتبر من أهم المدن الهندية ومصيف شهير لسكان الجنوب .

كيرالا

وتقع ولاية كيرالا في أقصى الجنوب الغربى على ساحل بحر الهند . وفيها عدد من المدن تتميز بخصوبتها وخضرتها مثل كوشين وتراونكور . ويلاحظ

وجود شجرة من أشجار جوز الهند عند مدخل فناء كل دار . وتزين ثمار جوز الهند كل صحاف الطعام التي تعدها النساء ، وتعتبر الانهار والقنوات والثياب البيضاء التي يرتديها السكان من المظاهر البارزة في كل الأراضي الجنوبية .

وفيها ميناء شهير يسمى كاليكوت وهو الذي لعب دوراً كبيراً في التجارة العالمية مع الشعوب العربية منذ القدم . وإن المنطقة التي يقع فيها هذا الميناء تسمى مالابار ، تلك التي توافد عليها التجار العرب منذ القدم وأنشؤا فيها جالياتهم قبل الإسلام ، وزاد نشاطهم بصورة مذهلة بعد الإسلام .

وتعتبر « رأس كماري » أبعد نقطة إلى الجنوب من أرض الهند ، وتقع عندها كل مناطق الوثوب إلى جزيرة سيلان . وهذه هي التي تقص الأساطير إنها قد وجدت فقط للملكة سيتا - زوجة رامنا ، الشخصية الأسطورية للحملة الرامايانا - تلك التي اختطفت من زوجها في إحدى جبال جنوب الهند واخفيت في جزيرة سيلان .

بين الهنود والهنود الحمر

وقد يشتبه الأمر على بعض الناس من وجود كلمتي الهنود والهنود الحمر . ويظنون إنهما يطلقان على الشعب الهندي . وهذا غلط فاحش لأن كولومبس ذلك الذي اكتشف أمريكا ، وكان في الحقيقة في طريقه إلى الهند قد أطلق خطأ على الشعب الأمريكي الأصلي ذي اللون الأحمر لقب الهنود الحمر . وبهذا تكون تلك التسمية خاطئة وغير دقيقة بالمرّة : وهي تطلق حتى الآن على السكان الأصليين لأمريكا .

الفصل الثانى

أوائل الحضارات الهندية المعاصرة للحضارات السومرية فى أرض
الرافدين ، والفرعونية فى وادى النيل : « موهنجودارو وهارابا »

كان تاريخ الهند قبل عام ١٨٠٠ ق . م مجهولا تماما حتى أوائل القرن
العشرين الميلادى . ثم بدأت الحفريات فى السند على شواطئ نهر الهند فى عام
١٩٢٢ م ، ونتيجة لذلك ظهر أول كتاب (وهو عبارة عن نتائج أعمال
الأحفار فى وادى نهر الهند) وذلك فى لندن فى عام ١٩٣٢ بعنوان
« موهنجودارو وحضارة نهر الهند (١) » . ثم تابعت عمليات الحفر والتنقيب
وظهرت نتائج هامة وسجلت فى عام ١٩٥٠ م فى كتاب « الهند فيما قبل
التاريخ (٢) » . وهذه البحوث والاكتشافات فتحت آفاقا جديدة فى تاريخ
الهند ، وأدخلت الهند فى طور جديد من الحضارة البشرية لتلتقى مع أقدم
الحضارات الإنسانية فى الشرق الأوسط مع الحضارة السومرية فى أرض
الرافدين والحضارة الفرعونية فى مصر وذلك خلال عام ٣٢٠٠ ق . م .

ومن جراء عملية الحفر والتنقيب أكتشفت مدينتان فى وادى نهر الهند
وهما « موهنجودارو (Mohenjo Doro) و « شانهودارو » (Chanhudaro)
ومدينة ثالثة فى وادى نهر راوى — وهو من روافد نهر الهند الكبير — وهى
« هارابا » (Harappa) ، ولكن هذه المدينة اثنتان تبعد عن الأخرتين
بمسافة ٤٠٠ ميل تقريبا .

وحينما ننظر إلى هذه المدن وحضارتها المندثرة — وإن كان ظهورها متفاوتا
فى الزمن — نجد ملامح متشابهة فى أمور كثيرة . إذ كانت طريقة الحياة متماثلة
إلى حد بعيد . وبسبب حاجتهم انقصوى إلى المياه للشئون الزراعية وعدم

1) Mohenjo Daro And The Indus civilisation
by Marshall Mac Khary and others.

2) Prehistoric India by Piggoth. London.

توافر الأمطار في جميع الآونة استخدموا أساليب صناعية كثيرة لرى الأراضي ، وكأها متشابهة إلى حد بعيد .

وكذلك كانت طريقة تفكيرهم وصناعاتهم ونحتهم وهندسة مبانيهم وفنونهم متشابهة كذلك إلى أقصى الحدود . وقد استخدموا نفس الأسلحة والأواني الفخارية والأدوات والحلى . ومن الجدير بالذكر أن بعض هذه الظواهر متشابهة في بعض النواحي مع الحضارة السومرية في أرض الرافدين .

وكانت حياتهم جميعاً تعتمد على الزراعة . ولذلك استخدموا نفس الوسائل في الري والإنتاج .

ولقد وجدت في بلادهم حيوانات الغابات بكمية كبيرة كالأسد والفيل والكركدن . وكذلك حيوانات البلاد السومرية في أرض الرافدين .

إن المباني والعمارات في موهنجودارو لم تنشأ على السهول فقط ، بل شيدت كذلك في المناطق المرتفعة على الجبال الصغيرة . وبهذا امتدت المساكن إلى مدى بعيد وزاد سكان البلاد زيادة كبيرة .

وقد بلغت شئون التنظيم والإدارة في مصلحة البلديات حينذاك أقصى درجة من الانتان والنضج . كانت العمارات تنشأ وفق مشروعات وضعت قواعدها وأصولها بعد دراسات علمية واسعة شاملة . ومن هنا نظمت الشوارع تنظيماً رائعاً . وكانت الشوارع واسعة ونظيفة ومنظمة ومنسقة إلى درجة كبيرة . وكذلك العمارات والقلاع قد شيدت بمنتهى التنسيق والتنظيم ورصفت رصفاً دقيقاً . لقد نجح السير جون مارشال (Sir John Marshall) والبروفيسور بييجوت (Piggoth) في اكتشاف هذه العمارات والشوارع والمباني في عام ١٩٢٢ في المنطقة التي تقع الآن في « لانكاشير » (Lancashire) - مركز المصانع القطنية - وكذلك شيدت مباني فخمة في فناء الدار مجهزة بالسلم والطرق الخلفية والحمامات وسائل المهملات .

حضارة الشرق الأوسط : أرض الرافدين وفلسطين ومصر

لقد بدأت بواذر الحضارة في كل من « جارمو » (Jarmo) و« حاسونا » (Hassuna) في شمال العراق منذ العصر الحجري الثاني ، وبدأت فيهما الزراعة في صورة بدائية . وقد صنع هؤلاء الأواني الفخارية البدائية . ومن المحتمل أن مثل هذه الحضارات قد ظهرت كذلك في مناطق أخرى من الشرق الأوسط . ولقد كان عند السكان في هذه الآونة قليلا للغاية . ولذلك لم تمتد آثار هذه الحضارات إلى مدى بعيد في أقطار الدنيا النائية الواسعة .

لقد ظهرت حضارة أولية بدائية في فلسطين في منطقة جيريكو (Jericho) أواريحافى العصر الحجري الثاني . وقد استطاع الإنسان في هذه الحضارة معرفة صناعة الأواني الفخارية قبل أن يعرف طريقة إيجاد النار وإشعالها . وكذلك بنى البيوت الحصينة من الأحجار ، وأحاطها بالجدران الطويلة الممتدة المبنية بالأحجار كذلك . وكذلك صنع مخابئ الاختفاء عن أنظار الأعداء واستخدم الجماجم الإنسانية لصناعة تماثيل إنسانية تشبه صورة حية الإنسان لخداع الأعداء وتضليلهم دفاعاً عن النفس . وعلى الرغم من كل هذا التقدم فقد كانت حياتهم شبيهة بالبدوية لأن الآثار المدنية لم تظهر بعد . لأن مطالب الحياة لم تتطور ، وكانت الحياة محصورة في الزراعة والصناعة البدائية والدفاع عن النفس ، والاختفاء عن أنظار الأعداء بشتى الطرق والوسائل .

إن الحضارة الإنسانية الحقيقية قد بدأت في الحقيقة بعد ألفى سنة من هذه الحضارات البدائية ، وذلك في « تل - حلف » (Tell - Helf) في شمال العراق منذ عام ٣٧٠٠ ق.م . وقد صنع سكان هذه المنطقة أول أوان فخارية مزينة ، أخذت طريقها فيما بعد إلى أنحاء وربع أرض الرافدين (أى العراق) . وكذلك ظهرت في هذه الآونة أوان فخارية مستقلة من نوع جديد في « عيلم » في « سوسا » التي كانت تقع في المناطق الجبلية لإيران وعلى مقربة من أرض

الرافدين . ومن المعروف أن الجنس البشرى لهذه المنطقة الجبلية يمتد إلى بلوشستان في الهند بنفس المميزات والملاحج . وهذه الأمة لعبت دوراً كبيراً في حضارة الهند وأرض الرافدين كما سنذكر قريباً .

ثم ظهرت الحضارة العبيدية في أرض الرافدين وازدهرت خلال السنوات ٣٥٠٠ - ٣٠٠٠ ق.م ، وحضارة جمدت نصر خلال السنوات ٣٠٠٠ - ٢٩٠٠ ق.م ، وانخيراً حضارة السومريين العظيمة (٣٩٠٠ - ٢٥٠٠ ق.م) .

وأما في وادي النيل فقد ظهرت أوائل الحضارات في الفيوم وممرمة حوالي عام ٥٠٠٠ ق.م ، وتاسا والبدارى حوالي عام ٤٥٠٠ ق.م وحضارة الأسرة الأولى عام ٣١٠٠ واستمرت حتى عام ٢٧٠٠ ق.م وهذه الحضارة الأخيرة كانت معاصرة لكل من السومريين في العراق وسكان وادي نهر الهند .

اسباب ظهور هذه الحضارات

طالما كان الإنسان يعتمد على فيض السماء وأمطارها الغزيرة ، ويتكفل عليها كل التوكل ، ولم يطلب المزيد عاش في طور بدائي من الحياة ولم يشم رائحة الحضارة خلال هذه الفترة الراكدة . ولكنه حينما كسر أغلال الجمود وثار على حياة التوكل وخرج ليسخر الطبيعة اسيرطته ونفوذه بواسطة قواته الحائلة الكامنة في نفسه ، واستخدم الوسائل الصناعية للاستغناء عن الأمطار إلى حد ما . فقد دخل في طور جديد من الحياة . ومن هنا تحولات الحياة من البدائي إلى الطور المدني الأول (Urban civilization) . وهذه الثورة الإنسانية الأولى قد قامت في وادي نهر الهند وأرض الرافدين ووادي النيل خلال عام ٣٢٠٠ ق.م تقريباً .

مناطق الشرق الأوسط الأخرى

تتضمن كلمة الشرق الأوسط البلاد الآتية : مصر ، والأناضول ،

وسوريا ، ولبنان ، وفلسطين والعراق . وإيران ، والجزيرة العربية كلها . كانت الأناضول مناطق هامة في تلك الأيام . لأن جبالها الشاخنة الشرقية كانت غنية بالمعادن كالذهب والفضة والنحاس والحديد . وإذا كانت هذه البلاد متصلة بسوريا من ناحية الجنوب فإنها كانت ملحقمة بأوروبا من ناحية الشرق ، وبروسيا من جهة البحر الأسود .

سبب وجود الملامح المتشابهة بين سكان الهند والعراق

ومن المعروف أن حضارة نهر الهند والتي يرجع تاريخها إلى الفترة قبل عام ٣٠٠٠ ق.م ، كانت متقدمة جداً في جميع المجالات . شأنها في ذلك شأن الحضارة السومرية العراقية في هذه الآونة . وهذا يدل بوضوح على أنها مرت بمراحل عديدة وقطعت مدارج كثيرة . ولكن الأحفار لم تكشف لنا بعد عن الخيوط الأولى للصورة البدائية من هذه الحضارات لكي نقف على حقيقة ملامحها الأولى فنكشف ذاتها وتفاعلها مع حضارات الشرق الأوسط .

ومن ناحية أخرى فإن وجود ملامح متشابهة بين وجوه السومريين وسكان وادي نهر الهند دعا كثيراً من علماء الأحفار إلى القول بأن السومريين كانوا من الأصل الهندي . وقد نزحوا من المناطق الجبلية للهند والتي تسمى ببلوشستان واستولوا على مقاليد الحكم في أرض الرافدين وسموا بالسومريين . وقد الفت كتب ومقالات باللغات الأفرنجية في هذا الموضوع .

ولكننا نرى - على ضوء هذه البحوث والنتائج الحفرية - أن سكان المناطق الجبلية الممتدة من بلوشستان (وهي الواقعة الآن في باكستان الغربية في الحدود المتاخمة لأفغانستان) وأفغانستان وكران وعيلم (إيران القديمة) كانوا كلهم من أصل واحد ، واتسموا بلامح متشابهة ولهجاتهم متقاربة وألوانهم متماثلة . وكانت حياتهم تعتمد على نخيرات الجبال ، ولذلك اشتهروا بالقوة والعنف والهمجية . وبما أن موارد الحياة في تلك المناطق المتفرقة

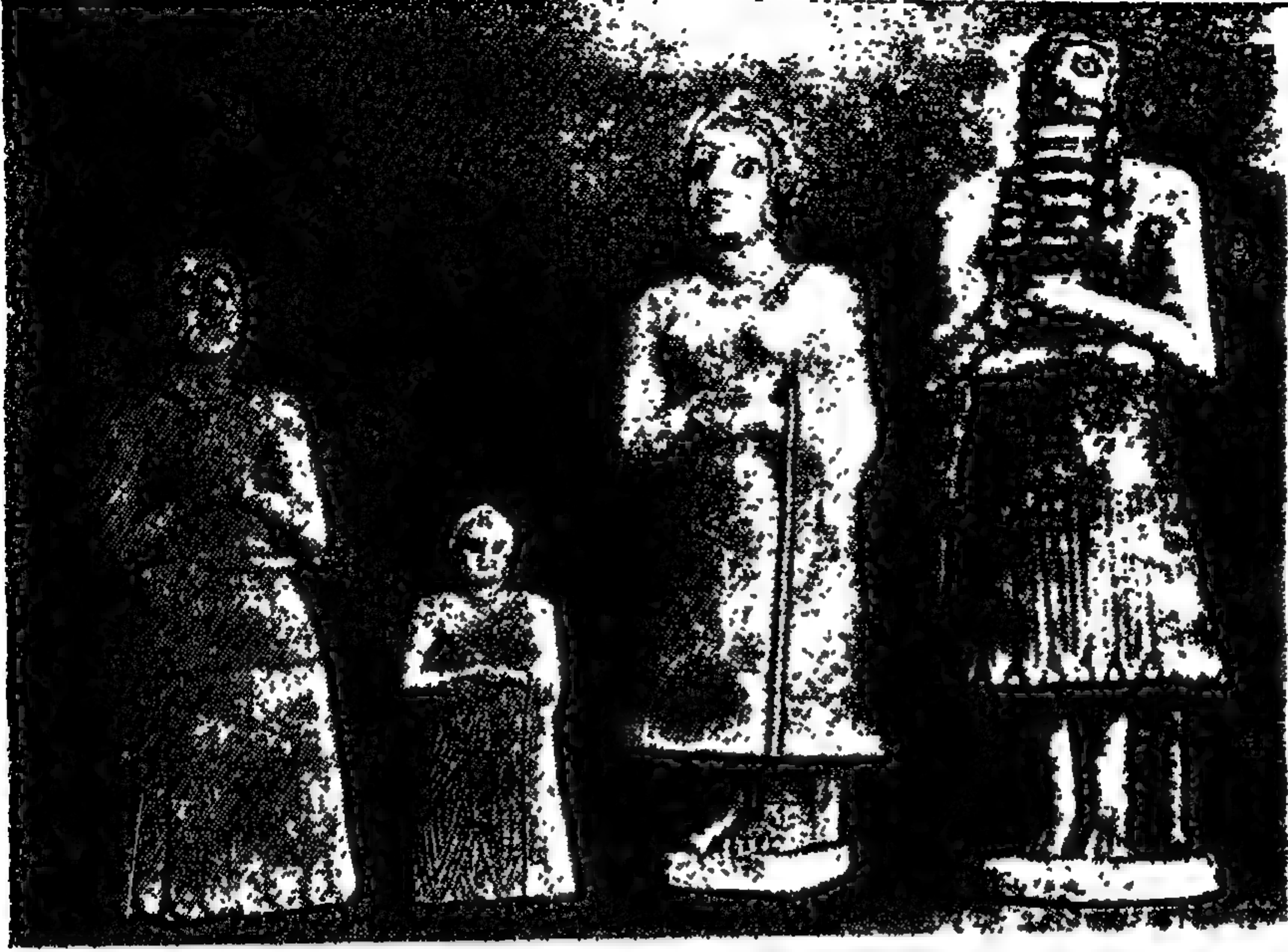
المتوحشة كانت قليلة للغاية فقد اضطروا بين حين وآخر إلى الزحف إلى المناطق السهلية الخصبة على ضفاف الأنهار . وكان نهر دجلة والفرات يقعان في الغرب ، وفي الشرق نهر الهند وروافده . ولذلك اتجهت القبائل القريبة من نهر الهند إلى وادي نهر الهند وروافده ، والقبائل القاطنة على سبيل عيام إلى أرض الرافدين ، واستولت على مقاليد الأمور في تلك البلدان الغنية الخصبة بما أعطيت من القوة والبطش والبسطة في الجسم بسبب إقامتها في الجبال . وصورة مماثلة قد حدثت في نفس العصر تقريبا حينما نزحت الأمة الهندية الأوربية الساكنة في جهة بحري قزوين والأسود إلى المناطق الأوربية الخصبة والأناضول ، وكذلك حينما نزحت الأمة انسامية أو العربية القاطنة في الجزيرة العربية إلى أرض الرافدين وبلاد الشام

أوجه التشابه الأخرى بين الهند والعراق

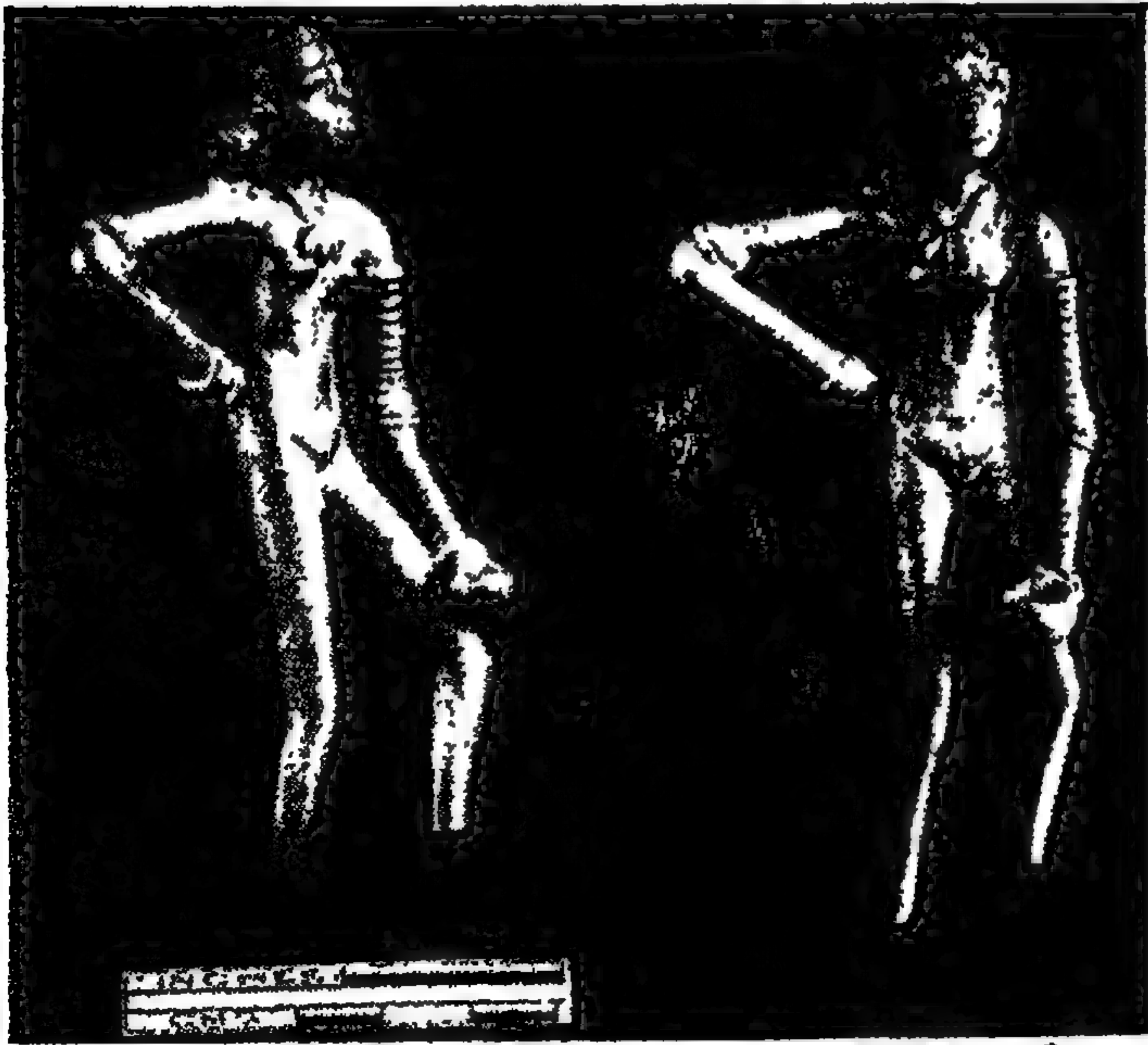
إن وادي نهر الهند مشابه لوادي أرض الرافدين ووادي النيل إلى حد بعيد . لأن أرضها هي الأخرى سهلية خصبة ، تعتمد أساساً على فيض السماء ، وتتأثر إذا تضاءلت الأمطار ، وتتحول البلاد إلى المجاعة إذا نفدت الأمطار . ولذلك اعتمد سكان هذه المناطق على الوسائل الصناعية (كالعراقيين والمصريين) في ري الأراضي بمياه الأنهار . كان نهر الهند وروافده (بجيلم شتاب راوى بياس ستلج) تروى هذه المناطق الممتدة المتسعة والتي تبلغ مساحتها بالنسبة إلى مصر مرتين ، وأربع مرات بالنسبة إلى أرض السومريين والأكاديين . وهذه الروافد الخمسة في الغرب ، ونهر ساراسودى في الشرق والمناطق المحيطة بهما تقع - وفق جغرافيتنا الحديثة - ولايتا السند وبنجاب . فالسند الآن - كما قلنا - تدخل في إطار باكستان الغربية ، وأما بنجاب فنصفها في باكستان والنصف الآخر في الهند . وحينما ننظر الآن إلى بلاد السومريين نراها صحراوية تقراء قاحلة ، لا ظلال فيها ولا أشجار . وأما السند وبنجاب فيبدوان شبه صحراء من جهة ، ومستنقع من جهة أخرى .



لوحة (۱)
تمثال حجری لرجل من موهنجو دارو



لوحه (٢)
تمائيل للسومريين من ارض الرافدين



لوحه (٣)
تمائيل نحاسية لراقصات من هارابا

والسهول المنخفضة حيث لم تصل إليها المياه بسبب وجود السدود قد تحولت إلى غابات كثيفة . أما حيث كانت تتسرب فيها بعض المياه فقد نبتت فيها أشجار خفيفة ، وكذلك ساعدها وجود الطبقة الأرضية الواقعة تحت التربة . وقد ارتفعت هذه الطبقة الأرضية من عشرة إلى خمسة عشر قدما من السطح الأرضي العام . وأما السطح العام للسهول ووادي الروافد فلم يحدث فيها تغيير .

ومن ناحية أخرى فإن الهند وأرض الرافدين تبدوان منطقة متحضرة ممتدة متلاحقة في سلسلة واحدة حينما نلقى نظرة على خريطة هذا العصر . وذلك لأنه يتوسط كلا من أرض الرافدين ووادي السند مناطق شاسعة تحاول امتصاص هاتين الحضارتين لتبلغ مستواهما أو لتكون حلقة متصلة بينهما . وهي تبدأ من بلوشستان وأفغانستان وإيران وتمتد حتى جبال زاغروس (Zagros) في أرض الرافدين .

بين الهند والعراق ومصر

ومع أن هذه الحضارات الثلاث قد نبعت مستقلة وتطورت ، وبلغت أقصى درجات المجد والازدهار محتفظة بروح الاستقلال والذاتية ، إلا أننا نجد بين الثلاث ملامح متشابهة في أمور كثيرة . كانت الزراعة أهم عماد الدولة في الحضارات الثلاث . كانت تزرع الحبوب الغذائية والأشجار وتروض المواشي والأغنام ، وتستغل المعادن كل الاستغلال لصناعة أدوات كثيرة مهمة ، كما وجدت مصانع النسيج وصناعة الآجر والقدر ، بالإضافة إلى أعمالهم في شق الأحجار والصخور للعثور على الخرز والفصوص والأحجار الثمينة الأخرى مثل الياقوت الأزرق (لبيس لازولي) ونانيس وما إلى ذلك . وعلى الرغم من كل هذا التشابه فقد كان الاعتقاد السائد في كل هذه البلاد أن هذه الجوانب مختصة بها دون غيرها .

وفي بعض قلاع هارابا (في وادي نهر الهند) وأطلاله الممتورة تحت

الأرض قد عثرت على قطع فخارية صنعت بالعجلة ، لم تكن لها علاقة بالهند بتاتاً . وهي تشير إلى كون أهلها أميين ينتمون إلى شمال بلوشستان ، ويرجع تاريخهم إلى عصر ما قبل حضارة هارابا . وكذلك حفريات أوام فخارية كثيرة في مناطق عديدة من وادي نهر الهند وفي قرية أمري (Amri) بالذات في بلدة ماجوندار (Majundar) ، تشير كلها إلى أنها صنعت قبل ظهور حضارة وادي نهر الهند ، وإنما بدائية للغاية ، صنعت بالعجلة ، وأشكالها وزخارفها مختلفة غامقة اللون ومزخرفة بالأنماط الجبرية ، زوايا الشكل ، متصلة الحلقات ، وتحمل فاسين ، أو ذات إطلاع أربعة متساوية ، وزاويتين حادتين متفرقتين ، أو مربعة الشكل المغطاة ، ومرسومة بخطوط سوداء ، أو حمراء رمادية . ومع إنها تشير إلى بداية عهد وادي نهر الهند وحضارته ، إلا إنها كانت منتشرة ومعروفة في أرض الرافدين في حضارة يوروك (Uruk) خلال السنين ٣٢٠٠-٣٠٠٠ ق.م وهذه الظاهرة تذهب بنا إلى الظن باستيراد الهند لهذه الأدوات من أرض الرافدين . ولكنها ليست قوية . والمرجع أن الهند حاولت محاكاة أرض الرافدين في أدواتها الحضارية في العصرين يوروك وجمدت نصر ، ونجحت في هذه المحاولة وصنعها على أنماط أرض الرافدين . وبهذا تم تبادل الخبرات الفنية بين البلدين كما تم تبادل السلع التجارية والحضارية من قبل .

ومن الجدير بالذكر أن نهاية حضارة وادي نهر السند تتجلى أمامنا بكل وضوح ، في حين نرى بدايتها في ظلام حالك . لقد وجد في بعض العمارات الفخمة للطبقة البورجوازية إن الآجر المستعمل قد أعيد استعماله وكانت هذه العمارات مزدحمة ومتقاربة جداً حتى ضاقت بها الشوارع . وفيما يبدو لنا إن سلطات البلديات لم تكن تملك سلطة منع هذا النظام الفوضوي .

معالم الحضارة في وادي نهر الهند

لقد عثر علماء الأحياء على أدوات كثيرة تدل على وجود حضارة عريقة

أصيلة في وادي نهر الهند . وتحتل الأواني الفخارية والأختام والكتابات القديمة الدرجة الأولى من الوثائق الأثرية لعرض هذه الحضارة في صورتها الأصلية وشرحها شرحاً وافياً .

الأواني الفخارية

وقد فاق وادي نهر الهند أرض الرافدين في صناعة الأواني الفخارية الممتازة . كان هؤلاء يصنعون أواني فخارية مزينة مزخرفة ممتازة . لقد استخدم الخزافون هنا عجلة سريعة في صناعة هذه الأدوات . وكانت الأواني في معظم الأحيان شاحبة اللون ، أو باللون القرمزي المائل إلى الأحمر . وهذا اللون كان يستمر على الرغم من شدة اشتعال الوقود ، ويتحول بعد الاستعمال إلى لون شبه النسيج الرمادي . وكانت هذه الصناعة تشبه ما وجد في يورك في العراق . ولإيجاد النعومة للإناء استخدموا أدوات خاصة وسدادة ، تستعمل حتى الآن لنفس الأغراض في تلك المنطقة . وهذه الظاهرة قد وجدت أيضاً في حضارة جمدت نصر في أرض الرافدين .

إن الجرة ضيقة العنق كانت نادرة جداً . وأما طويلة العنق فلم توجد بالمرّة . وأما الطست مرتفع القم قد وجد بكثرة ، وهو مزخرف باللون الأحمر والرمادي . وقد عثر على هذه الأواني في المقابر بكثرة ، كما عثر عليها في بلاد السومريين . كما وجدت جرة أسطوانية بجانب ذلك .

والقد زخرفت الزهرية ببصمات مدورة . وهي تميل إلى اللون الأصفر الشاحب ، مفروكة فوقها بشيء من الخشونة ، وكذلك وجدت مثل هذه الزهرية في البلاد السومرية ، وعليها عقود ، ومزخرفة بأبدع أنواع الزخرفة ، ومصبوغة باللون الأسود أو الأحمر الغامق . وكذلك وجدت أدوات كثيرة مزخرفة بأبدع الألوان ، منها الأحمر والأصفر ، وصبغت بالألوان بعد إحراقها في التنور .

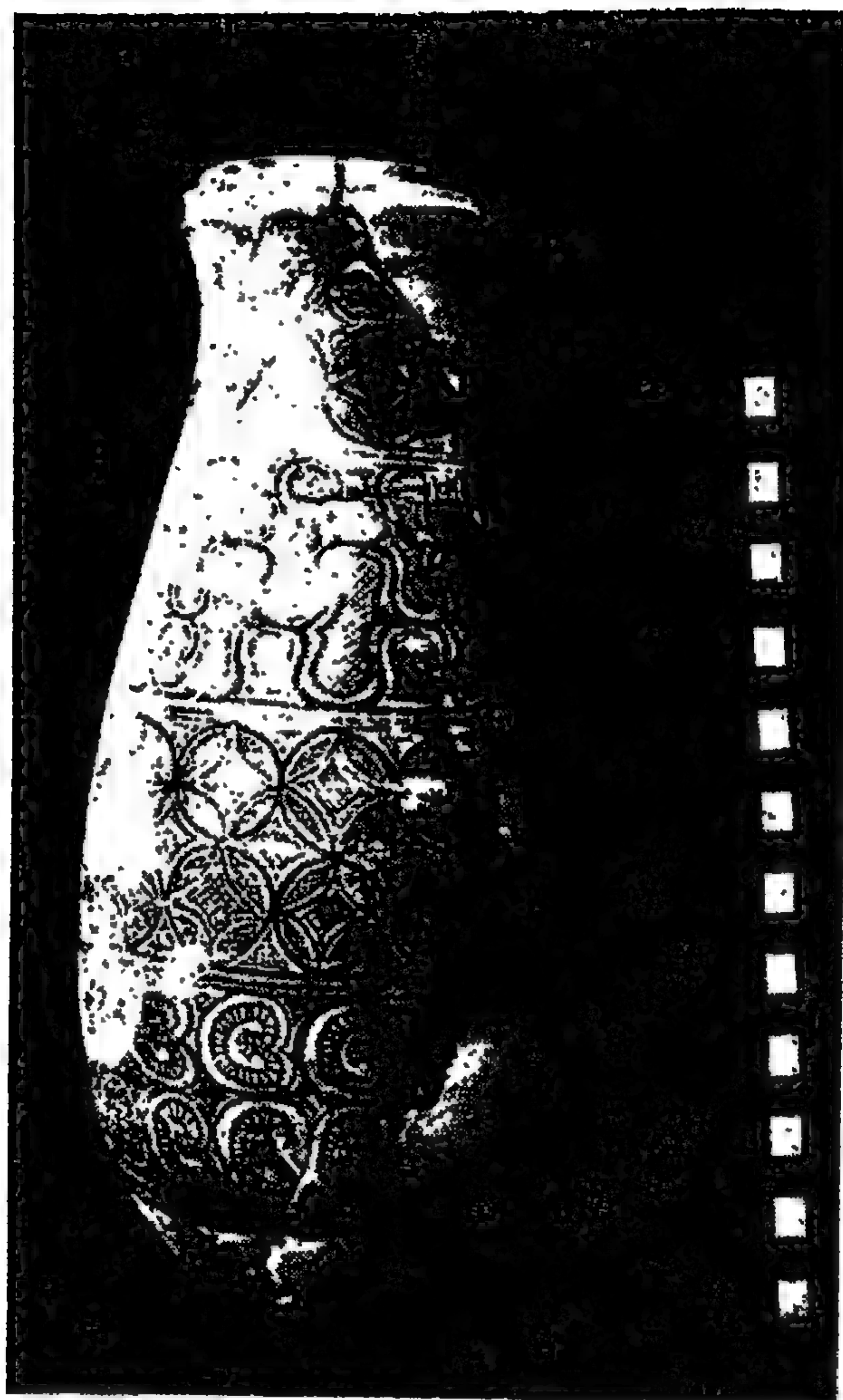
إن الزخارف المدهونة باللونين الأسود والأحمر تدل على وحدة الصناعة في وادي نهر الهند في مدنها المختلفة ، لأنها وجدت على نفس الأنماط وبكثرة في جميع أطوار الحضارة مبتدئاً من موهنجودارو ومنتهياً إلى هارابا .

وكذلك صنعوا بكثرة مادة تسمى « فاينس » (Fayence) ، استخدمت في الأسرار والتماثيل والطوايع والحرز ، كما استخدمت في صناعة الزهرية لتتخذ مظهراً فخارياً صناعياً . وأن بعض القطع من الأواني الفخارية تبدو وكأنها زجاجات لامعة حقيقية . كانت الزهرية المصنوعة من الأحجار نادرة جداً . إن الدلالات تشير إلى أن الزهرية الحجرية قد استوردت من أرض الرافدين .

الآختام

تمثل الآختام مكانة هامة بعد الأواني الفخارية في الحضارة الهندية . وقد وجدت آختام كثيرة كأقراص مربعة الأشكال ، تشبه الأحجار الصابونية وعلى ظهرها حذبة ، ووجهها محفور ، ولما تقطعت صارت مصقولة لامعة . وقد حفرت عليها أساطير بحروف واضحة مفهومة كما نرى في تصميمها صور الحيوانات تعبر عن مفاهيم وهي كاحادي القران (وهو حيوان خيالي) ، والثور ذي القرن القصير ، والثور البرهمني (نوع من الثور) ، والفيل ، والكركدن ، والأسد ، والجاموس ، والتمساح ، والظبي (بقر وحشى) . ونفس هذه النقوش وجدت محفورة على أقراص نحاسية مسطحة ، كما وجدت على وجهها الثاني كتابات . وكذلك وجدت آختام ضيقة المثلث الزاوية ، مخرومة ومثقوبة في طولها ، ولا نجد فيها غير الكتابات .

ومما يؤسف له أن علماء الأحفار لم يذكروا لنا طبيعة هذه النقوش والكتابات . ولذا لا نستطيع مقارنتها بالحروف السومرية المسماة . وعلى كل حال — وفيما يبدو لنا — إنها كانت حروفاً مستقلة ، لا علاقة لها بالمسمارية



لوحة (٤)
زهرة مرسومة من موهنجو دارو

السومرية . وهذا يدل على استقلال الهند بالأبجدية والكتابة منذ بداية حضارتها في وادي نهر الهند .

وكذلك وجدت أختام مستطيلة مثل الأزرار ، تشبه الطوابع ، مصنوعة من الأحجار الصابونية . وهي تحمل زخارف هندية جبرية رائعة ، وعليها نقوش تشبه الصليب المعقوف .

ومن الجدير بالذكر أن هذه الأختام — على الرغم من وجودها بكثرة وبصورة رائعة بديعة ، ودلالاتها على تقدم هذه الصناعة في الهند — فإننا لانجد ما يشير إلى استخدام هذه الأختام في الشؤون الإدارية أو الحكومية ، في حين أنها استخدمت في الشؤون الرسمية في كل من أرض الرافدين ومصر .

ومن جهة أخرى فإننا نجد إشارات خفيفة إلى استخدامها في الشؤون الرسمية ، وذلك من خلال رؤيتنا أختاماً صغيرة عليها بصمات أو انطباعات ولكنها غير واضحة تماماً . ومن هنا نعتقد أن هذه الأختام كلها قد استخدمت في الشؤون الطقوسية والمراسيم والحفلات الخاصة .

وكذلك وجدت أحجار مصقولة تشير إلى وجود ألعاب عندهم ، بعضها يشبه ألعاب أرض الرافدين مثل لعبة النرد ، مكعبة الشكل . وكذلك توجد إشارات أخرى بوجود تشابه بين الهند والعراق .

إن هذه الأدوات والوثائق الأخرى تدل على أن الحضارة قد بلغت أقصى درجة من التقدم والأزدهار في جميع المجالات ، وتوافرت فيها جميع المظاهر الحضارية ، واستكملت صورتها في شتى مرافق الحياة والميادين .

التجارة والبضائع التجارية

تقدمت التجارة تقدماً ملحوظاً . فقد توافرت الوسائل لاستيراد وتصدير

البضائع التجارية داخل الهند وخارجها . وكانت المواد الغذائية تأتي بسهولة من المناطق الساحلية النائية ، كما كانت تستورد أنواع من المعادن من أقاصى مناطق الهند مثل : راجبوتانا وباكوشستان . كانت الأصداف البحرية تستورد من جنوب الهند وأنواع الأحجار الثمينة كانت تجلب من كجرات . وليبس لازولى (نوع من الياقوت الأزرق) من بلخشان ، ويشم (حجر ثمين) من الصين أو بورما . وكذلك أتت الأحجار الكريمة من مدراس من جبلها الشهير نيلغرى بجنوب الهند . وقد عثر فى هذه الفترة من الزمان على كثير من الأدوات الهندية التى أخذت طريقها إلى أرض الرافدين . وقد عثر فيها بصفة خاصة على الأواني الفخارية المدورة المزخرفة وهى من صناعة الهند ، وذلك خلال الألف الثالث قبل الميلاد . وبعبكس ذلك فقد عثر فى وادى نهر الهند على الأدوات العراقية مثل الأختام الأسطوانية وأدوات الزينة . وهذا يدل على وجود روابط تجارية وثيقة بين البلدين ، واتصالهما تجاريا وحضاريا .

وسائل المواصلات

لقد أصبحت المدن مراكز التجارة فى هذه الآونة . وقد أدى ذلك إلى توافر وسائل المواصلات لتشجيعها وتنشيطها فى داخل البلاد وخارجها . كانت العربات ذات العجلات والسفن العادية من أهم المواصلات فى الداخل والخارج . كانت العجلات تصنع من ثلاثة ألواح خشبية صلبة ، شبيهة بما وجد فى أرض الرافدين ، وعيلم ، وهذا النوع لم يزل يوجد فى السند . وقد صنع محور فى وسط الأخشاب لمساعدة العربة على سرعة السير . وقد عثر على نقوش ختمية طينية وبرونزية تشير إلى ثلاثة أمور : أولها : إلى وجود عربات ذات العجلتين ، وهذه العربات لم تزل توجد فى الهند بكثرة . وثانيها : عربات صغيرة ذات عجلتين يسوقها ثور ، وهى تسمى الآن — « الإكا » (Екка) ، وتسوقها الخيول . وثالثها المركبة ذات العجلات الأربعة ، وهى شبيهة بمركبة أرض الرافدين . وكانت لها حاجة بين العجلات.

للقاية . كان الثور حيواناً مختاراً عند هذا الشعب . وأما السفن فهي تشبه سفن حضارة يوررك في العراق .

المباني : طرازها ومواد بنائها ومحتوياتها

وقد شيدت المباني في المدن الكبرى بالآجر المحترق . ولم تستعمل الآجر الغير محروق في موهنجودارو على الإطلاق ، إلا في حالات خاصة ، وفي ملء بعض الفراغ في البناء بالذات . وأما في هارابا فقد استعمل كل من الآجر المحروق والطيني على السواء . وفي الطراز القديم من العمارات استعمل الآجر مع الأخشاب . وهذا الطراز يمكننا أن نسميه بالطراز الطيني ، ولكنه لم يستمر على مدى بعيد . ولذلك لا نجد أثره فيما بعد . كانت صناعة الطوب والآجر بسيطة للغاية . ولكنها فيما بعد قد صنعت بإضافة مادة سائلة جديدة ولكنها انتشرت لدرجة كبيرة في عصر البوذيين ، ولم يزل له أثر في الهند الحديثة . كانت تجلب أنواع من الأخشاب من الغابات والهملايا بالذات . ومثل هذه الأشجار لم تتوافر حينذاك إلا في الهند كسيسو وديودار وغيرها . وأخشابها قد اتسمت بالصلابة والقوة . ولم تستعمل الأحجار في الشؤون المعمارية ، شأنها في ذلك شأن أرض الرافدين . ولكنها استعملت في صناعة أبواب مجوفة . ولعل ذلك للصيانة والحفظ من الأعداء واللصوص خشية دخولهم المنازل . كانت المنازل تتضمن الحمامات والآبار ، ولكن المراحيض المخصصة لم تعرف في هذه الآونة ، بل عرفت فيما بعد .

وفي هذا المكان الذي يقع فيه الآن معبد بوذي على ربوة قد اكتشف « السير جون مارشال » حوضاً كبيراً لحضارة وادي نهر الهند . وكان هذا الحوض عبارة عن حمام كبير يتدفق عليه الناس من أقاصى أرض الهند لمعالجة الأمراض الجلدية . لأن مياهه كانت تحتوى على أملاح تشفى كثيراً من الأمراض . ومثل هذه الحمامات توجد في معظم بلاد العالم حتى الآن ، كما توجد في حلوان بمصر .

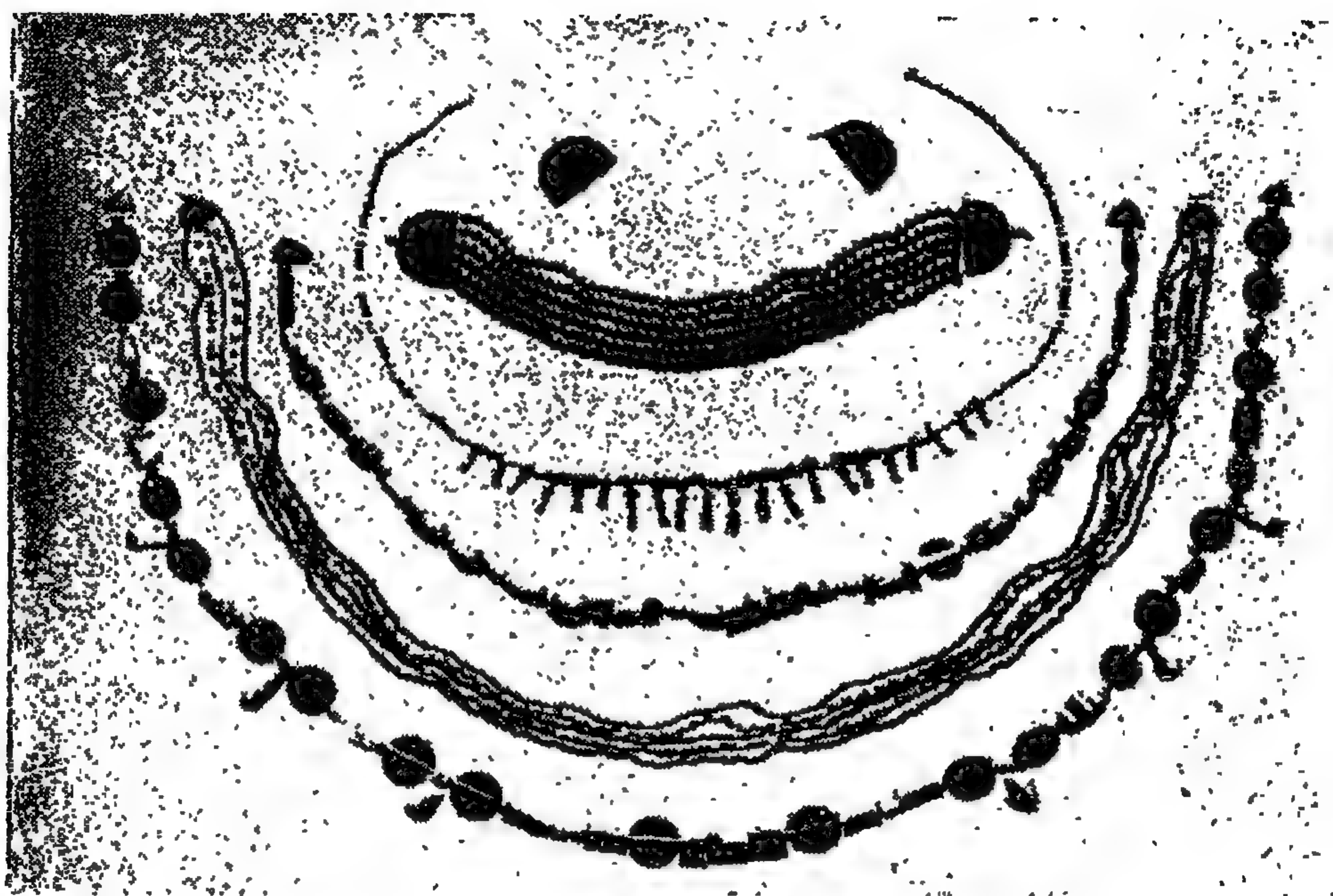
وكان هذا الحوض يقع في قلعة كبيرة . وكانت المساحة المحيطة به مقدسة لدى السكان . وقد احتل هذه المكانة المقدسة على مرور السنين والأزمنة .

وبالقرب من هذا الحوض الكبير يقع مكان تودى فيه المراسيم الدينية . وعلى أطراف الحوض وبجواره بنيت ثمانى غرف صغيرة تابعة للدير ، وفوق كل غرفة تقع صومعة . وهذه الظاهرة تشير إلى أن هذه الغرف كلها مخصصة بالكهان الذين كانوا يقومون بأداء مراسيم الاستحمام المقدس . وكان يتجمع بجمع غفير من الناس أمام الحوض . وكان على الكهان أن يشرفوا على أداء الطموس الدينية عن طريق الاستحمام في هذا الحوض الكبير . ولذلك تحم عليهم وجود إقامة مستمرة في الغرف المجاورة للحوض لأدائها في أوقات محددة لها .

ومن الحدير بالملاحظة أن الاستحمام كطمس من الطقوس يرجع تاريخه إلى ديانة وادى نهر السند . وهذا الطمس هو الذى اتخذ ألوانا وأنواعا في الديانة الآرية فيما بعد . وعلى هذا الأساس نجد الهندوس حتى هذه اللحظة يعتبرون الاستحمام في الأنهار المقدسة مثل الجنجا والحمنا طقوسا دينية مقدسة ، ينبغي أداؤها على كل فرد منهم . ومن أجل ذلك نجد الناس يتهافون على هذين النهرين ورافدهما في شتى أنحاء الهند الشمالية ، ويستحمون بشتى الطرق رجالا ونساء على اعتبار أنه من المراسيم الدينية المقدسة .

الملابس والخطى

كان الرجال يلبسون الشال ويغطون به جسمهم ويربطونه حول الاكتاف . وأما النساء فكان يلبسن كساء منسوجا ويربطنه بما يشبه الدبايس . كانت الأساور من أهم مميزات الحلى الهندية في هذه الآونة بخلاف مصر وأرض الرافدين . وكانت هذه الأساور تصنع من الفخار المصقول اللامع أو من المعادن أو الصدف . وكانت هذه الأساور تزين بضلع لولبي من ناحية طرفها . وكانت النساء يربطن الشعر بمنديل فيه شرائط ذهبية . ومثل هذه المناديل كانت معروفة في أرض الرافدين أيضاً . وكن يلبسن أنواعا من العقود



لوحة (٥)
حلى من موهنجو دارو



لوحة (٦)
حمام عظيم من حضارة موهنجودارو

والقلائد تتدلى على أعناقهن وتغطيها ، وبهذا يزداد جمالهن . وكانت الأطباق الذهبية شبه دائرة في شكلها . وهذا النوع قد وجد أيضاً في مصر وفي بيلوس (في لبنان) في هذه الآونة . وهذه الصناعة قد وجدت في عيلام أيضاً كما تتمثل في كسرة من إناء خزفي عثر عليها . وبالإضافة إلى الأقراص الذهبية قد وجدت صناعة الخرز أيضاً ، وهي موجودة كذلك في بلاد السومريين ومصر وفي « تراى » في آسيا الصغرى .

ووجد كذلك خرز على هيئة قطعة دائرية وذلك في هارابا في القرون الأخيرة .

وأما الخرز المصقول اللامع فكان نادراً جداً . ولكن صنّاع هذه البلاد حاولوا محاكاة أرض الرافدين في هذا المجال ، ولذلك جربوه على عجينة ، وصنعوا منه أدوات مدورة جامدة مصقولة لامعة . وهذه الأدوات كذلك وجدت في مقابر الملوك في « يور » في العراق . وكذلك وجدت أسطوانة سميكة غالية لامعة تشبه العقيق ، وذلك في مقبرة الملكة شوباد . وأما الخرزة الدقيقة المخصوصة بالهند فكانت تشبه أسطوانة صغيرة مفلولة في جوانبها . كانت التماثيل قليلة للغاية . كذلك وجدت رسوم للحيوانات مثل الكباش والحروف ، كما وجدت في أرض الرافدين . وأيضاً وجدت تميمة واحدة مصنوعة من العظم أو العاج ، وهي نادرة جداً في الهند ، ولعلهم صنعوها في محاكاة لمصر أو بلاد السومريين .

وكذلك وجدت حلى مختصة بالمعابد ، وهي تشبه الزرّ أو المشط المحدث في شكلها ومصنوعة من الحجر الصابوني ، وفيها ثقبان من الوسط .

الأدوات المنزلية

كانت العمارات تلبط وتخصص كما قلنا سابقاً . وكانت تتضمن غرفاً عديدة . ولكن محال الخلاء المخصوصة لم تكن موجودة . وكانت الحمامات موجودة . وكذلك خصصت غرفة للبئر ووضعت فيها جرة كبيرة على خشبة.

تشبه الطاولة . وهذه الظاهرة لم نزل نراها في معظم أنحاء الهند في صورة مشابهة لها . وكذلك العربات والسفن في تلك الآونة شبيهة بما نجده الآن في الهند . وقد صنعوا أنواعاً من الأرائك أو السرر من الطين ، وهي لم تزل موجودة ، كما وجدت في نفس الآونة في أشور بالعراق وسوسا في إيران . وإن صناعة الخزف القروية في السند توحى إلينا بأن الخزافين قد توارثوها منذ أقدم العصور ، ولم يطرأ عليها تغيير . كانت النساء في ولع شديد بالاساور والحلى الأخرى ، ولم تعرف الدبابيس عندهن . وهذه الحلى كلها هندية أصيلة . وكذلك استعملن الكحل في العيون . وكان هذا الكحل يوضع في قارورات أو دوارق ويستعملن عوداً نحاسياً حين وضعه في العين . وهذه الظاهرة هي الأخرى هندية صميمة . وكن يستعملن أمشاطاً مصنوعة بالعاج . وهي شبيهة جداً بالأمشاط الخشبية التي تصنع حتى الآن في قرى الهند . وقد عثر علي مفرك حجري في موهنجودارو يشير إلى أنه كان من جملة أدوات الزينة والحمام في تلك الآونة . وبعض هذه الأدوات شبيهة جداً بما وجد في أرض الرافدين في حضارة كيش .

الحيوانات

كانت تربي وتروض أنواع من الحيوانات والمواشي في وادي نهر الهند . كانت الأغنام والأبقار والثيران من أهم الحيوانات التي كانت تساعد الفلاح في ري الأرض وفي الأكل . وبالإضافة إلى ذلك كانت تربي كذلك المعيز والخرفان والفراخ والديوك والجواميس والفياة . وهذه الحيوانات كلها كانت تعتبر منزلية ، وكذلك للتجارة . ولذلك حرصوا على تربيتها وترويضها والعيش عليها . وبالإضافة إليها لم توجد أية إشارة إلى وجود خنازير ، ولأن الخنازير لم تكن من الحيوانات المنزلية ، بل كانت تعتبر وحشية . وفي موهنجودارو بالذات نرى أيضاً الخيول والإبل ، ولكنها دخلت متأخراً . ولم تكن من الحيوانات الأصلية للهند .



لوحة (٧)
اختام و تمائم من موهنجودارو

نظام الري

كان وادي نهر الهند يعتمد على نظام الري في الزراعة . شأنه في ذلك شأن مصر وأرض الرافدين . وكانت تزرع فيه من الحبوب مثل القمح والشعير والبسلة والبلح والسمسم . وهناك إشارات بوجود الأرز أيضاً ، كما يدل على ذلك وجود بعض الموازين . ولكن هذا الأمر غير مؤكد . وبالقيااس إلى مصر قد حل فيها القطن محل الكتان . وهذا يدل على أن التطن قد عرف في الهند مبكراً ، وقبل مصر بمئات السنين .

المعادن

قد وجدت أنواع من المعادن الهامة بكمية كبيرة . فقد عرفوا استعمال وإذابة الذهب والفضة والنحاس والرصاص . وقد صاغوا منها أدوات ضرورية كثيرة . وكذلك عرفوا — كالعراقيين استعمال القصدير . وكان النحاسون يخطرون القصدير بمقدار ٣٠٤ و ٤.٤ في المائة من الزرنيخ ومسامير برشامية وأشياء أخرى . ولكنهم — فيما يبدو — لم يعرفوا تحويلها إلى النحاس أو سبيكة لحامية .

وفي هارابا استعمل أصحاب المعادن أفراناً تشبه القدور في شكلها ، يبلغ قطرها ما يقرب من ثلاثة أقدام وأربع بوصات وسميكتها ثلاثة أقدام وثمانى بوصات . ويدخل فيها تيار هوائى جارف بقوة هائلة عن طريق أنابيب مائلة إلى أسفل . وكانت هذه الأنابيب تعمل بقوة المنافيخ .

الأسلحة

وقد عرفوا صناعة أسلحة هامة ، شأنهم في ذلك شأن العراقيين والمصريين . وهناك تشابه كامل بين أسلحة هذه المناطق الحضارية الثلاثة ، وإن كانت أرض الرافدين فاقت الهند بمراحل في هذا المجال . والأسلحة التى نجد فيها أوجه التشابه مع أرض الرافدين هى : أزميل وفاس والمنشار الصغير وهو يشبه بما وجد فى مصر فى هذه الآونة ، وخنجر مسطح ، ورمح وحرية ومطرة وموسى ، وضارة شكلها كالبرقوق ، ومهماز ومنجل .

الدين

إن ديانة وادى نهر الهند تغطي صورة واضحة للملامح الهند وتصور بدقة جذور عقائدها . إن كثيراً من الأدوات الحضارية ، وإن كانت في بعض الأحيان غير واضحة تماماً ، تفسر الحضارة الهندية العريقة وديانته تفسيراً جلياً . وأن الصور الطينية التي تشرح هذه الظواهر ليست على نمط واحد في جميع المناطق ، بل تختلف في صورها وأشكالها . ومعظم الأدوات التي تعبر عن العقائد والديانات تضم الآلهة الأنثى أكثر بكثير من آلهة الذكور . ولذلك نجد الإلهات مزينة بالحلي الجميلة أو في بعض الأحيان تحمل الأطفال في بطنها ، أو ترضع الأطفال . وهناك تماثيل للآلهة تعبر عن تقديم الناس الذكور إليها أو الطلبات أو ما شابه ذلك من الحاجات . وكذلك نجد من بين الآلهة عندهم كثيراً من الحيوانات ، كما تصورها بعض التماثيل الحيوانية . وقد نال الثور مكاناً بارزاً بين تلك الآلهة . شأنه في ذلك شأن أرض الرافدين وسوريا ومصر . لأن مثل هذه الظاهرة وجدت في تلك المناطق أيضاً . وكان رأس هذا الثور متحركاً دائماً ، وكذلك وجدت دى وعرائس صغيرة وسرائر وأرائك وأرغفة وزهريات إلى جانب هذه الآلهة . وكانت أيضاً من بين تلك الآلهة والتماثيل أصنام ، وصخر طويل عريض ، وأجراس متحركة مستمرة .

وظاهرة غريبة نلمسها في تلك الآونة هي أن فروج الإنسان لكل من الذكر والأنثى كانت ترمز إلى خصوبة الأرض ، وبعث الحياة ، ولذلك نالت القديس والعبادة .

وإن الأدوات الحضارية مثل الأختام واللوحات الطينية والنقوش النحاسية والفانيس المصوغ (نوع من المعدن) تعتبر من أهم مظاهر الحضارة الهندية في هذه الآونة . وقد وجدت ختمة في موهنجودارو تحمل صورة إله ذي قرن ، وثلاثة وجوه . وهو جالس واضعاً رجلاه على الأخرى ، وكأنه في عبادة أو استغراق يرافقه جميع وحوش الغابات . وهناك لوحات طينية

عديدة تشير إلى وجود الإله سيثا (Siva) الإله العظيم لدى سكان هذه المنطقة ، وله ثلاثة وجوه ، ويوصف بأنه إله وحوش الغابات وأمير النساك والرهبان ، ولذلك عرض في صورة قائد عسكري كبير . وكذلك تشير لوحات عديدة إلى آلهة كثيرين . وهناك لوحة تصف تدفق النهرين من رحم الآلهة . وفي لوحة أخرى رسمت آلهة الأشجار بوضوح . وهذه الآلهة كلها رسمها الهنود بكل براعة ودون ضموض . وهي تختلف بطبيعتها وصفاتها وملاحظها عن آلهة أرض الرافدين كل الاختلاف وكذلك عن آلهة مصر . وكذلك نرى من بين آلهتهم بطلين عظيمين ، واحد منهما يصارع الأسود بكل شجاعة ، والآخر نصف جسمه يشبه إنسانا والنصف الآخر يشبه حيواناً متوحشاً بشعاً — يمسك بيديه ثوراً وأسدأ . وهو يشبه انكيدو البطل السومري في أرض الرافدين من بعض الوجوه كما نصفه أسطورة الطوفان السومرية . وهناك رموز دينية وسحرية كثيرة مثل الصليب والتقاء الكتفين نقشت على الطوابع والأدوات المعدنية شأنها في ذلك شأن رموز بابل وعيلم .

وقد عبدوا كذلك — إلى جانب الإلهات الكثيرات — الإله رسم بقرن وثلاثة وجوه . وهناك صورة تصوره جالساً على طاولة على الطريقة اليوجية بكل كبرياء وافتخار ، وكعبا رجليه متلاصقان ، وكأنه في تأمل أو في تفكير واستغراق . وفي بعض الأختام وجد هذا الإله بصحبة احيوانات كالغزال والظبي والكركدن والفيل والأسد والجاموس وحيوان يشبه الجاموس أو الثور وبين قرنيه ما يشبه المروحة . وهذا الإله هو الذي سمي لدى الآريين بسيثا . وهو إله عظيم جليل القدر ، ملك الغابات والوحوش ، له عدة وجوه . ومما لاشك فيه أنه من أقدم الآلهة الهندية ، وقد وجد في وادي نهر الهند منذ القدم . وهو يملك سلطات واسعة في الكون . فإنه يشبه براهما — إله الخلق — في الشكل ، وكذلك الإله فيشنو (vishnu) — الحارس المحافظ — . وقد اجتمعت فيه صفات كثير من الآلهة ، شأنه في ذلك شأن الإله رع — إله الشمس — في مصر . ومع أنه كان يتخلق

بصفات هدامة مثل الهدم والتخريب ، فقد تجلى أيضاً بصفات بناءة مثل منح الحياة وجلب الحصوبة في الكون سواء أكان بين بني آدم أو الحيوانات والطيور والنبات . ولذلك كان يرمز له بفروج الذكر والأنثى ، لأنهما علامة الحياة والحصوبة وفق عقيدتهم . وقد نال هذا الرمز قبولاً حسناً ، وتلقاه الناس على مدى العصور بالرضا وكذلك أدخله الآريون في عقائدهم . فبعد تعديل بسيط قد دخل هذا الإله إلى الديانة الآرية واحتل فيها مكاناً بارزاً . ومن ثم شيدت له المعابد ، ووضعت فيها تماثيله مع رمزه المذكور . وأم تزل هذه الظاهرة معروفة وموجودة في معابد الهندوس في شتى أنحاء أرض الهند . لقد وجدت أحجار كثيرة تشبه الكوز والختمة في شكلها في كل من موهنجودارو وهارابا ، تشير إلى أنها (أى آلهة الفروج) قد قدسها هؤلاء ، اعتقاداً منهم بأنها رمز الحياة والحصوبة في الكائنات .

وكانت العبادة تؤدي لكل من الإله سيفا ورمزه الفروج جنباً إلى جنب . وبهذا تكون الإلهة الثلاثة أى : الآلهة الأم ، الإله سيفا ، وآلهة الفروج من أهم آلهة سكان وادي نهر الهند . وهذه الآلهة وطقوسها قد تركت أثراً بعيدة المدى في الديانات الهندية كلها عبر القرون ، وتمثلت بصورة واضحة في كثير من التقاليد الهندوكية حتى هذه الآونة ، الأمر الذي يدل على رسوخ قدمها وخلودها وحياتها الطويلة في أرض الهند .

مراسيم الدفن

وقد وجدت آثار عديدة في مقابر هارابا تدل على مراسيم الدفن عند الهنود القدماء . وكانت هذه المراسيم غريبة وبدائية تماماً . إذ كانوا يحفرون حفرة طويلة عريضة ، ويدفنون فيها الجثة مع أدواتها اللازمة في الحياة مثل الأواني والأدوات الشخصية وما يتعلق بالزينة والحمام . ولم يفسر لنا أحد حتى الآن سبب هذه الظاهرة . ومن الجائز جداً أنهم قد آمنوا بحياة أخرى بعد الموت على طريقة السومريين . وظنوا أن هذه الأدوات اللازمة سوف تساعد

الموتى بعد مواراتها التراب وحينما تدخل فى حياة جديدة عند آلهة الأرض السفلى وذلك لأن الهنود فى هذه الآونة قد تجاوزوا مع كثير من افكار السومريين الدينية كما سنشير إلى بعضها قريبا .

وكانت الجثة توضع فى صندوق خشبي ملفوفة بالقصب . وفى المناطق الساحلية ، وبالقرب من « تارو » (Taro) وجدت غرف حجرية تبلغ مساحتها عشرة اقدم طولاً ، وثلاثة اقدم عرضاً ، وقدمين عمقاً . وتشير الدلائل إلى أنها استخدمت مقابر فى هارابا فى بعض الأزمنة القديمة . ومن الناحية الأخرى فى مناطق عديدة تمت فيها عملية الاحفار وجدت جرة كبيرة تشير إلى وضع الجثث فيها فرادى أو جماعية . وكذلك عثر على جماجم بشكل انفرادى أو جماعى فى بعض البيوت أو فى الممرات الضيقة والأزقة . ولكن دفن الأموات فى الأزقة يكاد يكون نادراً ، وكذلك أمره مشكوك فيه فى بعض الأحيان ، لأنه ليس هناك دليل واضح يشير إلى وجود أية تقاليد بدائية لدفن الأموات فى الممرات الضيقة . ولعل سببه — كما يبدو لنا — أن بعض الموتى قد دفن فيها من نتيجة الحوادث أو الأمراض البولية الخطيرة .

إن الهند تمتاز بشخصيتها الأصيلة فى هذه النواحي كلها : ولها أصالتها وذاتيتها ، ولا نجد أنها تجاوزت فى تقاليدها مع أرض الرافدين ومصر . وكذلك جميع النواحي الحضارية تتميز بذاتيتها وأصالتها .

ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الحضارة الأولى قد تركت آثاراً بعيدة المدى فى الحضارات الهندية كلها تلك التى استمرت عبر القرون وحتى هذه اللحظة . وقد ترسخت جذورها فى طبيعة الهند إلى أقصى الحدود . ولم تستطع أية حضارة جاءت بعدها من القضاء عليها . وهذه الظواهر واضحة المعالم فى جميع المرافق الحضارية مثل التقاليد والعبادات والعمارات وما إلى ذلك . إن مراسيم الدفن وتقاليده تشير بوضوح إلى أن احراق الجثث التى

اتخذتها الهند أساسا فيما بعد لم يكن لها وجود في هذه الآونة ، بل سارت على تقاليد حضارات أرض الرافدين ومصر .

دور حضارة وادى نهر الهند في تكييف التقاليد الهندية وديانتها عبر القرون
إن حضارة وادى نهر الهند هى التى أصبحت أساسا قويا متينا وعاملا هاما لتكييف الحياة الهندية على مدى القرون من ناحية التقاليد والحضارة . كانت هذه الحضارة الأصلية تنمو وتزدهر حتى تجلت بأبداع مظاهرها فى الحضارة الهندية الآرية ، وما تلاها من الحضارات فيما بعد ، وانتقلت روحها ومميزاتها إلى طبيعة الهنود على اختلاف العصور والأزمنة والاقطار والمناطق واللغات والألوان .

ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الحضارة تختلف وتتغير عن الحضارتين العظيمتين المعاصرتين لها وهى السومرية والمصرية فى كل الأنواع والأشكال إلا أننا نلاحظ ملامح متشابهة بين هذه الحضارات الثلاث ، وذلك من ناحية الأهداف الأصلية والاختراعات والاكتشافات والإبداعات .

وعلى الرغم من أن الآريين الذين استولوا على مقاليد الحكم فى الهند منذ عام ١٥٠٠ ق.م. قد جلبوا معهم آلهتهم وديانتهم ، وحاربوا السكان الأصليين ، وحاولوا التخلص من جميع آثارهم الدينية والعقائدية بشتى الوسائل إلا أنهم تشربوا من حضارة وادى نهر الهند واقتبسوا معظم مزاياها الدينية ، كما أدخلوا كثيرا من آلهتهم فى صميم عقائدهم الدينية . وكان ذلك أمرا طبيعيا ، لأن كل حضارة أجنبية جديدة إذا فرضت سيطرتها على حضارة أصيلة أقوى منها - ولو كانت منارة ومترنحة وصائرة إلى الزوال - فلها تضطر إلى التجاوب معها وأدخال عناصرها الفعالة فى صميم حضارتها ، وبهذا تظهر حضارة ممزوجة ، وإن كانت معظم عناصرها جديدة ودخيلة أجنبية .

ومن هنا تركت ديانة وادى نهر الهند وحضارته آثارا بعيدة المدى فى

الديانة الآرية وحضارتها . فلقد اقتبس الآريون معظم عقائد أهل نهر الهند وصبغوها بالصبغة الآرية بحيث لا تلمح آثارها ولا تقتلع جذورها مع أنها امتزجت امتزاجا قويا لا يمكن فكها الآن . ومن هنا يعتقد الباحثون أن حضارة وادي نهر الهند وديانته وتقاليده هي الأصل والأساس للهند على مر القرون وحتى هذه اللحظة . وعلى هذه الدعامة قامت جميع الحضارات الهندية ، كما أن ملاحظتها واضحة المعالم في شعوب الهند بأكملها وفي الأقاليم المختلفة والولايات .

ومن الجدير بالذكر أن كتاب الفيدا — وهو أول سجل آرى منذ نزوحهم إلى الهند — لا يذكر هذه الحضارة العريقة . ولا نعرف سببه على وجه التأكيد . ولكن من المحتمل أن الآريين — بسبب حداثة اقامتهم في الهند أثناء تأليف هذا الكتاب — اكتفوا بتسجيل أحاسيسهم وعواطفهم وانطباعاتهم وتقاليدهم وانتصاراتهم وفرحتهم وبهجتهم .

إن الآلهة سيثا الذى دخل إلى الحضارة الآرية من وادي نهر الهند قد وجد له لوحات وتمائيل بكثرة في موداهنجودارو وهاربا . ومن هنا يعتقد أنه إله هندي قديم أصيل . وكانت سيطرته ونفوذه قوين في الشعب الهندي . ولذلك لم يستطع الآريون التخلي عنه وإبعاده من الهند واضطروا إلى قبوله وإدخاله في عقيدتهم بعد تعديلات طفيفة في وظيفته وسيطرته . فقد كان سيثا الإله الأعظم عند سكان وادي نهر الهند . ولكنه التقى لدى الآريين مع إله آرى وهو « براجاباباتي » (prajapati) ذلك الذى كان من الدرجة الثانية وأصبح في صحبته دائما وأبدا . وبهذا قللوا من أهمية سيثا ، وسلبوا منه سلطاته الواسعة التى كان يتمتع بها في حضارة وادي نهر الهند .

وكان من أهم مظاهر الحياة الدينية لدى سكان وادي نهر الهند أنهم اتخذوا آلهة لهم ، وكذلك عبدوا الهات كثيرات ولكن معظم هذه المعالم قد اندثرت تقريبا في الفيدا — أول كتاب آرى — وكذلك تقديس الفروج لم يذكره الفيدا بتاتا . ولكن هذه الآلهة والتقاليد قد أخذت طريقها إلى

قلوب الهندوس بغد مرور الزمن . ولعل شدة الصراع والعراك بين الآريين — في بداية نزوحهم وزحفهم إلى الهند — والسكان الأصليين جعلت الآريين يمتنعون عن قبول أى أثر للهند القديمة . ولكنهم اضطروا فيما بعد إلى التجاوب كما قلنا ، ولذلك نجدهم قد اتخذوا الأشجار والأشياء الصغيرة التافهة والحيوانات آلهة لهم . كما أن تقديس فروج الإنسان — كرمز لخصوبة الأراضي الزراعية ومظهر الحياة الإنسانية — أصبح من أهم معالم اذند حتى هذه اللحظة .

الهند تتجاوب مع العراق في بعض النواحي

لند أوردنا تفاصيل تجارب الهند والعراق في هذه الآونة من التاريخ . وبما أن العراق كانت أرضا أصاية لرسالات السماء فقد كان من متحيا أن لا تترك بعض آثارها الوثنية في حضارة الهند في وادى نهر الهند . ومن هنا نجد بعض الملامح متشابهة بينهما .

إن معبد وادى نهر الهند المذكور والدلائل الأخرى تشير بوضوح إلى أن النظام في وادى نهر الهند لم يكن — على حد زعم بعض الباحثين — ديمتراطيا يتسم بالأمن والهدوء ، كما لم يكن حولها أسوار أو بروج للمعابد ، أو معسكرات للجيش ، أو لم يكن هناك تخطيط اقتصادى أودينى . ولكن هذا الكلام لا يبنى على أدلة . لأن سكان وادى نهر الهند قد اتخذوا إجراءات دفاعية قوية ضد الغزو الأجنبى لبلادهم . ولذلك شيدوا أسورا حول المدن لمنع مثل هذه الغارات وويلاتها . ولكنهم مع ذلك لم يصابوا فى قوة الدفاع والشئون العسكرية إلى مستوى السومريين ، ثم الأكاديين ، بل كانت إجراءاتهم فى هذا المجال تشبه إجراءات المصريين ولا تتجاوزها .

كان سكان نهر الهند يعتقدون أن الدولة ملك الله سبحانه فالملك يحكمها بالنيابة عن الله كما كان الشأن فى أرض الرافدين . وقد عثر « السير مورتيمر ويلر (Sir Mortimer Wheeler) على شواهد وأدلة على وجود



لوحة (٨)
الاله سيثا من حضارة موهنجو دارو

نظام القلاع والحصون في أنحاء بلادهم بصورة مشابهة للسومريين وإن لم تكن على مستواهم . وكذلك اتخذوا إجراءات حاسمة للأمن والدفاع . وكانت الدولة تسير على نظام دكتاتوري ، لأن الملوك حكموا البلاد الموحدة في تلك المنطقة (أى في المملكة الشمالية الجنوبية الممتدة من موهنجودارو إلى هارابا) بكل حزم وقوة باعتبار أنهم خلفاء الله في الأرض . فالله هو الذى منحهم هذه السلطات الواسعة والسيطرة التامة على الشعب لينفذوا أوامر الله على الشعب ويحكموا بالنيابة عنه وعلى ذلك يدل وجود توحيد البلاد والتنظيم الدقيق المربوط في المدن ، والقوانين المدنية والشئون الدينية ومراسيمها وطقوسهم ، ونظام المعابد والحصون ، وتنفيذ كل القوانين على أنها صادرة من الله سبحانه ، وبهذا لا نجد خطا فاصلا بين أرض الرافدين ووادي نهر الهند .

ومن الجدير بالملاحظة أنه إذا كانت هذه الملاحظات والنتائج المرتبة عليها صحيحة - ونحن لا نعارضه في هذا الصدد - فالأمر يدل بوضوح على أن الهند قد التقت التقاء خصباً مع أرض الرافدين في عقيدتها ، بأن الملك لله سبحانه . وأن الملوك خلفاء الله في الأرض ونوابه ، ومهمتهم ما هي إلا تنفيذ أوامر الله سبحانه بين عباده . وكذلك تجاوزت الهند إلى أقصى الحدود مع أرض الرافدين في شئون الدولة وتنظيمها وإدارتها .

ومن المعروف أن عقيدة خليفة الله في الأرض نبعت من تراب أرض الرافدين بوصفها مهبط آدم ومسرح طوفان نوح ، ومهد رسالات سماوية . ومن هنا تكون الهند تابعة للعراق ، ومتجاوبة معها إلى أقصى الحدود في هذه العقيدة ، وإن تجلت في كل من الهند والعراق بصورة وثنية لأسباب عديدة كما ذكرناها في كتابنا عن « الاعلام والأمم في القرآن الكريم على ضوء البحوث الأثرية الحديثة لمنطقة انشراق الأوسط » .

وكذلك نجد تشابها بين آلهة الهند وأرض الرافدين من بعض الوجوه . لأن سكان وادي نهر الهند قد عبدوا آلهة كانت تعتبر أم الآلهة جميعا ،

وكذلك احتلت الإلهة الأم في أرض الرافدين مكانة مشابهة لها في الهند . وقد شيد الخنود لهذه الآلهة معابد كثيرة في أنحاء بلادهم ، واعتبروها على قمة الآلهة جميعا . قد وجد تمثال فخارى أو صنم لهذه الإلهة في كل بيت من البيوت . وقد اعتقد الناس أنها هي التي تمنح الحياة والخصوبة ، ثم أضنفوا عليها صفات الإنسان ومشاعره وأحاسيسه . وهذه الآلهة هي التي سميت في الهندوكية فيما بعد بالسكتي (Sakti) .

امتداد الحضارة في وادي نهر الهند وحياتها

هل كانت هذه الحضارة الهندية العظيمة شاملة جميع المناطق الهندية ؟ والإجابة على ذلك : أن لا . لأن هذه الحضارة العريقة كانت أراضيها ومساحتها ومناطقها محدودة لم تتجاوز - وفق الحدود الآن - منطقة باكستان الغربية كلها وولاية بنجاب شاملة . وقد عثر على بعض آثار في الآونة الأخيرة تشير إلى أنها امتدت إلى وادي نهر الستلج في جيسالمير (Jaisalmer) من أعمال راجستان ، وهي من أهم الولايات الهندية الآن . وكذلك اتسع نطاقها إلى أبعد من ذلك جنوبا حتى « لوتال » (Lothal) الواقعة على مقربة من أحمد آباد بالقرب من بومباي . وبهذا تكون هذه الحضارة قد انتشرت شرقا وجنوبا وشملت ثلث شبه القارة الهندية فقط .

وإذا كانت هذه سعة حضارة وادي نهر الهند ، فكيف كانت المناطق الأخرى ، وهي تشكل ثلثي مساحة الهند ؟ والإجابة على ذلك أن معظم تلك الأراضي كانت خالية من السكان ، وبعضها يقطنها البدويون والهمجيون الذين عاشوا في الغابات والأدغال والجبال ، ومارسوا الحياة البدائية الأولى تحددت ألوانهم وفق جغرافية المناطق . وفي المناطق الواقعة بعيدة عن خط الاستواء كانت ألوانهم بيضاء سمراء ، وفي الجنوب المتوغل سوداء حالكة ومع هذا فإن ملامحهم كانت متشابهة إلى درجة كبيرة ، ومختلفة عن الأفريقيين رغم سمر وسود بشرتهم .

لقد وجدنا سكان نهر الهند من قبل قد استوردوا احجارا ثمينة من جبال نياغرى من مدراس بجنوب الهند . وهذا يدل على وصول سكان الهند إلى تلك المناطق النائية في الجنوب . ولكن تاريخ هؤلاء السكان مجهول للغاية ، الأمر الذى يدل على أنهم مارسوا حياة بدوية أولية في القرى والجبال والأدغال . وهناك آثار لهؤلاء السكان الاصليين حتى هذه الآونة . لأن حياتهم لم تزل بدائية ومتنقلة ، ولم يزل يعيشون في الغابات والأدغال والجبال ، يتكلمون على موارد الطبيعة من ثمار الغابات والحيوانات والطيور المصطادة ، ويأكلونها بعد احراقها بالنار ، دون طبخها ولو على أبسط طريقة قروية . وليس لهم دين معين ولا تقاليد معروفة ، بل هم على كل حال وثنيون ، يعبدون مظاهر الطبيعة كلها ، ويسكنون في الخيام المتنقلة ، ويمارسون أحيانا بعض أعمال بدائية مثل صناعة الحصير والسلال أو بيع الأبر والقلائد والعقاقير والأعشاب وما إلى ذلك . وهؤلاء كثيرون في مناطق الجبال والغابات بجنوب الهند . ولم نزل نشاهدهم وهم يمرون بمدننا وقرانا لبيع بعض سلعهم وادواتهم المذكورة أو طيورهم المصطادة .

ويسمى هؤلاء الآن بأسماء عديدة في مناطق عديدة وفق لغاتهم ولهجاتهم مثل : الموندرا (Mundras) وموشار (Mushar) وشامر (Chamars) وغوند (Chonds) وسنتال (Santhal) وكاسى (Khassi) وباسيس (Pases) وكترى (Kathari) وشاندال (Chandals) وناجا (Naga) .

وهناك سؤال هام : لماذا لم يتمكن علماء الأحفار من تتبع تاريخ الهند قبل قيام حضارة وادى نهر الهند ؟ والاجابة على ذلك كثيرة ، منها أنه لم تنوافر الأدلة الاثرية لهذا الجانب من تاريخ الهند . وكذلك لم يتمكن علماء الأحفار حتى الآن من فك كثير من الغاز لغة وادى نهر الهند بسبب صعوبة تناولها ، وتعقدها وغموضها ، في حين استطاعوا بعد ارهاق وتعب في فك الغاز اللغات الفرعونية والمسمارية العراقية وتبعوا تاريخ هذه الاقطار إلى اقصى الحدود .

ومن هنا استصعب فهم المراحل البدائية الأولى لهذه الحضارة ، مع أنها قد مرت بمراحل بدائية عديدة ، شأنها في ذلك شأن حضارات الشرق الأوسط . وفيما يتعلق بالشرق الأوسط فقد أصبح من الميسور تتبع هذه الأطوار ، ولذلك استطاع علماء الأحفار تنسيقها وترتيبها بكل دقة .

متاعب هذه الحضارة وأسباب اضطرابها

كانت الفيضانات التي تتناوب عدة مرات في كل سنة ، وفي الصيف بالذات حينما تذوب الثلوج بالهملايا قد أثرت تأثيراً قوياً في شعوب هذه المناطق ، وزادت من مخاوفهم فيما يتعلق بالمستقبل . وكلما طغى الفيضان ، دمر المباني وشل الحياة المدنية في البلاد ، فكانوا يضطرون من جراء ذلك إلى إعادة بناء ما دمرته الفيضانات . وكذلك يعيدون بناء العمارات . ولقد كانت المناطق الشاسعة على ضفاف نهر الهند وروافده سهلية جرداء ، لم تحوطها الجبال ، ولم تتوسطها الغابات الكثيفة ، ولذلك تتعرض للفيضانات بشدة ، وتنهار معالمها الحضارية بسرعة من عنف الفيضانات وطغيانها .

وبالإضافة إلى ذلك فكلمنا اتسم الملوك بالقوة والمقدرة والسيطرة الكاملة كائنات تسير الأمور في مجراها الطبيعي ، وإذا طرأ تغيير أو تساهل أو استرخى عنان الحكم سادت الفوضى والاضطراب ، واقتربت البلاد من الهاوية واندثرت معالمها الحضارية .

وناهيك بالهجمات والغارات التي كان يشنها سكان جبال بلوشستان بين حين وآخر فيخربون البلاد ويدمرون المباني والمعالم الحضارية فيها .

لقد دبت عواصف الاضطراب في حضارة وادي نهر الهند منذ سنة ٢٥٠٠ ق.م. بعد أن ازدهرت ازدهاراً كبيراً ، وأصبحت مماثلة لحضارتى أرض الرافدين وعيلم من ناحية ، ومصر الفرعونية من ناحية أخرى ، وإن لم نعثر على دليل واضح حتى الآن يثبت التقاء الهند مع مصر في هذه الآونة . ومع ذلك فقد استمرت هذه الحضارة مترنحة تميل إلى

السقوط والاضمحلال دون تجديد أو تنشيط أو التماط انقاس . لقد استمرت كذلك حتى سنة ١٥٠٠ ق.م.

ولعل سببه فيما نرى أن حضارة وادي نهر الهند التي أقامها السكان الجبليون القاطنون من جبال بلوشستان حتى عيلم بالقرب من ارض الرافدين قد دبّت فيها عوامل الانهيار والضعف والسقوط . وفي هذه الآونة ازداد سلطان السكان الاصليين للهند وهم الدراوديون الذين اتسموا باللون الاسمر . وقد حاول هؤلاء مواصلة انقاذ الحضارة المتقدمة في هذه البلاد دون بعث روح جديدة فيها أو دفعها إلى الأمام بخلاف سكان ارض الرافدين الذين أوصلوا حضارتها إلى القمة في ظل الاكاديين والاوريين ، ثم الاشوريين منذ سنة ٢٥٠٠ ق.م حتى سنة ١٥٠٠ ق.م وعلى هذا سار الأمر حتى سنة ١٠٠٠ ق.م .

لقد قلنا آنفا إن حضارة وادي السند بدأت تفقد سماتها وحيويتها منذ سنة ٢٥٠٠ ق.م وهذا يدل على ظهور صراع بين أصحاب هذه الحضارة وعناصر أخرى ، تلك التي استطاعت القضاء عليها في حدود سنة ٢٠٠٠ ق.م تقريبا . وهذه هي الأمة الدراودية .

من هم الدراوديون ؟

وهذا هو الشعب الهندي الاصل الذي كان يقطن المناطق الهندية الممتدة من الشمال إلى الجنوب ، ويتسم باللون الاسمر والأسود على حسب المناطق التي سكنها . لأن شمال الهند كان بعيدا عن خط الاستواء ، ولذلك اتسم سكانه باللون الاسمر المائل إلى الأبيض والاشقر ، على حين كان سكان جنوب الهند بسبب قربهم من خط الاستواء قد أسود لونهم ، وإن لم يكن غارقا في السواد . ولم نعثر بعد على آثار حضارية لهذا الشعب الاصل منذ ظهور الانسان على أرضها حتى عام ٢٠٠٠ ق.م ومنذ عام ٢٠٠٠ ق.م تقريبا ، فإننا عثرنا على مخلفاتهم الحضارية في التماثيل والأدوات الحضارية الأخرى المحفورة . لأن

الشعب الذى تغلب على مقاليد الحكم فى هذه الآونة كان أسود اللون ، مما يدل على انقراض الجنس الأبيض الذى لم نتعرف على أصله على وجه التأكيد ، وإن كان من المرجح عند كثير من المؤرخين - كما قلنا - إنه كان ينتمى إلى المناطق الجبلية بلوشستان وأفغانستان . ولذلك كان هؤلاء مشاهير للسومريين إلى حد بعيد فى ملامحهم العامة ، لأنهم جميعا ينتمون إلى نفس المناطق الجبلية .

وهذه الأمة الهندية الأصلية السوداء اللون قد سديت بالدراودية . وهى التى استولت على مقاليد بلاد السند وبنجاب ، وأشأت فيهما حضارتها العريقة ، وظلت فيها على ذلك حتى نزوح الآريين واستيطانهم تلك الأرض واستيلائهم عليها رويداً رويداً منذ فترة ١٨٠٠ ق.م حتى سنة ١٥٠٠ ق.م .

ولم تظهر الأمة الدراودية على مسرح السياسة فى وادى نهر الهند فى عام ٢٠٠٠ ق.م فجأة وبدون سوابق . بل بدأت محاولاتها للاستيلاء على الحكم فيها منذ ظهور حضارة وادى نهر الهند ، وذلك حينما عاشت فى كنفها كرهايا لها . شأنها فى ذلك شأن كل أمة مغلوبة على أمرها ، حينما تستولى عليها أمة قوية أخرى .

ويعتقد بعض الباحثين (١) الافرنج أن الدراوديين قد جاءوا من الشمال الغربى بين سنة ٤٠٠٠ وسنة ٣٠٠٠ ق.م . وعلى حد قولهم إن هذه المجموعة المجهولة الاسم جاءت من خليط من الشعوب التى تعيش فى مناطق تقع

١ - اعنى بالضبط « مانوراما موداك » مؤلف كتاب « الهند : شعبها وأرضها » ، ترجمة العميد محمد عبد الفناح إبراهيم الى العربية (ص ٤٢ - ٥٠) . ومن الجدير بالذكر ان هذا المؤلف ارتكب اخطاء فاحشة فى تحديد اصل الشعوب الهندية ونسلها . وجل معلوماته فى هذا الصدد عامية ، مما تناقلته السنة الناس ، فهو بدوره نقلها بدون تحقيق . وفى الحقيقة فان كتابه هذا يعد رحلة ادبية اسطورية متعة ، ولكنه لا علاقة له بالعلم والتحقيق .

شمال وجنوب البحر المتوسط . ومن ثم يمكن أن نقول عنهم : سكان البحر المتوسط ، ويكونون فرعاً من الجنس الأبيض الذي كان يعيش في شمال هذا البحر ، والذي امتزج بزئوج أفريقية .

وهذا كلام بعيد عن الحقائق التاريخية ، لأن سكان البحر المتوسط لم يزحفوا إطلاقاً على الهند طوال الحضارة الهندية في موهنجودارو وهارابا . وكذلك الأفريقيون السود لم يكن لهم شأن يذكر في التاريخ في هذه الفترة التي تكونت فيها أولى الحضارات الإنسانية . بل الدراوديون كانوا من سكان الهند الأصليين ، كما تشير إلى ذلك ملامحهم وسود بشرتهم ، وطبيعتهم وثقافتهم كلها .

ولكن هذه الإمة الأصيلة التي واصلت جهود أصحاب حضارة وادي نهر الهند قروناً طويلة دبت إليها عوامل الضعف والاضمحلال ، ولذلك لم تستطع في الآونة الأخيرة من حياتها أن تصمد في وجه هجمات القبائل الجبلية البربرية التي تدفقت مرة أخرى من جبال بلوشستان وأفغانستان مرة بشغور هندوكش وتوغلت في البلاد ، وشتت هجماتها الوحشية على معالم الحضارة في البلاد وإحالتها إلى خراب ودمار . وهؤلاء هم الذين فتحوا الطريق فيما بعد لزحف الآريين على الهند من نفس الطريق واستيلائهم على الهند .

وقد اتخذ الدراوديون بدورهم الإله سيفاً إلهاً لهم ، وكذلك عبدوا معظم آلهة نهر الهند . وبالإضافة إلى تلك الآلهة نجد لهم آلهة خاصة لم نجد لها أثراً في وادي نهر الهند مثلاً الإلهة كالي . وهي سوداء اللون ، قبيحة المنظر — كما تصفها الأساطير — وشعرها مخيف طويل ، مشعث ، وذات أربعة أيد في واحد منها تحمل السيف ، وفي الأخرى تحمل رأس العقاريت المفصولة . ويدها الثالثة والرابعة تشجع عبادها الذين يعبدونها . وهي تلبس حلقتين في أذنيها ، وتعلق في عنقها قلادة من الجمالجم ، ولسانها معلق وعيونها

حراء ، ووجهها وقلبها مثل كرة من النار . وحينما تقوم تضع رجلها على قدم الإله سيفا ورجلها الأخرى على عنقه .

وهذه الظاهرة تشير إلى سيطرة الإلهة كالى على الإله سيفا ، بسبب سيطرة الدراوديين على تلك الحضارة مع أن سيفا لم يندثر على الإطلاق ، بل عرض في المكانة الثانية ، في حين كان يحتل المكانة الأولى من قبل .

لقد مارس الدراوديون نفس الحياة الحضارية في جميع مرافق الحياة ، كما أن مراسيم الدفن لم تختلف عندهم .

نهاية الحضارة الدراويدية

إن الحراب والدمار اللذين أحلهما الجلبليون الهمجيون بالحضارة الدراودية في نهر الهند يظهر بكل وضوح في بعض مخلفاتها التي تركتها في هذه الآونة . فلقد وجدت في بعض المقابر مخلفات من حضارتها تتضمن أنواعاً من الأدوات الفخارية غير مألوفة في هذه المنطقة بتاتاً ، الأمر الذي يدل على أنهم دخلوا البلاد بالقوة وبالبطش الشديد في هذه الآونة من التاريخ . وكذلك طريقة دفن الجثث تختلف عما الفتته الهند . لأن هؤلاء الزاحفين وضعوا الجثث في القبور بصورة ممددة متسعة أو مثنية .

وبالإضافة إلى ذلك فإننا نعرف « شانهو دارو » في ولاية السند على علامات غامضة في بعض النقوش الختمية لحضارة بربرية حلت محل الحضارة المتقدمة فيها . وبالمقارنة من جميع هذه الأدوات المختلفة المتغيرة في الأشكال والألوان والأنماط نخرج بنتائج هامة وهي أن صناع الأواني والأدوات الفخارية قد واجهوا ضغوطاً شديدة من قبل الحكام الجدد ، واضطروا إلى صناعة أدوات جديدة على أنماط يريدها .

وقد اتسمت الأدوات الفخارية لهؤلاء الدخلاء المستولين على الحضارة الهندية بخصائص جديدة . لقد عثر لهؤلاء على أختام بصورة الزر وفيها ثقب بشكله مثل الفاس . وهذا النمط يشير إلى أن هؤلاء القوم زحفوا على الهند من

شمال غرب الهند . وهناك علامات تشير إلى أنهم جاءوا من إيران ، لأن الإيرانيين هم الذين أدخلوا نمط القاس على أختامهم إلى الهند . وكذلك جاءت أفواج منها من مكران وبلوشستان .

ومن الجدير بالذكر أن بلوشستان منذ أكثر من ألف سنة تدخل في خريطة الهند . وهي الآن ولاية في باكستان الغربية . وأما مكران وإيران فلم يختلفا الآريون إلا . منذ عام ٨٠٠ ق.م . ولذلك كان سكانهما من المواطنين الأصاين لهذه المناطق . وهؤلاء لم يكونوا يختلفون في أشكالهم وألوانهم عن سكان عيلم وأرض الرافدين . لأن صورهم وتمائيلهم التي اكتشفتها الحفريات تشير إلى تشابه كامل بين هؤلاء والساميين في أرض الرافدين .

الفصل الثالث

الحضارة الآرية وديانتها

تحقيق شخصية الآريين

قبل عام ٣٠٠٠ ق.م كانت تقطن المنطقة الممتدة على طول الجبهة الشمالية من البحر الأسود المتسعة إلى جنوب روسيا — الواقعة على شمال آسيا وشرق جنوب بحر الكاسبيان (أوقزوين) — أمة سميت بالهندية الأوروبية (Indo - European) وكانت هذه الأمة في هذه الآونة من التاريخ تمارس الحياة البدوية القبائلية المرتحلة وكانت تنزح وترتحل بحثا عن الكلاً والخضراء لمواشيها من الأغنام والبقر . وقد تدفقت هذه القبائل كأمواج هائلة على أوروبا وآسيا الصغرى والشرق الأوسط ثم استولت — بمرور الزمن وبعد تحول حياتها إلى مرحلة مدنية متطورة — على مقاليد الأمور في المناطق التي نزحت إليها . فقد نزحت وتدفقت هذه الأمة البدوية البيضاء اللون إلى ناحيتين ، اتسمت فيهما بصفات مميزة بارزة . ولعل أول هجرة سجل التاريخ لها كانت في عام ٢٠٠٠ ق.م حينما اتجهت موجة منها إلى آسيا الصغرى واستقر بها المقام هناك وهؤلاء هم الحثيون Hittites بينما شقت موجة أخرى طريقها إلى الشرق الأوسط واستوطنت العراق . ثم سجل لها التاريخ هجرات عديدة إلى منطقة الشرق الأوسط مثل : الميتانيين mitannians التي استقرت في عوالى أرض الرافدين والميدية medas التي أقامت في أرمينية ، والآرية التي استوطنت إيران وشمال الهند .

وأما الأمواج الأخرى التي اكتسحت أوروبا كلها فهي : السلتية Celts في فرنسا وآسيا الصغرى ، والأغريقية في إيطاليا واليونان .

لقد شاع استعمال الكلمة الآرية لجميع هذه الموجات خطأ في رأى بعض

المؤرخين . لأنها لا تطلق على وجه الدقة إلا على القبائل التي استوطنت إيران والهند . ومنها اشتقت كلمة إيران لعيلم سابقا .

ومما يدل على كون هذه الأمم الأوربية ، والإيرانية والهندية جميعا من أصل واحد ، وجود ملامح واسماء ووظائف متشابهة في بعض آلهتها الأوائل كما أن هناك تشابها بين بعض الكلمات والتعبيرات بالاضافة إلى هندسة لغاتها وهيكلها العام في التركيب والصياغة .

وإليك بعض الكلمات المتشابهة : (Brother) الأخ ، (Mother) : الأم ، (Father) : الأب .

الانجليزية	الألمانية	اللاتينية	اليونانية	الفارسية	السنسكريتية
Brother	Bruder	Bràter	Phàràter	Bràdar	Bhràtar
Mother	Mutter	Màter	Mètèr	Màtar	Màtar
Father	Vater	Pater	Patèr	Pidar	Pitar

وقد وصلت الموجة الآرية الأولى إلى الهند خلال عام ١٨٠٠ ق . م تقريبا .

ومن الجدير بالذكر أنهم جلبوا معهم الخيول لأول مرة إلى هذه المناطق إذ أنها لم تعرف فيها من قبل .

كان الآريون الذين سكنوا في بلادهم في سهول روسيا الجنوبية وشرق بحر قزوين قد تعودوا على ترويض الخيول وتربيتها . وقد استخدموها في شئون المواصلات العامة وفي جر بعض العجلات وفي الزراعة والركوب والحرب . إن هذه المنطقة قد ساعدت على تربية الخيول والعيش عليها بشتى الطرق والوسائل : وكذلك استخدموا في نفس الوقت الأبقار والثيران في المواصلات والشئون الزراعية على طريقة سكان منطقة الشرق الأوسط والهند .

وكذلك جلبوا معهم الحديد ولأول مرة إلى هذه المناطق . ومن الجدير بالذكر أن جميع بلدان آسيا والشرق الأوسط كانت تعيش في العصر البرونزي طوال هذه الآونة . ولم يدخل الحديد إلى هذه المنطقة قط ، ولم يعرف إلا في بلاد الآريين

فحسب . فقد جلب الحثيون الحديد لأول مرة الى الشرق الأوسط . ومع أنهم اهتموا بالزراعة اهتماما شديدا ، وفي نفس الوقت كانوا على براعة في استخدام الحديد وصناعة آلات عديدة منه . وأن هذا المعدن الجديد الصلب القوي هو الذي غير مجرى التاريخ لصالحهم في كل مكان . لأن آسيا وأفريقيا لم تستخدما الحديد في الشئون الحربية قبل مجيء الآريين ، بل كانتا تستخدمان انبرونز والنحاس في صناعة الأدوات الحربية .

معنى الآرى

سميت الأمة الهندية الأوربية بعد نزوحها الى الهند بالأمة الآرية : فكلمة « الآرى » (Aryan) تطلق على الشرفاء . وهذا يدل على أنهم اعتبروا أنفسهم منذ قدومهم الى هذه المناطق الآسوية بالشرفاء ، والسكان الأصليون فيها بالأراذل . وعلى هذا الأصل اشتق اسم ايران كما قلنا . وبهذا يكون الآريون قد اعتبروا أنفسهم سادة البلاد والآخرين خدما وعبيدا .

حياة الآريين في بلادهم ولغاتهم

كانت حياة الآريين تسير في اطار اجتماعى خاص في بلادهم . فكانوا يركعون أمام جميع مظاهر الطبيعة ويقدمسونها ، وأتخذوها آلهة لهم . وبهذا تكون حياتهم مختلفة تمام الاختلاف عن حياة سكان وادى نهرا الهند الذين مارسوا حياة دينية شبيهة بسكان أرض الرافدين ، واعتقدوا أن المملوك خلفاء الله في الأرض ، وعبدوا كثيرا من آلهة الذكور والأنثى ومظاهر الخصوبة والحياة .

وكانت لغتهم الأصلية التى سميت بالسانسكريتية في الهند شبيهة بلغاتهم ولهجاتهم في موطنهم الأصلي ، كما وجدنا بعض الإشارات والملاحع المتشابهة في بعض اللغات الهندية الأوربية من قبل . وقد تشعبت من هذه اللغة الأصلية معظم لغات أوربا ، تلك التى سميت بمجموعة « سنتوم » (Centum) التى تنسب اليها اللاتينية والأغريقية ، والكيلتية (Celtic) والثيرتونية (Teutonia) والألمانية والسلاقونية (Slavenin)

أسباب اندثار حضارة وادى نهر الهند الى الأبد وانتصار الآريين

لقد قلنا : إن وادى نهر الهند قد تعرض لهجمات همجية من قبل الجماعات البربرية الساكنة في جبال بلوشستان . وقد وصلت الحضارة في هذه الآونة إلى أقصى درجة من الانهيار ، وكادت أن تندثر تماما . فقد شوهت المعالم وانهارت العمارات وهدمت المباني ودمرت الشوارع . ثم تعرضت الهند لمثل هذه الهجمات الوحشية من قبل القبائل الآرية التي نسجت على نفس منوال القبائل الهمجية . وهى الأخرى قصدت هدم المعالم الحضارية كلها . وبهذا اندثرت معالم المدن وزالت الحضارة المدنية في وادى نهر الهند ، وتحولت موهنجودارو وهارابا إلى أطلال . ولم تبن هذه المدن مرة أخرى .

وكان الآريون الزاحفون — على الرغم من كثرة أعدادهم — قد اتسموا بالبداوة والقسوة وشدة البأس والمران في الشئون الحربية . وأما الدراوديون فقد وصلوا إلى أقصى مدارج الحضارة الراقية ، ولذلك لم يكن في مقدورهم مواجهة الآريين بنفس الروح البدوية ، ولذلك انهزموا أمام زحفهم وغاراتهم .

ومن ناحية أخرى — كما قلنا — فإن حضارة وادى نهر الهند قد ترنحت ومالت إلى السقوط والزوال منذ سنة ٢٠٠٠ ق . م ، ولم يقدر الدراوديون على السيطرة والصمود أمام هجمات جمحافل القبائل الآرية البدوية الزاحفة على مدنهم ، وبهذا ضعفت قواهم واضمحلت بلادهم واندثرت حضارتهم . فلما تدفق الآريون على الهند في مثل هذه الظروف السيئة للغاية التى دب فيها الضعف والاضمحلال إلى جسد الدراوديين ، لم يقدرُوا على مواجهتهم بكل قوة . ويرجع ذلك إلى أسباب عديدة : أولها ، أنهم واجهوا قبائل أوربية همجية لم يكن في مقدورهم طردهم أو السيطرة عليهم ، لأنهم تمتعوا بروح حماسية منقطعة النظير ، شأنهم في ذلك شأن كل القبائل البدوية التى زحفت على الحضارة المتقدمة في أى قطر

من أقطار الدنيا . وثانيهما : أن الخيول لم تعرف في الهند من قبل .
وبهذا جاءوا بأسلحة حربية جديدة أجادوا تكتيكها . وثالثها : كان الحديد
أقوى أسلحة عرفها التاريخ . وكل من ملك الحديد في هذه الآونة استطاع
القضاء على أعظم الحضارات العالمية حينذاك ، كما قضى الحيتيون وشعوب
البحر على حضارة الشرق الأوسط السامية فيما بعد .

وهذه الأسباب كلها مهدت السبيل للآريين أن يتبوءوا مكانة خالدة
باقية في الهند واندمجوا مع أبناء الهند ، وتفاعلوا مع شعوبها ، واستسلموا
لطبيعتها وفصولها ومواسمها ، وتجاوبوا مع أجوائها ومناخها . وبهذا
ظهرت حضارة جديدة ممزوجة بالروح الهندية الأصيلة والآرية الجديدة
وانبثقت ديانة تشمل كل المزايا الهندية القديمة والجديدة وفلسفة جذورها
عميقة رمظاها بديعة أنيقة ، تحمل الطابع الآري ، وهذه هي الفلسفة
الآرية وديانتها .

لقد أثارت الدهشة بعض المؤرخين من انهيار الحضارة الهندية المتقدمة
تماماً بعد زحف الآريين ، وقارنوا هذه الظاهرة بأحداث مماثلة في أرض
الرافدين ومصر ، إذ أن هاتين الحضارتين العظيمتين قد واجهتا نفس
الظروف مرات عديدة ، ولكل منهما سرعان ما تمكنتا من استعادة مجدهما
الحضارى ، وإعادة بنائهما على أحدث الطرق ، ومواصلة الجهود العلمية
وتطويرها إلى أقصى الحدود . ويعلل هؤلاء مصير الحضارة الهندية بهذه
النهاية السيئة : أن الزاحفين عليها كانوا أكثر عدداً من السكان الأصليين ،
ولذلك استطاعوا فرض سيطرتهم التامة عليهم وإبعادهم إلى أقصى الجنوب ،
وإنشاء حياة قروية جديدة كما شاءوا . بينما كان الوافدون على مصر وأرض
الرافدين أقل عدداً من السكان الأصليين ، ولذلك تمكنت هذه المراكز
الحضارية من إعادة بناء مجدها العريق .

ومن ناحية أخرى فإن حضارة نهر الهند قد كرست جهودها كلها في
تعمير المدن وتطويرها ولم تكرر جهودها في ترسيخ أسس القرى وبنائها

لذلك لم توجد مقاومة كافية في القرى ضد القبائل المستعمرة الجديدة ، وطغت هذه العناصر الجديدة على العناصر الأصلية وفرضت سيطرتها عليها إلى الأبد .

مقار الآريين في الهند وظهور النظام القروى وازدهاره في عهدهم

ولما تدفقوا على الهند واستولوا عليها استوطنوا ضفاف نهر الهند . ثم اتجهوا شمال شرق ضفاف نهري الجنجا والجمنا وما جاورهما من المناطق الحصينة القابلة للزراعة ، ورعى المواشى والأغنام ، بسبب توافر انكلاء والحشائش الخضراء فيهما . وقد جلبوا معهم الخيول واستخدموها لأول مرة في الهند في شئون الزراعة والركوب والحرب . وكلما اتجهوا إلى ناحية طردوا سكانها إلى ناحية الجنوب واستوطنوا بلدانهم وبنوا فيها مساكنهم وعمروها . وبهذا تمت لهم السيطرة الكاملة رويداً رويداً .

وقد مارس هؤلاء في بداية الأمر الحياة القروية ، إذ أنهم انقسموا إلى جماعات وكتل ، وانتشروا في القرى ، واختاروا في كل قرية زعيماً لهم يسمى « راجا » أو الملك . وهو يوازي في مصطلحنا الحديث الاقطاعى ، مع أن النظام الاقطاعى لم يظهر في الهند في هذه الآونة . وكان هذا الرجل يتزعم قبيلته بالوراثة .

إن هذه الحياة الريفية التى بدأها هؤلاء في الهند لم تعرف في الهند من قبل . وكان جل اهتمامهم في هذه الآونة إنشاء قرى جديدة وتعميرها وإيجاد حياة بدوية جديدة والتخلى بل ومحاربة كل أنواع المدينيات . ومن أجل ذلك دمروا كل المعالم الحضارية في وادى نهر الهند .

ومن جراء هذه المحاولات ظهرت قرى جديدة في أنحاء وادى نهر الهند وروافده ، وانبثقت فيها حياة جديدة ، ثم امتدت هذه القرى إلى السهول الحصينة بين ضفاف نهر الجنجا والجمنا . وهذه السهول انقسمت الآن إلى ولايتين هامتين وهما : اتاربراديش وبهار .

ومن الجدير بالذكر أن ديانة وادى نهر الهند أقامت نظاماً كهنوتياً ثالوثياً شبيهاً بما وجد في أرض الرافدين كما قلنا . وهذا النظام يفرض سلطة الملوك — وهم خلفاء الله في الأرض — والكهنة ، ونواب الملوك من الحكام والموظفين الكبار على جميع الناس . ومثل هذا النظام لا يسرى إلا في ظل الحياة المدنية . وأما القرى والمناطق الصحراوية حيث يسكن فيها الأعراب والبدويون فلا يمكن تطبيق هذا النظام . وبما أن حكام وادى نهر الهند لم يبذلوا جهودهم في إنشاء القرى ، فقد تعرض نظامهم اللاهوتى المدنى لأشد هجوم آرى ، وتحطم تماماً ، ولم يكن له قواعد راسخة في القرى حيث بنى الآريون مستعمراتهم . ولم يكن في مقدورهم المقاومة فانهضوا تماماً .

وبهذا تقدمت القرى عندهم وازدهرت . وقد امتازت الحياة القروية عندهم بطابع ديمقراطى وفق مصطلحنا الحديث ، فقد منح الشعب — على الرغم من وجود نظام وراثى لتولى زعامة القبيلة — حرية تامة للتعبير عن إرادته بواسطة الجمعيات المنتخبة والمنظمات الديمقراطية القروية . وقد وردت إشارات بوجود مثل هذه المنظمات في كتبهم المقدسة مثال الفيدا واليوبانيشاد . كما وردت إشارات كذلك عن ملوك ارتقوا عروشهم عن طريق الانتخاب . ولعل ذلك حين لم يخلف الملك وارثاً له من أبنائه . وفيما يبدو لنا — من قراءة كتبهم المقدسة — فإن المجالس القروية المنتخبة قد تمتعت بسلطات عزل الملوك أو إعادة الملوك المغزولين . ولكن مثل هذه المنظمات فقدت نفوذها بعد قيام الأمبراطوريات كما سنذكر فيما بعد .

وفي النظام القروى المتبع عندهم قد تمتعت كل قرية بمجالس قروى منتخب ، ودرجت هذه المجالس على منح أفراد الشعب حرية التعبير والمناقشة الظاهرة ، وكانت لايت في الشؤون السياسية فحسب ، بل وفي الشؤون الاجتماعية والدينية أيضاً .

وبسبب ازدهار القرى والأرياف دبّت فيها الروح الثقافية والفكرية

وتقدمت إلى أقصى الحدود بحيث لا نجد لها نظيرا في أى بلد ، ولم يزل لها أثر . فلقد ظهر في القرى مفكرون وأدباء وشعراء بكثرة . كان هؤلاء ينتقلون من قرية إلى قرية ويتجولون في ربوعها ينشرون مبادئهم وأفكارهم . وكان هؤلاء أكبر باعت على نشر الوعي والثقافة بين القرويين على وتيرة واحدة ، بحيث تنمحي الفروق الموجودة فيها ، ولم يتخذ هؤلاء مراكز فكرية لهم في أية قرية . لأن النظام القروى لم يعرف الوحدة القومية ولم تتكون له عاصمة بخلاف الحياة المدنية . ولذلك اضطروا إلى ممارسة حياة التجول لنشر مبادئهم . وقد أصبحت لنظرة القرويين الهنود الفلسفية للحياة سمات هامة لهم وتكونت لهم من جراء ذلك مقدرة عظيمة على التحمل والصبر ، الأمر الذى أصبح موضع دهشة الناس ، ولا سيما المؤرخين الأفرنج .

وبسبب انتشار تعاليمهم بين أبناء القرى والأرياف اكتسب هؤلاء مقدرة التحمل والصبر والصمود . ومن المعروف أن طبيعة الهند الفياضة جعلت لهم — رغم كل خبراتها — متاعب شديدة وأخطارا بالغة مثل الفيضانات المتكررة والأمراض الوبائية المهلكة والخواف العديدة . ولكن القرويين اعتادوا مواجهة هذه المشكلات والمتاعب بكل صبر ولم يبدوا أى شكوى . وليس معنى ذلك أنهم اتكلوا على القضاء والقدر وسلموا زمام أمرهم إلى القدر ليتصرف كما يشاء معهم ، بل حاولوا بما أعطوا من المقدرة على التأمل والتفكير والصبر والصمود تحويل مجرى الحياة لصالحهم بطرق حكيمة هادئة ، مستخدمين كل الوسائل المادية ، مع إيمان كامل بالآلهة . وإذا واجهوا الفشل — رغم كل الجهود — لم يكونوا ثائرين على الطبيعة والآلهة ، بل كانوا يتحملون المتاعب . ولم يكن الفلاح الهندي — بسبب تفكيره وتأمله — يشكو قلة الطعام أو ندرته أيام الحن والمتاعب ، بل يستغرق في التأمل والتفكير في أسرار الحياة ، وفك غوامضها . ويرى بعض الباحثين أن الطبيعة والأجواء قد أملت عليه

هذه الظاهرة . لأن القروى بسبب ثقافته الدينية العالية التي كان يثقلها من المعلمين المتجولين قد نال حظا كبيرا من القناعة والزهد ، وتدريب إلى درجة كبيرة على تحمل المشاق . وهذه الظاهرة لم تزل موجودة في القرى والأرياف . ولم يزل القروى الهندي تتوفر عنده النظرة الفلسفية إلى الحياة . وفي مقدوره أن يتحدث عن القدر والظروف بإخلاص ونفاذ بصيرة يثير دهشة الأجنبي ، لأنه لم يألف مثل هذه الأمور . وصلاحيته ذهنه المتصف بصفات الاستسلام والتسامح ستكون أكثر دهشة واستغرابا نظراً إلى فقدان التعليم في الهند حتى يومنا هذا . والسبب في ذلك كله — كما قلنا — جهود المعلمين المتجولين .

ومن منهج هؤلاء المعلمين من الأدباء والشعراء والفلاسفة والمفكرين أنهم كانوا ينشرون تعاليمهم بين القرويين من الفلاحين والعمال وأصحاب المهن الحرة البسطاء في الفهم في صورة قصصية أسطورية . كانوا يقصون عليهم القصص والأساطير حافلة بتعاليم الأخلاق والدين والقيم العليا . وكانوا يشرحونها بضرب الأمثلة من خلال حياة آلتهم وشخصياتهم الدينية الأسطورية الخالدة . ومن هنا نجد ملاحمتهم وأساطيرهم حافلة بالأخلاق والمبادئ والمثل العليا ، لأنها مما صاغت السنة هؤلاء المتجولين . ومن هنا تعود القريون — منذ القدم حتى الآن — على مذاكرة ملاحمتهم يوميا بعد فراغهم من مهنتهم متجمعين في مكان . وهذه الاجتماعات أو الندوات لم تزل تلعب دور المدارس بين القرويين الذين حرموا من دخول المدارس العصرية ، ولم يزل المعلمون المتجولون — وإن قل عددهم الآن إلى درجة كبيرة — يواصلون جهودهم .

لقد استوحى واحد من أبرز تلاميذ المهاتما غاندى في العصر الحديث وهو « وني بهاوى » من المعلمين المتجولين القدامى طريقة نشر المبادئ والمثل العليا بين أهل القرى . فهو الآخر ينتقل الآن من قرية إلى قرية مشيا على

قدميه لنشر مبادئه ومثله العليا . واليكم صورة مما أورده الصحفى المصرى الأستاذ موسى صبرى فى هذا المعلم (١) « ولكن المجتمع الهندى يمتاز بظاهرة فريدة . ان من بين أبنائه طاقات إنسانية مشعة ، تقدم المثل الأعلى والقدرة الصالحة لأجياله المتعاقبة . من بين هذه القدرات رجل نادر المثال . لا يمكن أن يظهر فى غير الهند . ويستحيل أن تنجح رسالته فى بلد آخر غير هذه الأرض . وقد حاولت عبثا أن ألقاه أو ألتحق به فى أى مكان يمكن أن نكتشف وجوده فيه . أنه يجوب الهند من أقصاها إلى أقصاها سائرا على قدميه . لا يركب قطارا أو سيارة . بل ينتقل من قرية إلى قرية ، وعلى جسمه النحيل قطعة قماش أبيض رخيص من غزل الأيدي الهندية ، ويحل ضيفا على الفلاحين ، ويأكل أقل الزاد ، ويبشر بكلمة الحق والسلام ، انه معجزة جديدة بعد قداسة غاندى .

وأود أن أنقل هنا للقارىء حديث الفيلسوف المفكر « أبابانت » — سفير الهند الممتاز فى القاهرة — عن هذا القديس الهندى الجديد ، قال سفير الهند : اختفى المهاتما غاندى من بيننا فى عام ١٩٤٨ ، ولكن واحدا من أتباعه الا وهو (ونى بهاوى) ، — وقد انفطر قلبه حزنا من جراء ما يرى — ، أخذ ينادى بين الناس مذكرا إياهم بأن غاندى عاش ومات من أجل أن يثبت أن هذه الحلقة المفرغة ، حلقة العنف وما يجلبه فى أعقابها من عنف مضاد ، لا سبيل إلى كسرها إلا بالالتجاء إلى اللاعنف ، ثم أخذ يتساءل : أما من سبيل — والحال كذلك — للخروج من هذا الذى يجرى فى تلنجانا ؟ .

تقع تلنجانا فى حيدرآباد فى وسط الهند ، وقد قام الفلاحون فيها بثورة يترعّمها الشيوعيون ، قتل فيها حفنة من كبار الملاك ، واحتل الفلاحون أرضهم عنوة ، وكان طبيعيا أن تتدخل شرطة الولاية لوضع حد لهذه

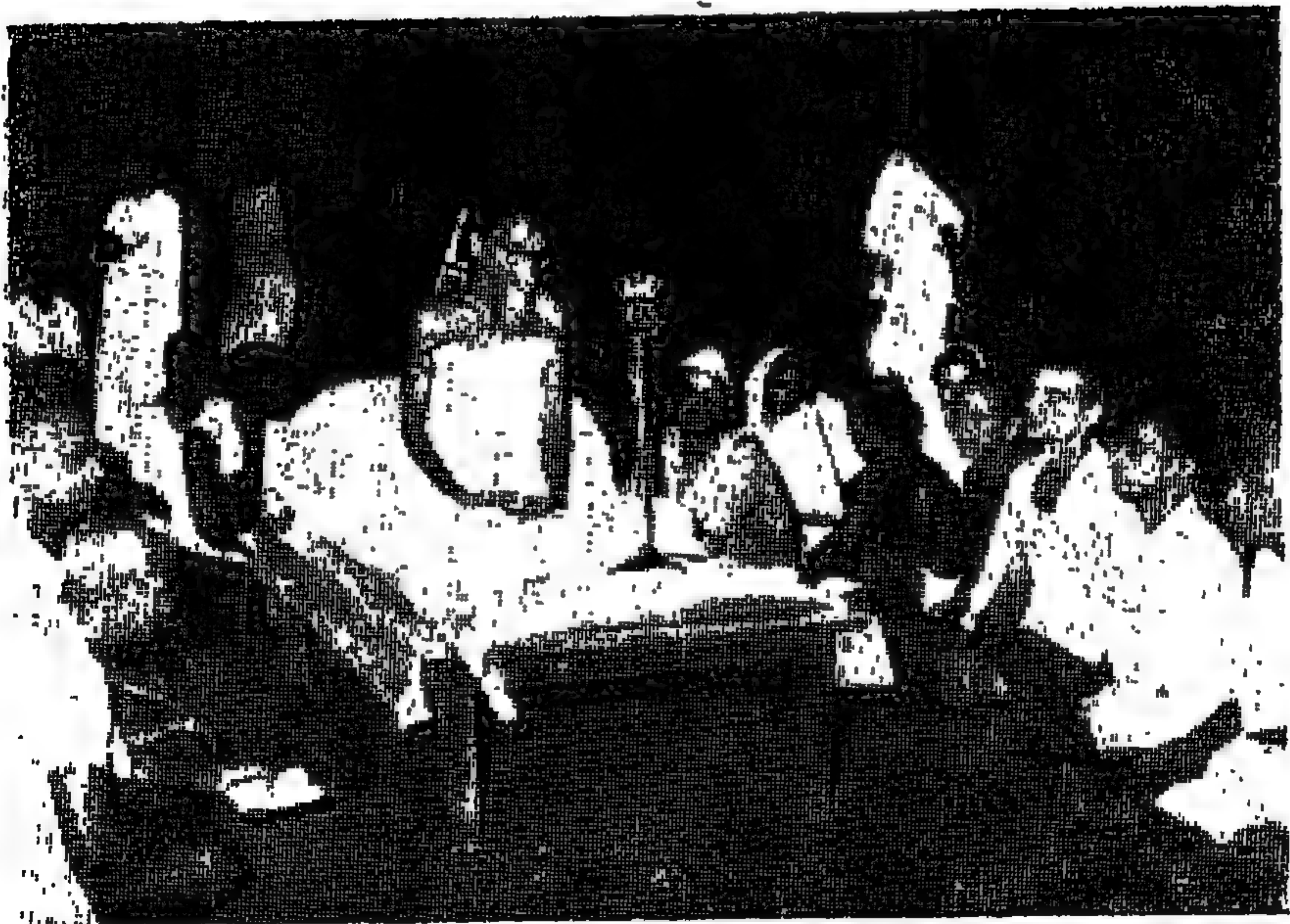
(١) انظر مقاله الصادر فى جريدة الجمهورية القاهرية فى ١١ مايو سنة ١٩٦٩ يوم الاحد ص ٥ .

لوحة (٩)
المهاتما غاندى





ونى بهاوى يتوجه الى قرية



لوحة (١٠)

ونى بهاوى يشرح تعاليمه لاهل القرى

الاضطرابات . وهكذا كان الجواب على العنف الذى مارسه الشيوعيون عنفاً مضاداً تولاه رجال الشرطة وأجهزة الولاية ، وإذا كانت أجهزة الحكومة عاجزة عن تجنب العنف فما من سبيل آخر يسلكه الناس لتجنب ما يحدث ؟ وماذا يمكن أن يكون واجب الفرد فى هذه المأساة ؟ .

وانطلق «ونى بهاوى» من «بانانار» ، قريته الصغيرة فى أواسط الهند حيث ظل أربعين عاماً بأعمال بناءة ويكرس نفسه لتأملاته — فسار قرابة ألف كيلو متر على قدميه حتى وصل إلى «حيدرآباد» والتقى فيها بالفلاحين والشيوعيين ، لقد أدرك ما كان يحس به الفلاحون من الحزن والألم والخوف والغضب مما دفعهم إلى الثورة ضد الاستقلال وعدم المساواة ، ثم أخذ ينتقل من قرية إلى قرية ، فيلمس الحزن والكآبة فى وجوه الفلاحين ، والخوف والريبة فى عيون كبار الملاك .

وفى يوم من الأيام ، وبينما كان يخطب فى جمع من الفلاحين وكبار الملاك سأل : وهو يكاد يخاطب نفسه : من ذا الذى لا يحب فيكم أن يشارك إخوته الفقراء فى أرضه ؟ فإذا كان لأحدكم أربعة أخوة يشاركونه فى أرضه ، أفلا يرضى أن يجعلهم خمسة ، فيقبل أخاً خامساً ؟ كانت القرية التى يخاطب فيها هى قرية بونشامبالى .

وما كاد ينتهى من عبارته حتى قام أحد أصحاب الأرض ليعلن تنازله عن مائة فدان من أرضه لمن لا أرض لهم من أهل القرية . واعترت الدهشة (ونوبهاوى) من أثر هذه الاستجابة السريعة وجالت بخاطره على الفور فكرة جديدة ، فكرة العمل المنزه عن العنف من أجل إعادة توزيع الملكيات ، أو على الأقل من أجل استخدامها استخداماً أفضل فى أغراض اجتماعية ، فكرة جديدة ولدت على الفور .

ثم استرسل يقول : إن الأرض كالماء والهواء ، ملاك لله سبحانه وتعالى . وليس من حق أحد على الإطلاق أن يزعم لنفسه ملكيتها ، إن الأرض للجماعة كلها ، وهكذا هبطت عليه فكرة جديدة أخرى كأنها عون

من السماء نزل عليه في ومضة واحدة تلك هي فكرة (بهودان) و (بهو)
 معناها : الأرض . و (دان) معناها : الهبة أو العطاء . وتنقل (ونوبهاوى)
 من قرية إلى قرية في جميع أنحاء الهند وهو سائر على قدميه ، وهكذا ظل
 يمشى خلال الخمسة عشر عاما الماضية ، فاستطاع أن يجمع في السنوات القليلة
 الأولى خمسة ملايين من الأفدنة لمشروع عطاء الأرض الذى اضطلع به . وقد
 وزع جزء من هذه الأراضى على من لا أرض لهم ، ولكنه لم يقنع بذلك ،
 فأخذ يعلن فى الناس أن حركة عطاء الأرض هذه يجب أن تتحول إلى حركة
 (عطاء القرية) أو كما أسماها (جرام دان) . وقد استجابت لندائه الجديد
 قرى من جميع أطراف البلاد بلغ عددها ١٧ ألف قرية ، فيها من السكان
 أكثر من ٧٥ مايونا من الأنفس أهدوا جميعا قراهم بأجمعها إلى (ونوبهاوى) .
 ثم يقول السفير الهندى : وفى هذه القرية التى شملت حركة « حرام
 دان » أو « عطاء القرية » تغيرت العلاقات بين الفرد وما يملكه تغيرا
 كاملا ، فأصبح يستخدم مملكته وفق حاجة المجتمع ، وفى خدمة المجتمع ،
 دون أن يكون من بينهم من يدعى لنفسه فى أرضه ملكية ثابتة لا تنزع
 منه ، بل هو يملكها طالما أنه يستخدمها فى نطاق صالح المجتمع العام ومن
 أجل منفعة ونخيره ، ومن ثم فهو لا يستطيع أن يبيعها ولا أن يرهنها .
 كل ما يستطيع أن يفعله هو أن ينقلها إلى أبنائه .

وهكذا أصبحت حركة (جرام دان) التى اضطلع بها (ونوبهاوى)
 بعد وفاة غاندى أكبر مثل لأثر الفلسفة الغاندية وأسلوب عدم العنف ودورها
 فى أحداث تغير ثورى فى المجتمع .

لقد أصبحت حركة (جرام دان) هذه ، أو حركة (سارفودابا) ،
 معناها (الارتفاع بالجميع) أو (خير الجميع) جزءا لا يتجزأ من التفكير
 الهندى ومن أحاسيس الهند وحياتها . فالعاملون فى هذه الحركة لا ينتمون إلى
 حزب من الأحزاب السياسية ، ولا هم يتبعون الحكومة ، ولا يتقاضون من
 أحد أجرا لقاء عملهم .

ظهور أولى المدن والحكومات المدنية في العصر الآري

قد حافظ الآريون على الحياة القروية قرابة ألف سنة . ولم تظهر المدن خلال هذه المدة الطويلة كما لم تظهر الحكومات المدنية . وتبعاً لذلك لم تنشأ العمارات على منوال حضارة موهنجودارو . ولم تتقدم الفنون المدنية مثل الصناعات والحرف والفن المعماري والنحت والتصوير وما إلى ذلك . ومن هنا تعترى الدهشة المؤرخين حينما لا يجدون أثراً حضارياً لهذه المدة الطويلة من العصر الآري ، ولو في صورة الخرائب والأطلال على غرار ما وجدوه في موهنجودارو لعصر ما قبل الآريين بآلاف السنين . وهذا الظلام الحضاري قد استمر إلى سنة ٥٠٠ ق.م تقريباً .

ومن الجدير بالذكر أن الآريين حينما استواوا على وادي نهر الهند ، حاولوا التزوح لاستيطان مناطق الجبال والغابات الموجودة على وديان الهملايا وسهول نهري الجنجنا والحمنا . وهذه المناطق تمتد الآن من ولاية أثاربراديش إلى أقصى حدود ولاية بهار ، وبداية حدود نيبال وشطرا من ولاية بنغال . إن وجود الغابات الكثيفة لم يمكنهم من التوغل فيها قرابة ألف سنة . ثم استطاعوا رويداً رويداً - بفضل أدواتهم الحديدية مثل الفؤوس - قطع الأشجار الكثيفة ، وإنشاء القرى فيها . وقد استطاع هؤلاء التوغل في وادي نهري الجنجنا والحمنا خلال سنة ٨٠٠ ق.م تقريباً ، ثم استطاعوا إنشاء المدن خلال عام ٦٠٠ ق.م تقريباً وبفضل هذه الجهود تمكن هؤلاء من تعمير عديد من القرى والمدن الصغيرة في ولاية أثار براديش وبهار . ولعل ولاية بهار كانت أنسب مكان لهم لإنشاء أول مدينة لأول مرة في تاريخهم .

ونجد في عام ٦٠٠ ق.م دولتين : واحدة منهما في ولاية أثاربراديش وهي « كواسالا » Kosala والأخرى في ولاية بهار وهي « مجدا » magada . ومن الجدير بالملاحظة - أنه على الرغم من وجود النظام الريفي - فقد

تقدمت علوم الفلسفة والأدب والأخلاق الى أقصى درجة من التقدم والازدهار . وفي هذا العصر ظهرت الكتب الدينية العظيمة مثل الفيدا والكتب الفلسفية مثل اليوبانيشاد ، والأساطير والملاحم الشهيرة مثل المهابهاراتا والرامايانا ، والكتاب المقدس مثل الجيتا . والسبب في ذلك أن الحياة الريفية منحهم طاقات هائلة من الوقود للتأمل والتفكير والوجدان ، وساعدهم على ذلك وجود المعلمين المتجولين من المفكرين والشعراء والأدباء كما قلنا .

النظام الزراعي بين عصرى حضارة وادى نهر الهند والاديين

لقد قلنا من قبل أن نهر الهند كان صالحاً للزراعة ، ومارس سكانه حياة الزراعة . ومع ذلك لم يتقدموا في الزراعة إلى الدرجة المطلوبة . لأن أراضيهم كانت صالحة جداً لإنتاج القمح والشعير فقط ، ولم تكن صالحة لزراعة الأرز . ومن ناحية أخرى فكانوا يزرعون مرة واحدة فقط في كل عام ، وذلك انتظاراً لعودة الخصوبة إلى الأرض عقب فيضانات جديدة تجلب أملاحاً وأسمدة طبيعية جديدة . ولذلك لم تتقدم الزراعة في عصرهم إلى الغاية القصوى ، وتبعاً لذلك لم يزدهر عدد السكان . وهذا هو السبب في أن الآريين اتجهوا إلى الشرق الشمال رويداً رويداً محترقين غابات هذه المناطق الواقعة بين نهري الجنجا والجمنا . ومع أن عملية الاستصلاح الزراعي لهذه المناطق السهلية الخصبة الجديدة استغرقت قرابة ألف سنة بوجود الغابات الكثيفة فيها ، إلا أنها أدخلتهم - بعد نجاحهم في الاستصلاح - في طور جديد من الحياة الزراعية لم يسبق له مثيل .

وبهذا تأصلت الزراعة في نفوس أبناء الهند وتغلغت فيها . ومن الطبيعي فإن النظام الزراعي هو الآخر يدعو إلى ممارسة الحياة الريفية والنظام الريفي . وأن وجود النظام الريفي الآري منذ البداية ساعد هذه الظاهرة إلى أقصى الحدود . وأن المجالس القروية وما كانت تتمتع به من النقاش بحرية كاملة كفلت للفلاحين مستقبلهم وساعدتهم على تطوير حياتهم ، وعدم معاناتهم ، لمتاعب الاحتكار والإقطاع .

الآلهة والطقوس من الاصل الهندي الأوربي

كان الآريون في موطنهم الأصلي في أوروبا يعبدون أنواعاً من الآلهة ويسجدون أمام جميع مظاهر الطبيعة التي كالت تجلب لهم النفع والضرر . ولما نزحوا إلى بلاد عديدة ومن بينها الهند حملوا معهم هذه الآلهة كلها . وكان من أشهر آلهتهم في بلادهم الأصلية : اندرا وميترا ، وفارونا ، وناستيان ، ويوشساس . وكذلك نقلوا إلى البلاد الجديدة معظم طقوسهم وتقاليدهم .

الاله إندرا : وهو من أعظم آلهة الآريين في الهند وأخطرها شأنًا وأكثرها مكانة وتقديرًا . وهو في نظرهم إله الآلهة الذي ظهر في الوجود أول ما ظهر وهو الذي يعد أول من تلقى الروح ، ثم أنقذ جميع الآلهة بقواته الهائلة . وكانت ترتعش الكائنات كلها من عظمة طاقته وجبروته وجلال قدرته ومهابته . وقد تردد اسم هذا الاله مراراً وتكراراً في كتاب (الرج فيدا) . وكان الهندوس يعتقدون أنه إله الأمطار . وكانت مهمته — وفق اعتقادهم — القضاء على الإله قرينا ، الشيطان الذي يمنع نزول الأمطار . فقد فتح إندرا أبواب السماء لنزول الأمطار بشدة وغزارة على الأرض وكان السكان في الأرض الخصبية يقدسون هذا الإله ويرقبون فضله وكرمه لإسقاط الأمطار ليسيطروا على الجفاف الذي طالما هدد كيان البلاد .

وقد صورت كعب الفيدا الأخيرة أنه يشق الجبال ويخرج منها السحب التي تمطر في العالم . وكان هذا الإله يطلق سراح الأنهار والوديان التي كان يغطيها الضباب الكثيف .

وهو الإله الوحيد الذي يظهر دائماً في صورة الإنسان . وذلك أنه يحمل القوس ويركب العربة ، ويملك سلطات واسعة في الكون . وهو الذي هزم المخلوقات الغريبة التي استولت على الماء وقتلها ، وحرر الماء من سيطرتها . ومنذ ذلك الحين أصبح هذا الإله صاحب أعظم قوة في الكون ، تخضع لها البحار والطبيعة الفتانة والسحاب والليل والنهار . وهو ينحدر من طبقة البراهما

— أعلى طبقة هندوكية — ولذا لا يمت بصلة إلى الآلهة الذين ينحدرون من الطبقات الدنيا .

وهو يشبه في سلطانه الواسعة الإله البعل في سوريا ولبنان . كما أنه مسمى عند الأغريق بجوبيتر .

ميترا : هو من كبار آلهة الآريين — بعد إندرا — الذي جليوه من موطنهم الأصلي . قد سمي نفسه الإله في إيران بـ « ميترا » وهو يصاحب « فارونا » دائماً ولا يفارقه لحظة واحدة .

وهذا الإله قد اختص فيما بعد بطائفة « شترى » — وهى دون البراهما مكانة — فأصبح عندها إله الشمس . وكانت وظيفته عندهم إبرام العقود ومنع الناس من نقضها بعد توكيدها ، ومعاقبة كل مذنّب بأشد العقوبات .

وتروى الأساطير أن هذا الإله يشبه إنساناً أحمر . وله ثلاثة عيون ، وأربعة أيدي ، ويحمل في يديه زهرة اللوتس ، وفي الثالثة البركات ، وفي الرابعة يشجع عباده .

وقد تزوج إله الشمس من آلهة تسمى « سانجنا » ، وأنجب منها ثلاثة أبناء : وتحكى بعض الأساطير الأخرى أن إله الشمس تزوج من الإلهة ، أوشا وهى إلهة الفجر ، الذى ينفلق صباحاً . وقد تغنت به معظم الكتب المقدسة الهندوكية . وهى ابنة السماء وأخت الليل وقريبة الإله فارونا — الذى سيأتى ذكره قريباً — وعشيقه إله النار . وهى تركب دائماً على عربة تسوقها الأبقار والحيول الحمراء . ويصفها الشاعر وكأنها فتاة جميلة تسحر بجمالها الرجال ، وتملك قلوبهم وتستولى على عقولهم ، وتلبس ملابس جميلة مغرية للغاية ، وتتحدى بالخلي ، وترقص بكل ما أوتيت من جمال وسحر ، وتخرج للاستحمام برقصاتها الساحرة وتلبس ملابس فخمة لملاقاة زوجها وهى التى تلعب دور إلهة ربة البيت ، إذ أنها توظف النساء فى الصباح الباكر ، وتحثهن على العمل . وكذلك توظف جميع الكائنات الحية . وهى



لوحة (١٢)
اغنى الهة النار



لوحة (١١)
الاله اندرا يجلس على فيله

التي تدعو الناس إلى تقديم العبادات للآلهة وتعلمهم طريقتهما . وتشعل الشموع في المعابد والنيران للقرايين . وهي دائماً مع الأبرار في كل مكان توقظهم وتساعدهم على العمل وتكره الكسالى والأشرار ، ولا تساعد في أى شيء . وهي فتاة جميلة لا يزول شبابها ، خالدة مخلوذة الدهر ، تظهر كل صباح مبكرة في أحلى مظاهرها وجمالها وسحرها على مر العصور والأجيال .

فارونا : وهذا الإله هو الذي كان يملك مقاليد أمور السماوات والأرض ، وهو الذي منح القوانين والمبادئ الأخلاقية . وهو إله عالمي يملك سلطات واسعة لا حدود لها . وكذلك وصفوا إلهها آخر يتصف بنفس هذا الصفات هو « رتا » (Rta) ، ذلك الذي يعقد الأمور ويتركنا في خلط وحيرة في فهم وظائفه ووظائف فارونا ، ولا نكاد نصل إلى نتيجة .

إن النار المقدسة تعتبر سائقة عربته ، وهي التي تجهز جواد العربة بكل الأجهزة اللازمة وتسوقها بكل قوة وانطلاق . ومن المعروف أن هذه النار هي الأخرى أصبحت إلهها فيما بعد ، وهي الإله أجنى (Agni) ، ذلك الذي تقدم له جميع أنواع القرايين . لأن له صلات وثيقة بالسماء بوصف كونه سائق عربة الإله فارونا ويتردد على السماء بين حين وآخر . وهو الذي يصبح وسيطاً بين السماء والأرض ، وتمثل فيه الأخلاق والمثل العليا للإله فارونا .

يقول الرج فيدا — أقدم كتاب آرى في وصفه : وتقدم الصلوات في غاية من سمو والعلا للإله العظيم فارونا ، ذلك الذي يتسم بالسمو والعلا ، ويتقبل القرايين . وهو الذي نشر الأرض بساطاً للشمس . ولذلك نشر الهواء خارج العمران ومدته حتى في الغابات . وهو الذي منح السرعة للخيول وخلق الألبان في الأبقار ، وربط القلب بالعقل ، وخلق الإله أجنى من المياه ووضع الشمس في السماء و« سوما » — المشروب الشهى — في الجبال . وبهذا كان سيد الآلهة لدى الآريين في مستهل حياتهم في الهند .

ولكنه فيما بعد فقد سلطاته الواسعة وأصبح من آلهة الدرجة الثانية ، واختص بالطبقة الثانية من الهندوس وهى « شرى » . ولذلك لم يكن فى مقدور هذا الإله أن يتخذ شكل الإنسان ، بينما كان يتخذ جميع الأشكال بكل سهولة .

يشبه هذا الآله فى نظر بعض الباحثين أوزيرس - الإله المصرى - فى مثل هذه السلطات .

ناستيان : وهو يسمى أيضاً « آنفين » وهو ليس بإله واحد ، بل إلهين وهما توام ، وتصور كتب الفيدا أنهما المتطوعان أو الفرسان صاحبا اللون الذهبى ، وهما اللذان يأتیان حينما ينفلق الصبح ، ويعدان الطرق فى السحاب الإلهة الصبح وهى « يوشا » ، ويلعبان نفس الدور فى المساء حينما تغرب الشمس ، ومن أجل ذلك ينبغى لنا أن نسميهما إله الصبح والمساء . وهما من ألهة الأسرة الهندية الأوربية كما قلنا ، لأنهما يشيران إلى غزاة الهند ، كما أنهما من الطبقة الآرية الارستقراطية العليا .

وان كلمة « ناس » تدل على الخدمة . وهذا يدل على أن مهام هذين الإلهين هى جلب المنافع والخيرات للناس ، كما أنهما يلعبان دور الأطباء بين الآلهة ودور الأصدقاء لدى المرضى والبؤساء ، وهما يرشدان الأعمى والأعرج ويساندان الضعفاء والعجائز بكتفيهما ، وهما فى الحقيقة رمزا للمحبة والسرور .

وكان أبواهما إله الشمس وإلهة السحاب : وقد تزوجت من إله الشمس ابنة إله سارابانا الذى هو الآخر إله الكواكب من إله الشمس ، وهما اللذان يبيدان بسوطيهما الضباب انكثيف والندى ، ولهما عربة ذات عجلات ثلاث ، صنعها الإله رحي بوسى .

يوشاس : وكذلك كانت إلهة الفجر أويوشاس من الأسرة الهندية الأوربية ، لأنها تشبه فى كثير من الأحيان « الإله يوسى » الأغريقى ،

والإله « آرورا » الروماني في وظيفتها وخصائصها .

ومن الجدير بالذكر ان هذه الآلهة الآرية القديمة قد وجدت بنفس الصفات والسلطات لدى الأمم الأوربية مثل اليونان والرومان والألمان ، ولكن أسماءها لم تبقى على أصلها عندهم . وفي أساطير الرومان مثلًا تسمى هذه الآلهة الرئيسية « جوبيتر » (Jupiter) ، و « مارس » (Mars) و « كويرى نوس » (Quirinus) ، وفي الألمانية : « وودين » (Woden) و « دونار » (Donar) ، و « فانير » (Vanir) .

المشروبات المقدسة

كان (سوما) مشروباً شهياً هاماً يشربه الإله إندرا ، كما أنه عصير يعصر أثناء الطقوس . وهو أصلاً نوع من الأعشاب التي كانت تنبت في الهند ويستخدمها الهندوس كجزء أساسي في أمور الطقوس والقرابين بين يدي الآلهة . وكذلك هو عصير كانت ثماره تعصر بين دفتي الطاحونة كما أن سوما رحيق ممتاز يشربه الآلهة للتمتع بحياة خالدة ، وهذا الرحيق كان يمنع الموت والأمراض القائلة ويضمن حياة أبدية .

وبسبب خطورة هذا المشروب ودوره الكبير في حياة الإنسان والآلهة أضفى عليه الهندوس أنواعاً من الأساطير التي تضاعف من قيمته وترفع من مكانته . ومن أجل ذلك يستطيع سوما — كما ورد في الأساطير — اتخاذ عدة أشكال وصور ، وهو يتمثل حيناً في نور سماوى ، وحيناً آخر في طائر سماوى ، أو جرثومة أو عفريت في المياه أو ملكة الأشجار ، أو طاقات قدسية تشفى من الأمراض ، كما هو موطن الإنسان الأول وملك الشعراء ، وكذلك هو مصدر الوحي والإلهام ومنبع الأصول والمبادئ ، وأنه يجب البطولة ويجازى الأبطال على أعمالهم البطولية ، كما أنه همزة الوصل بين الإنسان والآلهة في السماء .

ومن الجدير بالذكر ان الأمم القديمة قد اتخذت بعض أنواع المشروبات

رمزا للتقديس والعبادة . وقد وجدت مشروبات شهية مقدسة في حضارة لبنان ومصر خلال الالف الثالث قبل الميلاد . وكانت الأمة الهندية الأوربية هي الأخرى قد عرفت مشروبات دينية ، وقد سمي المشروب الآري الهندي « سوما » في ايران الآرية « هاوما » (Haoma) . وكذلك وجد مشروب من هذا النوع لدى اليونان وسميت بعض الأمم الأوربية القديمة مثل الأمة البولينية (Polynesia) مشروبها « كاوا » .

وكذلك نجد تشابها كبيرا بين ايران والهند في بعض الطقوس . فقد كان « حوتر » أو « راوتار » يطلق في تراثيهما على من يصب الماء في الطقوس ؟ وكذلك نجد تشابها واضحا في أسماء القرابين والمرسيم الأخرى . وناهيك بالكلمات المتشابهة والجزور المتماثلة بين لغات هذه الأمم كما أوردناها سابقا .

آلهة حضارة نهر الهند عند الآريين

لقد قلنا : إن أية حضارة جديدة دخيلة لا يمكنها التخلي عن جميع آلهة السكان القدماء وتقاليدهم وطقوسهم كلية . ومع أن حرب الآريين مع آلهة نهر الهند وتقاليدها كانت حامية الوطيس في بداية الأمر ، ولكنهم حينما سيطروا على البلاد ، واستولوا على مقاليد الأمور قد أعربوا عن بعض عطفهم وتسامحهم نحو آلهة السكان القدامى وتقاليدهم . وكانوا في حقيقة الأمر مضطرين إلى ذلك ، لأنه طالما كان السكان الأصليون موجودين لا يمكن الاستغناء عن جميع عقائدهم القديمة ، بل من الأكيد أن يتجاوبا مع بعضها ، ويصوغاها صياغة جديدة بعد اخضاعها لسيطرة عقيدتهم . وهو نفس ما حدث بالنسبة إلى آلهة السكان القدامى . وهذا هو السبب في أن الإله سيفا - وهو الإله القديم للسكان البيض من موهنجودارو - قد طرأت عليه تغيرات في عصر الدراودين ، ثم انتقل إلى الآريين بعد تعديلات طفيفة جديدة . وكانت الإلهة كالي من صميم آلهة الدراودين . وكذلك كان الإله فشنو من أبرز آلهة الدراودين ، الذي هو الآخر اتسم باللون الأسود . وكذلك كانت الإلهة شكتي من آلهتهم البارزة .

إن الإلهة شكنتى لا أثر لها فى كتب الفيدا مطلقا ، الأمر الذى يدل بوضوح عند الباحثين على أنها من الأصل الدراودى . ولما خفت الحروب الحامية ومؤثراتها بين الآريين والدراوديين ظهرت هذه الآلهة كلها بمظهر جديد لدى الآريين وأن الإلهة الأخيرة وهى شكنتى تمثل عندهم حيوية الأنوثة .

وهناك إشارات فى كتب الهندوس الأخيرة تدل على حدوث الامتزاج بين آلهة الدراوديين والآريين فى القرون الأخيرة . ولقد قلنا سابقا إن « سيفا » كان من آلهة موهنجودارو ، ثم أصبح إله الدراوديين . قد أبدى الآريون نفورهم الشديد إزاء هذا الإله فى بداية الأمر . ولكنه امتزج غيا بعد بالعقيدة الآرية على الوجه التالى :

تحكى الأساطير أن الإله سيفا كانت تعبده جميع الشياطين والعفاريت . وقد اتسم هذا الإله بالشدة والعنف والحشونة . وأما الإله « داسكا » فهو من آلهة الآريين الذين خلقوا هذا الكون . ولذا كان بينهما عداوة شديدة . وكانت ابنة الإله داسكا وهى « ساتى » قد أحبت « سيفا » حبا شديدا . وفى حفلة الخطوبة التى عقدت لها لاختيار زوجها من بين الآلهة — وذلك وفق التقاليد الهندوكية لاختيار الزوج — لم يوجه أبوها الدعوة إل « سيفا » لحضورها . ولما حملت ساتى أكليلا من الزهور لتضعه على عنق من تحبه لإعلانا منها عن اختياره زوجها لها بحثت عن سيفا عشيقها . ولما لم تجده بين الحاضرين انجهدت إلى الآلهة فى السماء طالبة منهم العون ، وألقت الزهور فى الفضاء ، فظهر سيفا أمامها فجأة يحمل فى عنقه زهورها . وبهذا عرف أبوها سر العلاقة بينهما ، وتم الزواج أمام الجماهير . ومع ذلك فتد كان « داسكا » يكن كراهية شديدة لختنه . ثم أعان الحرب ضده قائلا : أنه إله صاحب عيون قرد ، وتزوج من ابنته الجميلة ذات العيون الغزلانية . وأن هذا الزواج قد تم ضد إرادته . ومن المؤسف أن ابنته تزوجت رجلا متوحشا متمردا عنيفا لا يحترم القوانين والمبادئ ، وأن مهمته دائما هى

نشر الذعر والفوضى والارتباط مع العفاريت والأرواح الخبيثة . ويبدو من شكله أنه مجنون فهو عارى الرأس ، أشعث الشعر ، وعلى عنقه قلادة من الجماجم وعظام الإنسان . وهو سيد الشياطين وطبيعته شريرة .

أما « ساتى » — زوجة سيثا — فقد كانت تحبه حبا جما ، وتبحث عن الوسائل التي تدعم هذا الحب وتضاعفه وتجعله يعبدتها ويقدمها . وكانت تتخذ جميع وسائل الإغراء لهذا الغرض . وتحكى الأساطير أن الإله إندرا الآرى المذكور قام يوما بزيارة الإله سيثا في جبل « كايلاسى » ، وقدم له الأغاني والرقص ليعبث السرور في نفسه . فسر به « سيثا » غاية السرور ، وسأله عن طلباته . فقال له إندرا : طلباتي أن تمنح لى سلطاتك وطاقاتك . ففتح إياها ، فأصبح أندرا من أقوى الآلهة بسبب هذه الطاقات الجديدة والسلطات .

كالى : لقد ذكرنا من قبل أن الإلهة كالى السوداء اللون الدميعة المنظر التي دخلت انعقائد الآرية بعد تخفيف حدة التوتر بين العلاقات الآرية وال دراويدية . فلما امتزجت بآلهة الآريين قد اشتركت معهم في محاربة العفاريت الذين كانوا من أشد أعداء الآريين . وقد دارت رحى الحرب بينهما وبين (لاكتاويجا) سيد العفاريت . وقد خسر (راكتا ويجا) عسكريه كله ، فاضطر أخيراً لشن حملة قاضية على (كالى) . فاضطرت كالى هي الأخرى بدورها إلى استخدام سلاحها الممنوع الاستعمال ، وضربته وقضت عليه . فكل قطرة وقعت على الأرض من دمه صارت سبياً في إيجاد آلاف من العفاريت . فتحيرت كالى من هذه الظاهرة واكتنفا تغلبت أخيراً على هذه المشكلة بامتصاص دم العفاريت .

دور قشنو وسيثا في خلق نهر الجنجا المقدس

إن الأساطير الهندية تعرض الإله قشنو — الذى كان من الأصل الدراويدى وانضم إلى صفوف آلهة الآريين فيما بعد — بصورة غريبة وهي



لوحة (١٣)
الاله قشنو ينام على الافعى

وصفه باللونين الأسود والأزرق . وهو يلبس ملابس صفراء ويركب على عقاب يسمى « جارودا » ويحمل في يده الأولى صولجاناً ، وفي الثانية صدقة ، وفي الثالثة دائرة ، وفي الرابعة زهرة اللوتس . أما عرشه في السماء فقد بنى من الذهب ، وقصوره من الأحجار الثمينة .

ان نهر الجنجا في الحقيقة كان يجري في السماء ويستقط ماؤه الصافي على رأس الإله (دروفا) ، ثم على العقاريت السبعة ، وأخيراً يأخذ طريقه إلى البحر . ويجلس قشنو هناك على زهور اللوتس وعلى جانبه الأيمن زوجته الجميلة (لاشمي) تلك التي وادت حينها طحن الآلهة أمواج البحار . ثم صب الآلهة على رأسها ماء نهر الجنجا بواسطة ابريق ذهبي على صورة الفيل . وهو رمز الحب والجمال ومجد إله الآلهة .

وقد أرادت الآلهة إنزال الجنجا إلى الأرض ، وقد وجدت عقبة في طريق تنفيذها هذه العملية وهي أن حجم الجنجا كان يزيد عن حجم الأرض . ولم يكن في الإمكان أبداً أن تنسع لمياهه . فأرادت الآلهة أن يقل حجمه ، فحمله إله من الآلهة ، فسقط الجنجا على شعر الإله الكثيف المعقد ، وظل يجري على رأسه عدة أيام جاداً في البحث عن منفذ للنزول إلى الأرض . فقسمه الإله سيقاً إلى سبعة فروع لكي يسهل نزوله إلى الأرض وتبتلعه بدون عناء . فلما أخذ الجنجا طريقه إلى الأرض حدثت ضجة كبرى وصدر صوت نحيب . وهذا هو الرعد . وسقطت معه إلى الأرض الأسماك والسلاحف ، فخرجت الآلهة كلها لمشاهدة هذا المنظر النحيب ، راكبة على الفيلة والخيول والعربات . وقد فرحت جميع المخلوقات بهذا اليوم السعيد . فسقطت الأنوار على وجه الإله ديفاس ومن ملابسه وحلاه ، فأنارت السماء كلها ، وهذا هو البرق . وكانت الأسماك والسلاحف في هذه الآونة تبدو ساطعة بالأنوار وتظهر منها رغبة شديدة القوة والهيجان ، وتتحول إلى طيور بيضاء تطير فوق الماء ، وهذه هي قصة سقوط الماء من السماء على رأس الإله

سيثا ، ثم نزوله إلى الأرض وتفرعه إلى عدة أنهار وعيون وبرك وأودية .
ومن الجدير بالذكر أن الإله فشنو يلعب دوراً كبيراً في عقيدة التقمص .
كما سنذكر قريباً . وهذا الإله هو الذى تجسد في شخصيات أسطورية مثل .
كرشنا وراما كما سنذكر قريباً .

الآلهة التى ظهرت على تراب الهند

وبالإضافة إلى الآلهة الآرية المذكورة كذلك ظهرت فوق تراب الهند .
آلهة كثيرة ، وتبدو معالمها لنا من قراءة أواخر كتب الفيدا ، ومن أشهر .
تلك الآلهة :

١ - فيسا كاراما : وهو إله حاذق مرن فى الأعمال ، وهو الذى .
استخدم الشظايا التى تنثر من أشعة الشمس ليصنع دائرة منها للإله فشنو
ورحاً له ، وكذلك لصنع أسلحة أخرى للآلهة الآخرين ، وحراسة .
الخزائن .

٢ - الإله براجاباتي : وهو إله الذريات والإنسان والكائنات كلها .
وقد برز اسمه فى كتب الفيدا الأخيرة . وقد تطور هذا الإله من إله الشمس .
« سوريا » المذكور . وقد وصفته كتب الفيدا بالكلمات الآتية : قد نشأ هذا
الإله كما نشأ الجرثومة الذهبية . فلما ولد أصبح سيد هذا الكون . وهو
الذى أبرز السماء والأرض إلى الوجود ومنح الحياة والقوة لجميع الآلهة .
وبهذا يكون هذا الإله خالق الكائنات والآلهة والإنسان وأعمال الإنسان .
وصفاته والمبادئ والمثل . وقد خلق ، هذا الإله أول ما خلق الماء ، ثم
الشمس والنكواكب والأرض والحيوانات والإنسان ، وكثيراً من الآلهة .
على هذا الترتيب . وتحكى الأساطير أنه قدم نفسه قربانا لظهار هذا
الكون ، وبهذا تحلل جسده وروحه فى جميع الكائنات والآلهة والحيوانات .
والإنسان .

البرهما وتطور مدلولاته الى الكهنة واله الآلهة والطائفة العليا

ان كلمة « البرهمن » و (البراهما) لها مدلولات خاصة في اللغة الآرية الأولى . لقد أطلقت كلمة (برهمن) على العبادة والصلاة في بداية الأمر ثم على كهنوت معين وأخيراً على سيد الآلهة ، والملحق على كتب الفيدا الأربعة . وأخيراً على الطائفة المفضلة لدى الهندوس .

وبهذا تكون مادة (البرهمن) سنسكريتية أصيلة لها مدلولات خاصة . ولا علاقة لها باللغات السامية إطلاقاً . وقد ظن بعض الباحثين الهندوس والمسلمين أنه نفس كلمة (إبراهيم) — أبى الأنبياء — بمجرد وجود تشابه في مادة الكلمتين ، وظنوا أن الكلمة السامية هذه قد انتقلت إلى اللغة الآرية . ولكن هذا الرأي بعيد عن الصواب . لأن سيدنا إبراهيم قد سمي في اللغات السامية الأولى وبالأخص بالعبرية (أبرام) ، وأطباء ليست موجودة في أصل العبرية بالمرّة ، كما تشهد بذلك التوراة حتى الآن . وأن الأطباء قد دخلت في هذه المادة في اللغة العربية في العصر الجاهلي . ومن ناحية أخرى فإن أول كتاب آرى وهو (الفيد) الذى وصف جميع الآلهة المذكورة آنفا وصفاتها ومسؤولياتها ، كتاب وثني ، يمثل العقائد الآرية الوثنية البدائية ، ولا نشم فيه رائحة التوحيد إطلاقاً أو الفلسفة وما إلى ذلك . وبهذا يستحيل تماماً أن يكون هذا الكتاب من صحف سيدنا إبراهيم كما وهم كثير من الباحثين المذكورين .

وقد جاء في « البراهمانان » وهو ملحق كتب الفيدا أن الإله براجاباتي هو خالق هذا الكون ، ثم يذكر أن « براهما » إله الآلهة قد ظهر في الوجود حينما فقس بيضة ، وتكون من الشطر الأعلى لها السماء ، والشطر الأسفل الأرض . وهذا الأمر يجعلنا نقع في خلط شديد في تحديد الموجود الأول ، أهو براجاباتي ، أو براهما ؟ وتحكى بعض الأساطير أن براهما هو الموجود الأول . وهو الذى خلق هذه الكائنات ، وهو إله الآلهة وخالق الإنسان وكل شيء في هذه الدنيا . إذ كان هذا العالم في البداية عبارة عن ظلام حالك مجهول ، لا شكل له ولا حياة ، ولا وجود فيه ، ثم أنشأ

الوجود الحى الخالد بطاقاته الهائلة هذا الكون بمواد أنارته وأزالت ظلامه ولم يكن فى مقدور أحد معرفة كنه هذا الوجود الحى ، وادراكه ورؤيته إلا بالوجدان . فلما أراد هذا الوجود الحى الذى خلق هذا الكون ، خلق الماء أول ما خلق ووضع فيه بذراً أصبح مثل بيضة لامعة كضوء الشمس . وظلت البيضة على وضعها لمدة عام ، ثم انقسمت إلى شطرين ، الأمر الذى أدى إلى خلق السماء من الشطر الأعلى ، والأرض من الشطر الأسفل ؛ ولما كانت هذه البيضة تحتوى قبل فقسها على البحار والأنهار والكائنات والشياطين والإنس ، فقد ظهرت هذه الأشياء كلها فور فقسها .

وتصف الأساطير « براهما » على أنه يحمل أربعة أوجه ، ويلبس حلة بيضاء ، ويركب حيناً الأوز وحيناً آخر الطاووس ، وتارة زهرة اللوتس . وله أربعة أيد ، يحمل فى كل يد منها « القيذا » — الكتاب المقدس — ودائرة ، وقرص الكرم والإحسان .

وقد تزوج براهما من آلهة شهيرة خلقها من نفسه وأحبها من أعماق قلبه وهى « ساراسواتى » تلك التى اشتهرت بإجادة الغناء والموسيقى والتبحر فى العلوم والمعارف ، والتى أنشأت الحروف السنسكريتية . ولها هى الأخرى أربعة أيد ، فى واحدة منها تحمل إكليلاً من الزهور لزوجها ، وفى الأخرى تحمل أوراق النخل ، رمزاً للعلوم والمعارف ، وفى الثالثة باقة من الزهور وفى الرابعة طبلية صغيرة وهى أيضاً تجلس على زهرة اللوتس ، ويقرن اسمها دائماً مع الماء ، الأمر الذى يوحى بأنها كانت من آلهة الماء .

ومن المتناقضات فيما يتعلق بقوة « براهما » وجبروته ، وصفه أحياناً بأنه خاضع لقوة هائلة تفوق قوته وجبروته . وتحكى الأساطير — على لسان براهما — : أنه فى ليلة من الليالى تصور « نارايانا » روح الكون . ونظر من خلال آلاف عيونه الساحرة إلى الكائنات ، وفكر من فوق سطح الماء الذى يحمله الثعبان على ألف قرن . فإذا هو ينخر صعباً من قوة الضوء الذى يسطع نوره ، ويعمى بصره ، ويحار عقله . وذلك لأنه وجد



لوحة (١٤)
الالهة تقوم بطحن مياه البحار



لوحة (١٥)
الآلهة لاکشمی

تفسه أمام الإله (نارايانا) إله الآلهة مباشرة . فسأله براهيم : أخبرني ، يا إله الآلهة : لماذا أنت برىء من المعصية ، فرد عليه (نارايانا) قائلا : لأنني خالق هذا الكون ، ومحطمه ، وخالق آلاف الكائنات غير هذه الدنيا . أنا الروح الخالدة الباقية التي لا تزول ولا تقفئ ، وأنا الذي خلقتك من جسد الخالد . وتحكى الأساطير أن إله القمر قد ظهر إلى الوجود حينما قامت الآلهة بطحن المياه البحرية وأواجهها الهائجة . إن طحن مياه البحار أهم ظاهرة هندوكية . وهذا إله الذكر وله سبع وعشرون زوجة من الكواكب التي تجاوره .

آلهة الحيوانات والجمادات

وبالإضافة إلى الآلهة المذكورة فقد آمن الآريون بكثير من الحيوانات والجمادات وأضفوا عليها صفات الآلهة ، وحكوا أساطير شيقة حول كثير من الحيوانات والأشجار والأنهار فركعوا أمامها إعجابا بدورها الخالد في حياتهم ، وتقديرًا لخدماتها العظيمة من أجل سعادتهم ورفاهيتهم ومكاسبهم .

وقد جعل الهندوس الشعابن والأفاعي من أهم آلهتهم . وهؤلاء ينحدرون من سلالة الأبطال ، ويقدرّون على اتخاذ أشكال الشعابن والإنسان والحيوانات الأخرى ، ويملكون طاقات هائلة . وكان (ناكشاك) من أهم هؤلاء الآلهة ، فهو الذي يحكم الشعابن تحت الأرض .

حياة الآلهة وصفاتها مثل الإنسان

ومن الجدير بالذكر أن الأساطير الهندية تضيف على آلهتها الصفات الإنسانية مثل : الزواج وإنجاب الأطفال ، والخلافات الشخصية والحروب وسكنى القصور ، كما يتقدم فن العمارة في ملكوتها في السماء . ومما يدل على ذلك تلك الحروب الدامية التي دارت رحاها بين الإلهة (كالي) - الأم السوداء - وبين العفاريت . وكانت قصور هذه الآلهة في السماء تشبه كثيرا قصورنا في الأرض . لأن الإله راكشاش ذلك الذي يعتبر همزة الوصل بين الإنسان والآلهة كان يملك مدينة جميلة رائعة هائلة . وكانت

هذه المدينة تتخذ أشكالا وألوانا في كل وقت . وقد بناها آلهة الفن والتعمير ، لأن الآلهة تعشق الفن والبناء والتعمير والجمال والسحر .
عقائد الآريين وتجاوبهم مع الشرق الأوسط

كانت عقائد الآريين في بداية أمرهم وثنية بسيطة ، شأنهم في ذلك شأن كل أمة بدوية . ولذلك نجد في كتاب الرج فيدا - أول وأقدم كتاب آرى - أنهم يقدمون صلواتهم ومناجاتهم وابنهالاتهم بين يدي الآلهة ، كما أنهم أعربوا عن شكرهم وامتنانهم للاله إندرا ، ذلك الذي منحهم النصر ، وحارب ضد أعدائهم ، ومكنهم في الأرض . وكذلك يكون هذا الاله إلى جانبهم ، ينصرهم ويشد أزرهم ويغدق عليهم نعمه وفضله وكرمه . كان الآريون يخافون من الأمراض ، ويعتقدون أن الآلهة الشريرة هي التي تجلب هذه الأمراض ، ولذلك قدموا لهذه الآلهة أنواعا من الطقوس والتقراين ، شأنهم في ذلك شأن العراقيين والسومريين واللبثانيين في نفس هذه الفترة من التاريخ .

ومن ناحية أخرى فقد أضفوا على آلهتهم نفس مشاعرهم الإنسانية وأحاسيسهم . ولذلك اعتقدوا بأن الآلهة تسكن في السماء وتركب على العربات الفخمة ، وتحمل الأقواس والرماح ، ولا تخرج من مساكنها إلا حينما يحمل إليها الإله أجنى - الإله النار - القرابين والهدايا . لأن هذا الإله يعد وسطا بين الآلهة والإنسان ، وهذه الهدايا والقرابين عبارة عن أنواع من المأكول والمشروبات الشهية مثل : اللبن والزبادى والزبد والقمح والمعز والثيران وما إلى ذلك . ولا يستثنى من هذه المميزات إلا بعض الآلهة التي تتركب على الأحصنة ، وتأكل الأغذية لينة خفيفة مثل بوشان ، لأنه لا يملك الاسنان ، ويملك سلطات واسعة ، وبعضها أقل من ذلك . والبعض الآخر لا يملك إلا سلطات بسيطة . وهذه الآلهة كلها مغرمة بشرب (سوما) .

ومن الجدير بالذكر أن السومريين والأكاديين هم أيضا قد أضفوا على آلهتهم نفس المشاعر الإنسانية وصفاتها . وبهذا يمكن الاعتقاد بأن

الآريين قد تأثروا — أثناء نزوحهم — بهذه انعقائد الوثنية لسكان الشرق الأوسط .

الطقوس

وكانت طقوسهم في هذه الفترة بسيطة جدا . وكان يساعدهم في أداء هذه الطقوس أربعة من الكهنة ، ومن بينهم (البراهما) ، ذلك الذي ارتفع شأنه فيما بعد ، ولم تكن لهم المعابد في هذه الآونة ، ولذلك كانت الطقوس تؤدي في كل بيت وفي كل قرية ، وكان الكهنة — نظرا إلى هذه الظروف — ينتقلون من مكان إلى مكان ، ومن بيت إلى بيت لأداء هذه الطقوس .

كانت المقدمة توضع على النار ، وهي تتكون من الخضروات أو الحيوانات أو شجرة سوما التي كان تعصر ثمارها ، تلك التي تسبب النشوة والسكر . وكان هدف هذه الطقوس كلها هو التقرب إلى الآلهة والبلوغ إلى مكان عال عند الآلهة . ولم تكن تتم الصلوات دون هذه الطقوس والمراسم ؟

تجارب الآريين مع بعض عقائد الشرق الأوسط

وحينما نزع الآريون من بلادهم في حدود عام ١٨٠٠ ق.م ، وصلوا إلى الهند مارين بمنطقة الشرق الأوسط . كان الحثيون يحكمون آسيا الصغرى في هذه الآونة . ومن المعروف أن هؤلاء كانوا فرعاً من الأمة الهندية الأوربية كما قلنا ، ويحكم العراق الأكاديون وهم الساميون . وهو نفس العصر الذي ولد فيه سيدنا إبراهيم في العراق ، ثم نشر رسالته في فلسطين ، ومن هنا لا تستبعد ظنون بعض الباحثين أن الآريين ربما اطلعوا على دعوته ورسالته . ولكن الأمر لم يكن كذلك . لأن المناطق الحضارية في الشرق الأوسط كانت غارقة في النظام الوثني النالوثي إلى الأذقان : وهو أن الملوك — خلفاء الله في الأرض — ، والكهنة ، والحكام — المنفذون لأوامر الملوك . ولذلك

تأثر الآرين ببعض العقائد الوثنية المنتشرة في هذه المناطق. وقد نقلوا من هذه المنطقة قصة طوفان نوح المشوهة إلى بلادهم ، وأضفوا عليها بعض خيالهم وصبغوها بصبغة جديدة .

وتحكى أساطيرهم أن « مانو » الذى كان بطل هذه الأسطورة أول إنسان خلق على وجه هذه الأرض . كما أنه أول من قدم القرابين للآلهة . وقد خلق مانو من نفس الشمس . فلهذا يركب على الحيوانات ويتمحكم فيها . وقد حدث مرة أن « مانو » كان يستحم فى بركة أو شاطئ نهر فلذا بسمكة صغيرة فى يده تطلب منه السماح بتركها للعيش . فأشفق عليها ووضعها فى جرة ورباها حتى كبرت وقويت . وفى اليوم الثانى لم يكن فى الجرة سعة لتعيش فيها السمكة فحملها مانو إلى بركة فضاقت هى الأخرى بحجمها . فطابت منه السمكة أن يرميها فى البحر حيث تعيش فى راحة . وهنا تكهننت له السمكة بمجيء طوفان عارم يغرق البشرية كلها . وأرسلت لمانو سفينة كبرى وأمرته بوضع زوج من كل شىء فى الأرض وكذا بذور الأشجار لإنقاذ كل ذلك من الطوفان .

ولم يكد مانو يستمع إلى نصيحها حتى طغت مياه البحار وصحبها طوفان عارم وأغرق كل شىء . ولم يكن فى الأرض بصيص من النور وأظلمت الدنيا كلها . وحينئذ ظهر الإله فشنوا المتجسد فى السمكة ، وعلى رأسه قرن طويل ، وفيه بروج ذهبية كثيرة فشيد مانو سفينته من قرون فشنو ، واستخدم الثعابين والأفاعى لربطها كالحبال . وبهذا استطاع انقاذ البشرية والحيوانات والنباتات كلها من الهلاك .

وقد دفنت الأرض تحت ماء البحار بسبب الطوفان واسترلت عليها الشياطين فتجسد « فشنو » فى صورة حلوف وحشى عنيد تخطى السماء ودخل فى أغوار المياه ، وهجم على الشياطين وسجنها . ثم شد الأرض بأنيايه وأتى بها إلى مكانها فوق سطح الماء .

الآخرة

لم تظهر بعد عقيدة التناسخ فى الديانة الآرية ، وكذلك لم يدخل الإله فشنو

الذى يتجسد فى الإنسان فى بداية العصر الآرى أو فى عصر الفيدا على أصح تعبير . لأن فشنو كان فى الحقيقة من آلهة الدراودين ، ومن أشد أعداء الآريين . ومن هنا نعتقد أن تجسد فشنو فى السمكة فى قصة الطوفان المذكورة ، شطرها يرجع إلى عصر حضارة نهر الهند ، والشطر الآخر إلى العصر الآرى ، وامتزجت كلتا الأسطورتين ، وتجلتا فى مظهر جديد كما وصفناها آنفاً .

وأما عقيدة الآخرة فى عصر الفيدا فكانت تشبه عقيدة سكان الشرق الأوسط . لأن الأرواح الطيبة — كما جاء فى كتب الفيدا الأولى — كانت تتمتع بالسعادة ، والشريرة تعاني أشد أنواع العذاب . وكانت السعادة هى الجنة حيث كانت الأرواح تنعم بأنواع من المتع وأسباب الراحة والنعيم . وكان هذا النعيم يشبه نعيم الدنيا فى صوره وأنواعه وأشكاله وأمزجته المادية . لأن المأكولات والمشروبات فيها تشبه ما فى الدنيا مثل اللبن والزبد والسمن والعسل وما إلى ذلك . وكذلك يوجد فيها الحب والغناء والموسيقى وشجرة الخلد تلك التى تشبه التين .

وأما العصاة والمجرمون فيدخلون جهنم ، وهى فى الطبقة السفلى الثالثة تحت الأرض حيث يعذب على يدي الإلهين سوما وأندرا اللذين يرميان العصاة فى أعماق جهنم . وهذا المكان الحافل بالآخطار مظلم حالك ، لا تعيش فيه إلا الأرواح الخبيثة والعفاريت .

وهذه الظاهرة تشير بوضوح إلى أن عقيدة التناسخ وهى انتقال الروح من جسد إلى جسد آخر بعد مفارقتها حياة الإنسان — وفق أعمال الإنسان الصالحة والسيئة — لم تظهر بعد فى العقيدة الآرية : وهى متأخرة جداً بالنسبة إلى عقيدتهم .

والشئ الوحيد الذى نجده من أبرز معالم العقيدة الآرية فى هذه الآونة هو إحراق الجثث . فقد وجد هذا التقليد منذ بداية أمرهم فى الهند ، الأمر الذى يدل على أنهم قد اتبعوا هذه التقاليد فى موطنهم الأصلي . لأن الهند فى

حضارة نهر الهند كانت تدفن الأموات على طريقة الساميين في الشرق الأوسط .

ولكن الإحراق في هذه الآونة لم يتخذ طابعاً عاماً عندهم ، بل دفن الموتى كذلك كان متبعاً بين السكان الأصليين .

طبيعة ديانة الفيدا

وبهذا تكون طبيعة الديانة الآرية الأولى — كما يصورها الرج فيدا — بدائية وبسيطة للغاية ، لم يتوغل أهلها قط في أعماق الفلسفة ، ولم يستغرقوا في التأمل والوجدان ، بل عبدوا كل مظاهر الطبيعة ، وركعوا أمامها خاضعين لها . وكذلك لم تظهر الطبقات في هذه الآونة ، وكما أن رجال الدين لم تكن في أيديهم أية سلطة .

كتب الفيدا وقيمتها

إن كتب الفيدا — في الحقيقة — تتضمن انطباعات الآريين وعقائدهم ومشاعرهم وأحاسيسهم منذ نزوحهم إلى الهند . وهي تصور تصويراً صادقاً حياتهم البدائية وعقائدهم البسيطة وآلهتهم الساذجة ومشاعرهم الرقيقة ومخاوفهم الشديدة وبهجتهم المفعمة ، كما أنها تحكى آلهتهم وأدواتهم التي جلبوها من بلادهم مثل الحديد والخيول . وبهذا يعتبر الفيدا تاريخ الفكر الآري منذ عام ١٨٠٠ ق . م ولكن هذا الكتاب لم يدون إلا منذ سنة ١٠٠٠ ق . م ، ولكنه مع ذلك كانت تتناقله السنة الناس من الكهنة وعامة الناس ، وتحفظه صدورهم ، شأنها في ذلك شأن كتب اليهود ، ومن بينها التوراة . ويعتقد الباحثون إن التدوين الفنى لهذا الكتاب قد تم خلال سنة ٦٠٠ ق . م ، حينما ارتفعت البلاد إلى المستوى المدني وقامت الدول المدنية ، وانتهت الحياة البدوية الريفية ونظمها .

وقد ألف الفيدا في الحقيقة كثير من رجال الدين الآريين باللغة السنسكريتية وبالشعر وبهذا لم يكن للفيدا مؤلف واحد كما لا يمكننا تحديد أسماء مؤلفيه . وهذا هو شأن جميع الكتب الآرية التي سيأتى ذكرها فيما بعد .

وأن الفيدا يتضمن - في الحقيقة - عدة كتب ، وأولها : « الرج فيدا » وهو أقدم كتاب ، سجلت فيه جميع عقائد الآريين البدائية . وفيه صور واضحة للآلهة القديمة التي جلبوها من موطنهم الأصلي ، وحددوا فيه وظيفة الإله انديرا كبير آلهتهم . وبالإضافة إلى ذلك نلمس فيه أحاسيسهم وانطباعاتهم حينما انتصروا على عدوهم اللدود وهم الدراوديون . ولذلك تصف بعض أبيات الرج فيدا هذه الظاهرة على الصورة الآتية : إن الإله إنديرا حطم القلاع والحصون وأحالها إلى حطام وأطلال ، وقضى على عدوهم الأسود اللدود .

وكذلك نجد في الرج فيدا اشارات إلى نفور الآريين من تقاليد السود وطقوسهم ، ومحاولتهم القضاء عليها . وهنا يختلف الباحثون . يقول بعضهم : إن الآريين قد أعربوا عن نفورهم الشديد وكرهيتهم البغيضة إزاء ديانة الدراويين وتقاليدهم ، ولذلك حاولوا القضاء عليها قضاء مبرماً . ويرى البعض الآخر أن الآريين لم يكرهوا إلا التقاليد الفاحشة فقط مثل عبادة فروج الذكر والأنثى . وأما الطقوس الأخرى فلم يمسوها بسوء . وفي نفس الوقت اضطر « الرج فيدا » إلى الاعتراف - في بعض أبياته - ببعض النواحي العظيمة في الديانة الدراودية التي توارثوها عن أصحاب حضارة نهر الهند الأصليين البيض . وهي عقيدة كون الملوك خلفاء الأرض والحياة الكهنوتية المنظمة المنسقة الفلسفية على نفس أساس ديانة السومريين :

إن كلمة « الرج » تطلق على الأشعار ، والفيدا على المعرفة . ويقصد بكلمتا الكلمتين « أناشيد المعارف الروحية » . إن هذا الكتاب قد خصصه الكهنة فيما بعد لأداء الطقوس فقط ، ولا للقراءة والفهم ، ولذلك ظلوا يحفظونه عن ظهر قلب ، ويرددون أبياته ويرتلونها في أمور الطقوس والمراسم دون فهم ووعي . ولم تبدأ دراسة هذا الكتاب إلا منذ القرن التاسع عشر الميلادي ، وذلك حينما ولع العلماء الأفرنج بدراسته وترجمته ، لأنه أقدم وأهم كتاب بالنسبة إليهم أيضاً ، إذ أنهم هم الآخرون ينتمون إلى الأصل الهندي الأوربي ، وبهذا يكون هذا الكتاب أول سجل تاريخي وفكري للعنصر الآري كله سواء أكان في الهند أو في إيران أو في أوروبا كلها .

ثم ألف «الآثرفيدا» ، ثم «السامافيدا» ، (والياجورفيدا) . وأخيرا الحقوا إلى هذه المجموعات كلها كتابا آخر كذيل لها وهو (البرهمانان) ، وهو كتاب متأخر جدا .

تفوق طبعة الكهنوت وظهور الطبقات

إن الديانة الآرية البسيطة التي آمنت بأنواع من الآلهة قد ظلت سائدة في البلاد كلها منذ نزوحها حتى نهاية عام ٨٠٠ ق م ، ثم حدث تطور هام ، وهوان طبقة الكهنوت التي ظلت تمارس أعمال الطقوس والمراسيم دون اعتراف بأى تفوق لها على الأجناس الأخرى من الناس ، قد قفزت قفزة مفاجئة إلى القمة والمجد وفرضت نفوذها على الشعب كله ، واجبرته على الاعتراف بتفوقها وامتيازها على جميع الأجناس الأخرى من الآريين . وقد استطاعت هذه الجماعة الكهنوتية التي سميت منذ القدم بالبراهما فرض سيطرتها ونفوذها فصعد نجمها منذ ذلك الحين وأصبحت في قمة الطبقات البشرية في الهند ، وقد حدث ذلك خلال عام ٧٠٠ ق م تقريبا . وقد أدخلت هذه الطبقة المفضلة نظريات ومبادئ جديدة إلى العقيدة والطقوس وهي التي خلقت الاله بإجاباتى المذكور ذلك الذى لم يكن له وجود من قبل . قد وصفته بأنه رئيس الآلهة وخالق الكون ، ذلك الذى قدم نفسه قربانا لبقاء هذا الكون واستمرار الإنسانية . فتقطع جسده من جراء هذا قربان إربا إربا ، وتغلغلت كل قطعة منه في نظام هذا الكون لبقائه واستمراره . ثم ظهر «براهما» إله الآلهة المذكور . وكان ظهوره في الحقيقة عجبا من العجائب لأن بيضة ذهبية قد قسمت وظهر منها (براهما) وفي نفس الوقت تكون من الشطر الأعلى للبيضة السماء ومن الشطر الأسفل الأرض . وبراهما هو الذى خلق الإنسان والكائنات كلها مثل الشمس والقمر والنجوم والبحار والجبال . وقد سجلوا هذه المبادئ الجديدة وأسماها كلها في كتاب سموه (البراهمانان) ، ذلك الذى الحقوه مؤخرا إلى أصل كتب الفيدا كما قلنا .

وذلك خلال عام ٧٠٠ ق م تقريباً .

لقد اخترعت هذه الطبقة المفضلة طقموسا ومراسيم كثيرة ، بعضها كانت تستمر أسبوعاً كاملاً وبعضها شهوراً وبعضها سنة كاملة مثل قرابين الخيول التي كانت تستمر طوال العام . وبهذا جعلت الناس يتقربون إليها زلفى ويحتاجون إليها في كل الشئون ويضطرون إلى طلب عونها ومساعدتها في كل الأعمال سواء أكانت في الطقموس أو الزواج أو الموت وما إلى ذلك . وبهذا إنكمشت حريات الناس واتسع سلطان الطبقة الكهنوتية .

وحينما لاح تحول الحياة البدوية والنظام القروى البسيط إلى طور مدنى ، وظهور مدن صغيرة على ضفاف نهري الجنجا والحمنا كان من الطبيعي ظهور دول اقطاعية كثيرة ، يحكمها الاقطاعيون الآريون . ومن ثم تحول الآريون - رعاة الغنم والخيول - إلى الحياة المدنية الأولى ، وسارعوا إلى ممارسة كثير من الأعمال الزراعية والصناعية في البلاد ، تلك التي كان يشغلها السكان الأصليون حتى الآن . وفي مثل هذا التحول الكبير في الحياة الآرية واجه الكهنة ظروفًا جديدة ومطالب عصرية تتطلب المحافظة على التفوق الجنسى الآرى المتغلب الحاكم ، ووظيفة الكهنة المستقلة المستبدة الطاغية على جميع الطبقات والعناصر . ولذلك قسموا سكان البلاد إلى جماعات وفق الوظائف والمهن ، وأعطوا الأولوية للجنس الآرى الأبيض ، وقرروا المكانة السفلى للسكان الأصليين السود . فقد خصصوا الآريين الوظائف السامية تلك التي أصبحت من سماتهم البارزة فيما بعد وخصائصهم الجنسية ، وأعطتهم الدرجات في المجتمع الآرى وفق الترتيب الآتى : البراهمة ، وهم رجال الدين والكهنة ومهمتهم إدارة شئون المعابد والآلهة وسن القوانين والإشراف على التعليم والتربية وأداء جميع المراسيم الدينية وطقوسها في المعابد وفي خارجها . وأصبح هؤلاء فوق جميع الطبقات والمختصين بآله الآلهة وهو (براهما) ، ثم صنعوا اسطورة تثبت تفوقهم على جميع الأجناس ، زاعمين أنهم

ولدوا من رأس « براهما » . (٢) كشاترى ، وهم الفرسان وقواد الجيش والأشراف . (٣) فايساس : هم التجار والمزارعون وأصحاب المهن : (٤) سودار : وهم المنبوذون ، أصحاب المهن الحقيرة . مثل : الكنس والنظافة ، وغسل الملابس ، وتنظيف الجلود ، لأهم من الجنس الدراويدى الأسود .

وقد سنت الشريعة الهندوكية المتمثلة فى كتاب « قوانين مانو » الذى ألف فى عام ٢٠٠ ق . م قوانين ثابتة لهذه الطبقات ووظائفها وأعمالها ، بحيث أصبح من المستحيل الحيدة والتنصل عن هذه القوانين والواجب .

ووفق هذه القوانين والواجب فرض على كل طائفة أن تعيش فى إطار جماعتها وتكون مجتمعاً منفصلاً فيما بينها ، بحيث يتم الزواج والتناسل والحفلات فى نفس الإطار الطبقي . وقد طبقت هذه القوانين حرفياً وبخلافها بحيث لم يكن فى مقدور أحد أن يأكل أو يشرب لدى طائفة أخرى ، وكذلك نخصص لكل منها طقوس ومراسم وتقاليد ومدارس ومعابد . ومما لاشك فيه أنه حدثت فى بعض الأحيان مخالفات فى تطبيق هذه القوانين ، ولا سيما فى الطبقات الثلاث الأولى ، ولكنها لاتعد ولا تحسب بسبب ندرتها . وقد دعت الظروف فى بعض الأحيان إلى أن تخرج الطبقتان الثانية والثالثة عن الإطار المفروض لها ، وتتزوج وتتناسل فيما بينها وتشرب وتاكل وتتبادل الوظائف والمهن ، ولكنها قليلة للغاية ، ولا تدخل فى إطار قانون عام .

وإذا كان هذا النظام طبقياً بالنسبة إلى الجماعات الثلاث الأولى ، فإنه كان عنصرياً بغيضاً بالنسبة إلى الطبقة الرابعة — طبقة المنبوذين — التى حرمت من جميع أنواع السعادة والنعيم والحرية فى الحياة ، وخصصت لها وظائف حقيرة دنيئة بحيث لا يمكنها تجاوزها إلى الأبد .

ثم اخترع الكهنة لاستحكام هذه القوانين الصارمة الظالمة وتخصيتها وتثبيتها وترسيخها عقيدة تسمى « التناسخ » تلك التى تقنع هذه الجماعات .

كلها بأن هذه الطبقات ظهرت من جراء أعمالهم في الحياة الأولى ، ونتيجة لها ، كما سندكر مبادئ عقيدة التناسخ قريبا ان شاء الله . وقد جاء في كتاب « قوانين مانو » المذكورة آنفا أن هذه الطبقات الأربعة كلها خرجت من جسد براهيم — إله الآلهة وخالق الكون — ، بعضها من رأسه مثل البراهمة — الطبقة العليا المفضلة — ، وبعضها من أعضاء أخرى ، وخرج المنبوذون من رجله ، ولذلك اتسموا بالدناءة والحقارة والذلة والمسكينة . ونتيجة لكل هذه الأمور انتشر بين الهندوس — على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم — الزواج منذ الطفولة نظرا إلى أن الزوجين لا يمكنهما تجاوز حدود طبقتهم على أية حال ، وأن هذا مقدور من الله منذ الأزل نتيجة لأعمالهم في الحياة الأولى .

ومع أن هذا النظام الطبقي العنصري الذي صنعه الكهنة كان لعلو شأنهم وتوكيد سيطرتهم ونفوذهم وتحقيق مآربهم الشخصية ، إلا أن جميع الطبقات الآرية قد اقتنعت به في بداية الأمر ، وعلى مدار الزمن — باستثناء بعض الحالات الشاذة — وذلك لأن هذه النظرية مهما كانت فيها أضرار إنسانية واجتماعية ونفسية ، فإنها تضمن لهؤلاء الآريين بالذات منافع مادية كثيرة ومصالح عنصرية عديدة : كما تحقق لهم شهوة البقاء على السيطرة والنفوذ في اقتصاد البلاد ، لأنهم هم الذين كانوا مسيطرين على مقادير البلاد ، وهم الذين كانوا يزاولون شئون التجارة والزراعة والصناعة . وأما المنبوذون فلم يكن لهم نصيب في خيرات البلاد ومواردها ومجالاتها بل وظيفتهم لا تعدو أن تكون خدمة للجنس الآري . وكذلك فرضت على هؤلاء ضرائب عنصرية يدفعها كل فرد منهم إلى الحكام الآريين بمجرد كونهم من الرعايا المحكومين المنبوذين من المجتمع الآري . في حين أعفيت من هذه الضرائب جميع الفئات الآرية .

ولكن الكهنة أو البراهمة — على الرغم من اعتقادهم بأنهم فوق جميع انبهرية — لم يعترف بسلطاتهم كثير من الآريين من الطبقة الثانية والثالثة ،

بل هؤلاء الناس وهم من الطبقة الثانية والثالثة هم الذين تولوا مقاليد الأمور في البلاد ، ومنهم كان جميع القواد والعساكر والحكام ، ولذلك انحصرت وظائف البراهمة في الطقوس والمراسيم والمعابد فقط . ومن ناحية أخرى فإن هناك إشارات في التاريخ الآري لهذه الفترة إلى أن بعض الآريين لم يؤمنوا بتحديد الوظائف ، ولذلك انتقلوا من وظيفة إلى وظيفة أخرى وتبعاً لذلك انتقلوا من طائفة إلى طائفة ، عدا المنبوذين الذين لم يكن لهم حول ولا قوة .

عقيدتا كارما والتناسخ وصلتهما بالنظام الطبقي

إن تغلغل الإنسان في الوجود الحي الحقيقي جسداً وروحاً — وفق نظرية وحدة الوجود — هو الهدف المنشود . ولكن هذا الأمر ليس بميسور . بل يحتاج إلى جهود ومحاولات عديدة . وينبغي للإنسان قبل الوصول إلى هذه الغاية أن يقطع مراحل عديدة وينتقل من طور إلى طور ، ومن جسد إلى جسد ، وهذا ما يسمى بالتناسخ . إن الروح إذا حبست في جسد واحد إلى أمد بعيد تشعر بالملل والإرهاق ، وتحاول التحرر والانفصال لتنتقل في آفاق فسيحة رحبة . وذلك لكي تدخل في جسد آخر وتولد من جديد . ولكن هذه الحياة الجديدة إما أن تكون سعيدة أو شقية ، وذلك وفق أعمالها في الحياة السابقة . إذا كانت الأعمال حسنة في الحياة الأولى سوف تسعد في الحياة الثانية ، وإذا كانت سيئة ، سوف تشقى . وبهذا تكون الحياة الثانية ثمراً للحياة الأولى ، ونتيجة لأعمالها . وهذه الأعمال ومجازاتها بالخير والشر تسمى في الهندوكية « كارما » (Karma) وهذه العملية — أي انتقال الروح من جسد إلى جسد على أساس كارما — تتكرر ويستمر تكرارها حتى ينتهي هذا الدوران يوماً من الأيام . إن كل حركة أو عمل أو كلام أو خاطرة لا يذهب سدى ، بل يسجل ويحفظ ، وترتب النتائج عليه في المستقبل . إن كل سرور وبهجة وحزن وألم في الحياة الراهنة يكون نتيجة الأعمال السابقة ، ثم تجني الثمار في المستقبل وفق الأعمال في الحياة

الحالية . إن الإنسان لا يجنى الثمار في الحياة القادمة إلا وفق البذور التي بذرها في الحياة الراهنة ، ولا يمكن أبداً أن يزرع الإنسان القمح ويحصد الأرز .
وحيثما يولد من جديد لا مانع من أن يتحول إلى إنسان عظيم ؛ أو خادماً أو كلب أو منبوذ .

ثم شرح كتاب « مانو سمرتي » المذكور الذي بدىء تأليفه منذ القرن الثامن قبل الميلاد نظرية التناسخ بصورة علمية على الوجه التالي :
« ترتب النتائج والثمار على الحركات والأعمال التي تصدر من الإنسان . ولا تذهب أية حركة عبثاً ، ولا يذهب أى عمل سدى . وهى كلها على ثلاثة أنواع : الأعلى والأوسط والأسفل .

إن العقل لا يكون بعيداً عن كل الحركات والأعمال التي تصدر من الجسم وأعضائه ، بل هو العامل الحقيقى ، وهو الذى يحمل على الإنيان بها . إن الشهوة فى ممتلكات الناس وثرواتهم ، والتفكير بسوء فى حق أحد وحمل الناس على الأعمال السيئة هذه كلها من أسوأ الأعمال وأخطرها وهى التي يرتكبها العقل وكذلك تعتبر الشتم والكذب وإنكار حقوق الناس وإحباط قيمة أعمالهم وجهودهم والخط من شأنها ، وغض النظر عنها ، وحياة الكسل والبطالة من الأعمال الدنيئة التي تقرفها النفس الدنيئة والقلب الأسود . وأما تعذيب مخلوقات الله بدون حق ، واغتصاب أموال الناس والتمتع من زوجات الآخرين فهى مما يرتكبه الجسم وأعضاؤه .

ونتيجة لهذه السيئات التي ترتكبها الأعضاء الثلاثة فى الإنسان يترتب مصير الإنسان فى الحياة المقبلة . إن السيئات الذهنية والعقلية الأولى مجازاتها أن يولد مذنبوها فى أسرة المنبوذين فى الحياة القادمة ، وإن الذنوب النفسية والقلبية جزاؤها أن يولد مرتكبوها طيوراً وحيوانات وبهايم . والذنوب الجسمانية فجزاؤها أن يولد مقرفوها جماداً لا حياة فيه مطلقاً ، ولن يموت أبداً .

ومن الجدير بالملاحظة ان الجزء العقلى الأول قد وضعه الكهنة بدقة وبراعة ومهارة فائقة. وتفكير عميق ، حتى لا يحسد المنبوذون فى الكهنة والطبقات العليا من الآريين ولا يحقدون عليهم ، ولا يحاولون حتى مجرد التفكير فى النيل منهم والثورة عليهم ، بل يقتنعون بالوضع الراهن وأنه حدث من جراء أعمالهم العقلية والذهنية الفاسدة فى الحياة السابقة ويحاولون الآن تدارك الأخطاء السابقة والذنوب المرتكبة ضد الآريين التسابق فى خدمة هذه الطبقات المفضلة عليهم ومناصرتها وطاعتها لكي يصبحوا أمثالهم فى الحياة المقبلة .

فلسفة نفى الذات أو الطول أو وحدة الوجود من خلال كتاب اليوبانيشار

ان ظهور الاله براهما بالطريقة المذكورة وسلطاته العليا مهد السبيل لظهور نظرية وحدة الوجود فى الفكر الآرى ، وذلك لأول مرة فى التاريخ الإنسانى . ووفق نظرية وحدة الوجود فان الإنسان والحيوانات والكائنات كلها-أجزاء أو شظايا لبراهما ، ذلك الذى يخلقهم جميعا . وبهذا يكون براهما والكائنات كلاهما شىء واحد ووجود واحد وان يتصور وجود الإنسان والكائنات خارج وجود براهما . وبهذا يكون هو سيد الكون وفق هذه النظرية ، ثم أن الله سبحانه يكون واحدا إذا تصورنا وجوده منفردا ، ويكون مركبا من أجزاء إذا أضفنا إليه الإنسان والمخلوقات والكائنات كلها .

وهذه النظرية قد اتخذت أعظم المظاهر العقائدية فى الفكر الآرى خلال عام ٦٠٠ ق . م تقريبا ، وسجلت فى كتاب شهيرسمى « اليوبانيشار » .

اصحاب نظرية وحدة الوجود

إن المفكرين والرهبان قد اتخذوا الجبال والغابات مسكنا لهم وانشؤا فيها ديارهم ليعيشون فيها بعيدين عن زخارف الدنيا وضوضائها . وهنا كرسوا

كل الجهود في التأمل في الله بعد أن تركوا الوثنية وملوا وتعبوا وضاقوا ذرعاً بكثرة الآلهة ، وذلك ليتوصلوا إلى المعرفة الحقيقية ويستطيعوا من خلالها فهم الله وعلاقته بالكون والإنسان ، وهدف الإنسان ومهمته في هذا العالم ، وواجبه نحو الله سبحانه . وهذه التجارب كلها من خلال التأمل والتفكير والجهاد النفسى قد أدت إلى ظهور التصوف في مظهر وحدة الوجود في الفكر الآرى :

ويعتقد الباحثون أن هذا التطور الجديد في العقيدة الهندوكية كان من جراء ردود فعل عنيفة ضد الوثنية الغارقة من جهة ، وضد سطوة الكهنة وقرابينهم وطقوسهم ومراسيمهم الفاشية من جهة أخرى . ومن أجل ذلك قاد هذه الحركة صفوة من المفكرين والرهبان الآريين الذين لم ينتموا إلى العوام ولا إلى الكهنة ، بل هجروا العالم كله ، واتخذوا الغابات والجبال ، مكان التأمل والاستغراق للوصول إلى هذه الغاية المنشودة ، ثم شيدوا فيها أديارهم ليستقر بها المقام إلى الأبد .

وهؤلاء الرهبان هم الذين سجلوا انطباعاتهم وتجاربهم الصوفية في سجل سموه « اليوبانيشاد » ، ومعناه « الجلوس في صحبة الأساندة » . ويقصدون بذلك أن هذه المجموعة هي عبارة عن تجارب روحية تجمعت من خلال اجتماع الطلاب الروحانيين مع اساتذتهم المتصوفين القديسين .

الكهنة ووحدة الوجود

ولما نالت التجربة الصوفية صدى كبيراً بين الناس ، لم يرض الكهنة أن يعيشوا بعيدين عنها ويرفعوا أعلام المعارضة ضدها خشية تحطيم نفوذهم . بل حاولوا التماس العون من الرهبان وأصحاب الأديرة في الغابات ليعيشوا بفيض معارفهم الإلهية . فاجابوا معهم ، وآمنوا بمبادئهم واسسهم ، ثم أدخلوها في العقيدة الآرية ، وصبغوها بصبغة جديدة تطابق روح التطور في المجتمع الآرى من جراء حركة وحدة الوجود ، وأغراضهم الشخصية في صيانة المعابد والحفاظ على الطقوس والمراسيم تلك التي تدر عليهم مكاسب هائلة ومنافع جمة ، ثم تحقيق

أهدافهم في فرض سيطرتهم على الناس من جديد في أسلوب جديد ومظهر أنيق بهيج خادع . فأعلنوا في معابدهم أمام الجماهير أن هذه التجربة الصوفية صحيحة : ولا تمارض الوثنية ، ولا تنكر براهما وجبروته ، بل هذه التجارب بدورها تلتهم من الكهنة والمعابد ، لأن بعض أنواع الطقوس والقرايين مثل قربان الخيول تساعد على الوصول إلى وحدة الوجود في أسرع وقت وأسهل طريق . وبهذا مزجوا العقيدة الصوفية الصافية النزمية بالقرايين والمراسيم والمعابد بالوثنية الطاغية التي تستبد بعقول الناس وتسخرهم لأغراضها .

وقد سجلوا هذه العميدة الجديدة في كتاب « الشاندو يوجا يوبانيدد » والحقوها بأصل اليوبانيشاد ، كما فعلوا من قبل حينما ألحقوا كتاب « البراهمانان » إلى أصل كتب الفيدا .

اليوجا

إن اليوجا في الحقيقة تجربة عملية لتهديب النفس وتدريب جسماني لتصل الروح إلى النسمو والارتفاع بعد التخلص من القيود الجسمانية وأثقالها ومناعها . وهي توجه عناية كبيرة إلى كل من العقل والجسم ، وتمر بأقصى مراحل التدريب العقلي والجسماني ، وذلك — بالإضافة إلى تنمية الروح والجسد وتوفير أسباب الصحة والحيوية لهما — في هدف التحرر من جميع القيود التي تربط الإنسان وتسمجه عن رؤية الحقيقة العليا أو « براهما » . وهذه التجربة لا تؤمن أساساً بالعلم والمعرفة ، ولا تركز الجهود للحصول على نصيب منهما ، بل بكل عنايتها حمل الناس على ممارسة تدريبات ورياضات مخصوصة لها ، وضعت في مدارج ومستويات . ولم يتقيد اليوجا بأنواع محددة من التدريبات والتمرينات ، بل فتحت المجال لكل جديد يساعد على عمليتها ، ويسهل الطريق لبلوغ الهدف الأساسي . ومن هنا آمنت اليوجا بكثير من التجارب التي تضغط النفس ، وتقتل الطموح وتمنع الشهوات وتقضي عايتها .

وقد ذكر كتاب « مانو — سمرتي » عقيدة اليوجا ، ذلك الكتاب الذي ظهر خلال القرن الثامن قبل الميلاد في باب خصص لقوانين انكار الذات

والتدريب عليها عمليا . ووفق ما جاء في هذا الكتاب تنقسم حياة الإنسان إلى أربع مراحل : المرحلة الأولى الطفولة والثانية الشباب ، والثالثة الكهولة ، والرابعة الشيخوخة . يدعوا الكتاب الراغبين في الیوجا إلى ممارسة تجربة نفى الذات في المرحلة الثالثة من الحياة ، حينما ينتهى الإنسان من أداء معظم واجباته الشخصية . وهو ينتهى قطعا في هذه المرحلة من الزواج وإنجاب الأطفال ، وأداء الطقوس والقرايين والواجبات الدينية والدكاة والصدقات كلها . وهنا يحتاج إلى التمسك والتبتل لنيل خلود الآخرة ونعيمها بعد مفارقة الروح الجسد . وهذا الأمر ليس بسهل ، بل يحتاج من يسلك طريقه إلى ممارسة تجارب روحية شاقة وتدريبات جسمانية صعبة ، وينبغي له أن يغادر بيته وأهله وكل شيء يملكه متوجها إلى غاية ، هائما على وجهه في وسط أدغالها وبين وحوشها ملتصقا ظلا يلتقط تحته أنفاسه ، ويعيش معتكفا ومتعاملا ومستغرقا ، يعاني جميع أنواع التعب والمشقة لتنقية الروح وتحريرها من القيود الجسمانية ومعوقاتها في الوصول إلى الهدف المنشود . وهنا لن تكون له خيمة تظله ولا نار تعد الطعام له ، ولا معينا يعينه بل يكون وحيدا فريدا ، بعيدا عن كل الشهوات واللذات ونعيم الدنيا وزخارفها . وإذا ضايقه الجوع يقوم ويتجه إلى أقرب قرية ليلتمس الطعام ويشبع به بطنه . ولا ينبغي له أبدا أثناء هذه التجارب أن يتمنى الموت أو يشتهي الحياة ، بل يتوقف وينتظر بلوغ الهدف ، شأنه في ذلك شأن كل موظف ينتظر مرتبه عند نهاية الشهر . إنه لن يخطو خطوة على بساط الأرض إلا على نور وضياء ، ولا يشرب قطرة من الماء إلا بعد تصفيتها بغربال من القماش الغليظ ، ولا ينطق بكلمة إلا أن تكون مصفاة . ونقية ، ونابعة من أعماق القلب ، وسيكون قلبه نزيها طاهرا صافيا دائما . ويمارس هنا تعاليم الیوجا التي تطهر القلوب وتذكي النفوس ويجلس ويتأمل ويستغرق في التفكير على طريقة الیوجا ، ولا يجلس إلى جانبه أحد

يساعده ويعينه في شئونه ، ويمتنع عن جميع الشهوات واللذات كلبية ، ولا يكون همه ورغبته إلا التحرير من القيود الجسمانية للوصول إلى البغية والمعرفة الحقيقية .

ومن الجدير بالذكر أن تجارب اليوجا لم يزل يمارسها الرهبان والنسك في الغابات والجبال على نفس الطريقة للوصول إلى نفس الغاية . ولكن أوربا قد أعجبت بها في القرن العشرين وبدأت تمارس الحياة البوذية من الناحية الصحية والرياضية فقط بعد تجريدها من النواحي الروحية ، تلك التي من أجلها ظهرت اليوجا على مسرح الوجود خلال عام ٨٠٠ ق.م تقريبا . ونجد الآن في أوربا وفي كثير من بلدان آسيا وأفريقيا تأليف الكتب في اليوجا ، ويتشوق إليها الناس ، ويميلون إليها ميلا شديدا ، وكل ذلك كرياضة جسمانية فحسب .

التقمص أو التجسد

إن جميع التطورات والتجديدات التي حدثت في الديانة الآرية منذ عام ٨٠٠ ق.م إلى عام ٤٠٠ ق.م ، كان روادها المفكرون الآريون ، وهم كانوا أصحاب الفكر والتجديد في كل عصر . ولكن طبيعة الظروف وتقدم الحضارة في شتى المجالات ساعدت الدراويدين على تطور ثقافتهم وتنمية أفكارهم ، وإشعال مواهبهم ونبوغهم . ومن جراء ذلك ظهرت عقيدة التقمص أو التجسد عندهم لأول مرة في التاريخ ، وهي عبارة عن تجسد رب العالمين في جسد إنسان ، ويتجلى فيه لهداية البشرية . وهي تسمى بالسنسكريتية واللغات الهندية «أوتار» .

قد اتفق جميع الباحثين أنها ليست آرية بالمرة ولا توجد بوادرها في أي كتاب من من الكتب الآرية المشهورة التي ألقت حتى هذه الآونة . ولذلك اعتقد الباحثون أنها إيرانية انتقلت إلى الهند . ولكن هذا الرأي لا يستند على دليل ، بل يبدو خاطئا ، لأن هذه النظرية لم تظهر في الزرادشتية الإيرانية إلا في القرون الميلادية الأولى ، وبهذا تكون قد انتقلت إليها من الهند .

واننا نرى أنها عقيدة دراويدية بحثة لأسباب عديدة :

أولاً : أن الإله قشنو ، هو الذى يتجسد فى الشخصيات الأسطورية . وهو كان سيد الآلهة ورب العالمين عند الدراوديين منذ القدم . وكان موجوداً حتى فى حضارة نهر الهند كما ذكرنا من قبل ، ولذلك اتسم باللون الأسود : ومن المعروف أن « براهما » كان سيد الآلهة ورب العالمين عند الآريين منذ ارتفاع سيطرة الكهنة خلال عام ٨٠٠ ق . م ، ولم يكن عندهم أى اعتبار للإله قشنو . وإذا نال قشنو مكانة براهما فجأة ، فمنعناه أنه تطور مفاجئ طرأ لدى الدراوديين فى هذه الآونة كرد فعل لتسلط الآريين وأصبح قشنو متحدياً لبراهما وسلطانه وسيطرته ، لأن براهما هو الذى حط من شأن الدراوديين ووضعهم فى قائمة أسفل السافلين من بنى آدم . وثانياً : أنه قد تجسد فى بداية الأمر فى الشخصيات الدراودية مثل « فاسوديو » - البطل الأسطورى الدراويدي - ، والإله نارايانا ، الإله العام الذى يجلس على رأس الأفعى . ثم تجسد فى ملحمة الراما يانا فى « راما » - بطل الملحمة - . وفى ملحمة « المهاهارانا » فى كرشنا . ومن المعروف أن كلا من راما وكرشنا كانا من ملوك شمال الهند أصلاً وشخصياتهما البارزة كما تصورهما الملحمتان ، إلا أنهما يعرضان فى نفس الوقت باللون الأسود ، الأمر الذى يجعلنا نشك فى أصلهما ، أو أن نعتقد على الأقل أن أصلهما يرجع إلى امتزاج العنصرين الآرى والدراويدي ، كما تم هذا الامتزاج - بعد تخفيف حدة الخلافات - بين الآلهة مثل سيفا وكالى وقشنو كما قلنا .

وثالثاً : أن حركة بهاكتى التى ظهرت فى الدراوديين كرد فعل ضد الديانة الآرية الكهنوتية قد اتخذت « كرشنا » المتجسد فيه قشنو ، إله الآلهة والذى يلتمس منه العون والعطف والحب . وهذه الظاهرة هى الأخرى تشير إلى أن التجسد عقيدة دراودية صميمية .

وفى بداية الأمر قد تجسد قشنو فى كثير من الشخصيات الأسطورية

المذكورة ، وكذلك تجسد في كثير من الحيوانات مثل السمك والتمساح والخنزير والأسد والقزم . وذلك كله لمساعدة الناس بشتى الطرق والوسائل أثناء محنتهم وآلامهم لإنقاذهم من ويلاتها . وكذلك تجسد فشنو في بوذا في القرون التالية . وبهذا كثر تجسده في الأشياء المذكورة ، ولكن هذه الكثرة قد اتحدت فيما بعد في واحد ، وأصبح كل من رامنا وكرشنا ونارايانا إلها واحداً . ثم أصبح فشنو في النهاية مرادفا للإله الرئيسي وهو الله .

أن عقيدة التجسد الدراويدية نالت شهرة كبيرة في الهند ، وغطت شهرتها بجميع العقائد والاتجاهات ، حتى اضطرت الكهنوتية الآرية إلى الاعتراف بها والتجاوب معها . ومنذ ذلك الحين احتل فشنو مكان الصدارة لدى الآريين وحل محل براهما ، كما أصبح كل من رامنا وكرشنا إلهين عظيمين تجسد فيهما فشنو . وهذه النظرية هي التي كتب لها النصر والخلود والبقاء والاستمرار في الديانة الهندوكية التي تشكلت فيما بعد ، وهي سارية المفعول حتى الآن .

ومن الجدير بالذكر أن اليونان حينما اتصلت بالهند عقب غزوات الاسكندر على الهند ، وتوطدت العلاقات بين الهند واليونان في شتى المجالات أخذت فكرة التجسد السائدة في الهند آنذاك وأدخلتها في عقيدتها . فانتقل الإله فشنو عندها لينال نفس التقدير والإعجاب وكذلك أصبح الإله هليودوروس (Heliodorus) رمز التجسد ، كما انتقلت كذلك هذه النظرية إلى إيران بعد زرادشت .

ومن الجدير بالملاحظة أن عقيدة التجسد ليست بدعا أو مبتكرة بل هي نفس العقيدة الوثنية التي أخذت هذا المظهر الجديد لدى الدراوديين في هذه القرون . لأن الوثنيين في كل عصر وزمان قد منحوا لكل صفة من صفات الله صورة إنسانية ، وأضافوا عليها صفات إنسانية وهذه هي الآلهة . إن قدرة الله ورحمته وجبروته قد تجسدت في صورة إله في كل أمة من الأمم ،

مثل « البعل » عند الساميين ، وإن درا عند الآريين الهنود ، وجوبيتر عند اليونانيين . وقد عرضوا هذه الآلهة في صورة الإنسان وسيرته ؛ ولكن الدراوديين حينما أعجبوا ببعض الشخصيات الأسطورية الفذة أضغوا عليها صفات الألوهية ، واعتقدوا أن إلههم الأعظم « فشنو » تجسد فيها لمساعدتهم وشد أزهم وإنقاذهم من كل شر . وهذه الشخصيات كراما وكرشنا .

وأخيراً انتقلت هذه النظرية إلى الرومان من اليونانيين والهنود على السواء ، فهم بدورهم عرضوا السيد المسيح مجسداً فيه الله سبحانه ومتغلغلا فيه . وكذلك تلقت بعض الفرق الإسلامية هذه النظرية بقبول حسن وعرضت أبطالها في صورة التجسد مثل القرامطة والإسماعيلية في القديم ، والبهائية والقاديانية في الحديث :

ومن ناحية أخرى فإن سيطرة الجن والنفاريت على الإنسان وتغلغلها فيه وتعذيبهما إياه أو إخضاعه ليتحدثا على لسانه ماشاءوا من الكلام كانت عقيدة شائعة في كل عصر وزمان . واطرد الشياطين والجن الفت التمام والتعاويد والكلمات السحرية في أرض الرافدين في حضارة بابل والهند الآرية على السواء . وهذه العقيدة هي الأخرى مهدت السبيل لظهور نظرية التجسد ، لأن الشياطين إذا استطاعوا السيطرة على الأشرار من الناس ، فإن الآلهة أقدر منهم على التجسد في الناس الطيبين . ومن أجل ذلك نرى في ملحمة الرامايانا أن فشنو يتجسد في رام - بطل الأسطورة - على حين يتجسد الشيطان « حران باكسيو » في راون عدوه اللدود ملك سيلان .

اثبات الذات أو الفلسفة الايجابية من خلال كتاب الجيتا

إن كرشنا الذي ولد بعد ظهور الفلسفات السلبية في التاريخ الهندوكي ولا سيما اليوجية ووحدة الوجود : قد ثار عليها ، ووجه إليها نقداً لاذعاً ودعا الناس إلى العمل الإيجابي والجهود المتفانية في الحياة .

وذلك لأن نظام هذا الكون مبني على العمل ، وبدون العمل لا يكون هناك نظام ولا كون ، وبتعبير آخر فإن الكسل والثقل والسكون والجمود والبطالة نهايتها المحتومة هي الموت ، ولذلك حرض الناس على العمل الجاد ، وعارض الكسل كل المعارضة :

وفي نفس الوقت عارض الرغبات والأمانى والشهوات ، ومعنى ذلك أنه حث على العمل لخدمة البشرية لا لتحقيق الأنانية والشهوات الفردية . وهذا هو السبب في أن كرشنا لا ينظر إلى الثمار والنتائج الراجعة في الأعمال والجهود ، بل يدعو لمجرد الأعمال والجهود ، سواء أكان مصيرها النجاح أو الفشل . فالإنسان الذي يعمل من أجل النجاح وتحقيق أمانيه ، فإنه إذا فشل في مهمته يتناوبه اليأس والحزن والألم ، وأما الرجل الذي يعمل ملبياً نداء الجيتا من أجل فلاح البشرية فإنه لا ييأس ولا يحزن ، ولو باءت جهوده بالفشل الذريع .

الجيتا

ومعنى « البهاجاوات جيتا » باللغة السنسكريتية « أنشودة إلهية » ، وهي تتضمن الحوار الديني والفلسفي الطويل الذي دار بين كرشنا — ذلك الذي تجسد فيه قُشنو ، وارجن — قريبه وبطل ملحمة المهابهاراتا — ، وهذا الكتاب في الحقيقة يشكل جزءاً من ملحمة « المهابهاراتا » (أى من باب ٢٥ إلى ٤٢) .

ويتناول هذا الكتاب جانباً حيويًا من الفكر الهندوكي ، وينقد جميع التناقضات الواردة في الفكر الهندوكي من قبل مثل الوثنية المغرقة والطقوس والمراسم الفماشية في كتب الفيدا ، ونظرية وحدة الوجود السلبية المعروضة في كتاب اليوبا نيشاد وجوانب ضارة أخرى في الفكر الهندوكي .

الانحداد

ومن بين كثير من الاتجاهات والنزعات التي ظهرت بين الآريين منذ عام ٨٠٠ ق . م يحتل الإلحاد أو إنكار وجود الله سبحانه أهم نظرية تجلت

لأول مرة في « الرامايانا » - أشهر ملحمة آرية - تلك التي ظهرت إلى الوجود خلال القرن العاشر قبل الميلاد ، وظلت تتناقلها ألسنة الناس كملحمة مقدسة ، تضيف إليها ، وتنقحها ، حتى تم تدوينها خلال القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد . وقد جاء في هذه الملحمة أن (راما) - بطل الملحمة - لما اتخذ طريقه إلى الغابة - كما سذكر قصته فيما بعد - التقى به راهب من نوع جديد وهو « جاڤالي » (Javali) ، ذلك الذي نصبح راما بعدم مغادرة بلاده ، وحمله على العودة من الغابة ، لأنه ترك عرشه وأهله وبلاده ، وكل زخارف الحياة ، والنعيم والبهجة والسرور المتوافرة له في عرشه ، وهذا أمر لا يعقل . لأن المبادئ التي ترك من أجلها العيش ، كلها خيال وأوهام ليس فيها شيء من الصحة . لأن هذه الحياة لن تعود أبداً ، وإن الميت لن يبعث حيا مرة أخرى بأي شكل كان ، ولن تنتقل روحه من جسد إلى جسد ، بل الإنسان إذا مات انتهى كل شيء ، وليست هناك عودة ولا رجوع ولا تناسخ ولا تنقل ، ولا عذاب ولا ثواب . إن المراسيم والقرايين والتقدمة التي يقدمها الإنسان بين يدي الآلهة ، لا فائدة منها على الإطلاق ، وكذلك كل ما يقدم لإيصال الثواب إلى الموتي من التقدمة والقرايين لن تؤثر في الموتي ، لأن جسده بعد إحراقه بالنار قد تناثر وتغلغل في التراب . بل الكهنة هم الذين اخترعوا هذه المراسيم والطقوس لتحقيق مآربهم الشخصية ، وليس فيها شيء من الصحة والحقيقة . وكل هذه الطقوس قد وضع الكهنة أسسها ومبادئها ليضحكوا على عقول البسطاء والسذج من الناس ، ويستولوا على مافي جيوبهم من المال ، وينزفوا ثرواتهم ، ويبنوا بها مجدهم ، ويفرضوا نفوذهم وسيطرتهم على الناس لاستمرار سلبهم ونهبهم . إن إنكار الذات والرياضات اليوجية من أجل تنقية الروح من الاوثان وتنزيهاها للوصول إلى الله والالتقاء به والتغلغل فيه نهائيا كلها أوهام وخيال .

وقد جاهد راما - بطل الأسطورة - وكافح وناضل من أجل القضاء على هذه النزعة الإلحادية ، ولذلك أبطل مزاعم هذا الراهب الملحد بأعماله وجهوده وتضحياته ومثله العليا .

وبالإضافة إلى الإشارات المذكورة في الرامايانا ، فإنه يبدو لنا أن هذه النظرية قد اتخذت جانب الشيوع والانتشار بين الناس في العصر الحضاري المتقدم منذ عام ٦٠٠ ق.م ، لأن الحياة خلال هذه الفترة قد تحولت إلى المدنية وطلب السعادة والنعيم . ولعل هذه الطائفة الملحدة هي التي كانت تملك مقاليد الأمور في البلاد ، وتحمل الناس على الإيمان بوجودهم فقط ، وإنكار كل شيء وراء الوجود الإنساني المادي . وقد سميت هذه النظرية « لوكاياتا » . Lokayota وقام بنشرها خلال السنين ، ٦٠٠ ق.م فيلسوف وجودي اسمه « كارواكا » . وهذه المدرسة الفكرية لم تؤمن إلا بما ترى وتحس وتشاهد بالعين ، ولا تؤمن بشيء وراء هذه الطبيعة الخلابية التي تراها العيون وتحسها الأبدان وتقبلها العقول . وقد ركزت هذه المدرسة جل إيمانها على المحسوسات والحقائق الواضحة البينة فقط . وقد اشتهرت جملة نطق بها هذا الفيلسوف ، ونالت الشيوع والديوع بين الناس وأصبحت مثلاً سائراً على مدى العصور والأزمنة وهي قوله : « عش عيشة طيبة راضية ما دمت تحيا وتعيش ، وتبذل كل الجهود لجلب الراحة والسعادة والنعيم ، ولو كنت مضطراً للجوء إلى ديون باهظة ، لأن الجسد الذي أحرق في هذه الدنيا وتحول إلى رماد متناثر لن يعود أبداً » .

ومن الجدير بالذكر أن هذه النظرية قد نالت لطمة شديدة وضربة عنيفة على يدى منشيء الديانتين العظيمتين في هذه الآونة وهما الـهينيه والبوذيه كما سندكرهما فيما بعد . ومع ذلك لم تنقض هذه النظرية إلى الأبد ، بل ازدهرت في القرن الرابع عشر الميلادي ، ونشرها مفكر هندوكي يدعى « ماداموا » وسجلها في كتابه « ساروا - داسانا - سامحارا » .

ولم تزل هذه النظرية منتشرة بصورة فلسفية جديدة بين كثير من

المذكورين الهندوس ، وكان من أبرزهم في عصرنا الحديث الزعيم الراحل جواهر لال نهرو ، وكثير من الزعماء الاشتراكيين الهندوس ، لأن هذه النظريات والتجارب كلها لا تتناقض مع المبادئ الهندوكية وديانتها كما سنذكر فيما بعد ولا يبعد أحداً عن حوزتها ولا تطرده مطلقاً .

حركة بها كتي كرد فعل ضد عقيدة التناسخ والتفرقة الطبقية العنصرية
وكان هناك طريقان للوصول إلى المعرفة الحقيقية وكنه الله في الديانة الآرية منذ عام ٨٠٠ ق.م تقريباً . والأول : طريق العلم والمعرفة ، وهذا طريق شاق لا يمكن أن يمارسه إلا المتخصصون وأصحاب المواهب ، والثاني : طريق «كارما» الذي سنلقون به ، وفرض العقوبات ، وآمن بالتناسخ وهذا الطريق أيضاً كان شاقاً جداً . ولذلك ظهر في أواخر القرون قبل الميلاد طريق ثالث ، وهو طريق سهل يسمى «بهاكتي» (Bhakti) ، ومعناه : الإخلاص والمحبة والعبادة . وكان هذا الطريق بعد رد فعل ضد الطريقين السابقين ، وظهر في الحقيقة بين طائفة الدراوديين . وبهذا بعد ثورة عارمة على الطريقين الآريين السابقين . فقد اعتقد أصحاب النظرية أن العلاقة بين الله وبين عباده علاقة المحبة والإخلاص والعبادة . وليس الله سبحانه قاهراً جباراً عنيفاً عنيداً . يرغب في معاقبة عباده ، وقهرهم وإذلالهم وتعذيبهم ، بل يحبهم ويعطف عليهم ، ويغدق عليهم نعمة وفضله . ولذلك ينبغي لعباده أن يعبدوه ويقدموه ويخلصوا له ويحبوه حبا جما . وهذه النظرية قد أحدثت ثورة عارمة في صفوف البراهمة الكهنة ، لأنها تهدف إلى القضاء على نفوذهم وسيطرتهم وتفوق جنسهم البشري . وحينما تفاقم أمر هذه النظرية ونالت الشهرة والرواج في الطبقات الدنيا والمغلوبين على أمرهم في أنحاء الهند فقد اضطرت الكهنوتية البرهمنية من التجاوب معها ، وإدخال بعض أسسها وقيمها في الديانة الآرية . وبذا لم يكن الكهنة متزمتين ومتصلبين في موقفهم وعقيدتهم في يوم من الأيام ، بل كانوا متسامحين ومتفتحين لقبول أحسن ما لدى الطوائف الأخرى من التجارب والمعارف . ولقد سبق أن اعترفوا من قبل

التصوف وعمقيدة وحدة الوجود والتجارب اليرجية كما ذكرنا .

وقد انتعشت حركة بهاكتي في الهند مرة أخرى في القرن الثامن الميلادي ، وذلك بين أبناء جنوب الهند الدراوديين وحمل لواءها قد يسهم الشهير « الفار » (Albar) . قد أصبح لهذه الحركة دوى كدوى النحل في أنحاء الهند . وهذه الحركة كانت موازية لحركة التصوف الإسلامى الهندى ، بل تجاوزت مع التصوف الإسلامى في بعض النواحي فيما بعد .

أسباب ظهور الاتجاهات المتناقضة المتصارعة في هذا العصر

يعتقد بعض الباحثين أن تحطيم معالم الحياة البدوية والنظام القروى المستمر لمدة ألف سنة ، ودخول الهند في الحياة المدنية الأولى منذ عام ٨٠٠ ق . م . أدى إلى ظهور منازعات اجتماعية وفكرية عديدة . فلما انتقلت الحياة البدوية إلى التطور المدنى ، انتهت حياة ترويض الأغنام وتربيتها لدى الآريين ، فأصبحوا الآن تجارا ومزارعين وملأك الأرض والشركات والمصانع وأصحاب الثروة والمخازن والمستودعات والمستولين على جميع مصادر الاقتصاد للبلاد ومواردها . ومن هنا وضعت الكهنوتية الآرية أسس النظام الطبقي العنصرى لكى يسيطر الجنس الآرى الأبيض على جميع موارد الدولة ، وتأخذ هي الأخرى نصيبا أوفر منها ، وترك الجنس الأسود الأصلى في بؤس وألم فتكون عالة على الجنس الأبيض وتحت رحمته وسيطرته إلى الأبد .

ومن الناحية الروحية فقد أدى هذا الصراع المادى إلى الإقبال على زخارف الدنيا ومظاهرها ، والعيش في رفاهية ، وترف وبذخ . وهذه الظاهرة هى التى تخلق المفاسد الاجتماعية الكثيرة مثل غلبة الشهوة الجنسية والاباحية وحياة الخمر والسهرات الليلية وما إلى ذلك في كل مجتمع مدنى متقدم وفي كل عصر وزمان . ولذلك إتجهت هذه الجماعة الارستقراطية إلى إنكار الآلهة والحياة الآخرة ، ورفض الجوانب الروحية ، والإصرار على

الحياة المادية وما فيها من الزخارف . ومن هنا نعتقد أن الإلحاد قد ظهر فور إنتقال الحياة الريفية إلى التطور المدني وهو أقدم وأسبق بالنسبة إلى جميع النزعات التي نشأت فيما بعد .

وإن الطبقات الفقيرة المغلوبة على أمرها تلك التي تؤمن بالله وبالمبادئ الروحية والحلقية وتقنع بالقضاء والقدر ، لم تتحمل رؤية هذه التحولات الهائلة في العقيدة والفكر وفي المجتمع كله ومشاهدتها ، ولذلك فضلت حياة العزلة والزهد والتسك وسارعت إلى الغابات والجبال لتعيش في أكتافها وتربى جوانبها الروحية وتغذى مواهبها الوجدانية . ومن هنا ظهر التصوف ووحدة الوجود والتجارب اليوجية في الطائفة الآرية المؤمنة بالله والمخلصة للدين ، كما ظهرت البهاكتية في الطائفة الدراويدية السوداء . وبهذا تكون وحدة الوجود واليوجية والبهاكتية قد ظهرت بعد المادية الإلحادية أو الوجودية وفق مصطلحنا العصري . . وأخيرا ظهرت فلسفة إثبات الذات وإظهار المواهب وتنميتها كرد فعل لوحدة الوجود واليوجية والبهاكتية السامية التي تقضى على الطموح والنبوغ والمواهب .

كتب الشريعة الهندوكية

كانت الديانة الآرية تسير على مبادئ العقيدة الوثنية البسيطة إلى القرن الثامن قبل الميلاد ، ولم تظهر القوانين المحددة والأوامر المنسقة لحياتهم الدينية والاجتماعية إلا خلال هذه العصور ومنذ القرن الثامن بالذات حينما توجهت النية إلى وضع التشريع والقوانين وتنسيقها وترتيبها ، وقد سميت أول مجموعة من هذا النوع « دهارما - سوتراس » (— Dharma sutras) ، وهي تتضمن أبوابا عامة مثل : المدخل لكتب الفيدا ، إنكار الذات ، القوانين العامة ، الحقوق والواجبات نحو الملوك والمحكام وما إلى ذلك . ثم ظهرت مجموعة أخرى سميت (مانو - سمرتي) (— Manu-smrti) . وقد نظم ونسق هذه المجموعة

ناسك عاش في قدم الزمان واسمه (مانو) ومعنى كلمة (سمرقي)
 (المجموعة المحفوظة) . كانت هاتان المجموعتان تحفظان وتنقلان من صدر
 إلى صدر اعتمادا على الذاكرة ولم تدونا في الكتب ، ولم تسجلا في
 الأسفار إلا في عام ٢٠٠ الميلاي تقريبا ، كما يرى كثير من الباحثين .
 إن المجموعة الثانية تعتبر من أهم الكتب ، إذ أنها تناول أصول
 وقوانين التناسخ وإنكار الذات ، والقوانين العائلية والاجتماعية وشئون
 المرأة والملك والعقوبات ، تفوق الروح وخلق الكون ، والصدق وما
 إلى ذلك .

موقف الهندوكية من الرسالة السماوية

إن عقيدة التقمص أو التجسد قد حلت في الديانات الهندية سواء أكانت
 آرية أو دراويدية محل الرسالة السماوية عند الشعوب السامية منذ عام
 ٨٠٠ ق م . تقريبا . ولذلك لم تفكر الهندوكية في الرسالة والنبوة إطلاقا ،
 بل أضفت على كل مصلح أمثال كرشنا وراما ونارائنا وبوذا صفات
 الوهية ، واعتقدت أن فشنو — رب العالمين عندها — قد تجسد في هذه
 الشخصيات لهداية البشرية إلى طريق الرشاد . فكل كلمة نطق بها
 هؤلاء آمن بها اخنود واعتقدوا أنها كلمات نزلت من السماء ، لأن الله
 هو الذي ينطق في صورة إنسان . وهذه الفكرة هي التي انتقلت إلى
 اليونان ، ثم إلى الرومان أولئك الذين طبقوها على السيد المسيح حينما
 آمنوا به ، وكذلك إلى القرامطة والإسماعيلية والبهائية والقاديانية
 كما قلنا . .

وبهذا يكون الهندوس قد استغنوا عن النبوة والرسالة ، ولم ينكروا
 فيها مطلقا ماداموا وجدوا بديلا لها عندهم : إننا لا نجد في كتبهم أنهم
 عارضوا النبوة أو أبطلوها . لأن هذا الأمر يخالف طبيعة الهندوكية
 المتسامحة المتجاوبة مع كل الأفكار ، بل إن عقيدة الرسالة لم تصل

إلى الهند مطلقاً قبل الإسلام من الشرق الأوسط ، بسبب عزلة الهند عن العالم كله منذ قدوم الآريين خلال عام ١٨٠٠ إلى عام ٨٠٠ ق . م . ومن ناحية أخرى فإن المفكرين والمصلحين الهنود المذكورين خلال هذه الآونة قد كفوا عن الأنبياء المرسلين في الشرق الأوسط . لأن دعواتهم وإصلاحاتهم وتعاليمهم قد أصبحت بمثابة الرسائل السماوية بما تضمنت من المعاني والسمو والمثل العليا . ومن هنا يعتقد كثير من علماء المسلمين الهنود الآن أنه لا مانع من أن يكون هؤلاء أنبياء مرسلين من الله سبحانه . لأن الله يقول في كتابه العزيز « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » (فاطر ٢٤) ، إلا أن هذه الشخصيات ورسالاتها العظيمة قد شوهت معالمها وحرفت فيما بعد .

وحينما دخل الإسلام الهند بقيادة القائد العربي العظيم محمد بن القاسم أعجب الهنود بشخصيته وأهدافه إلى أقصى الحدود ، فأقاموا له تماثلاً وأضفوا عليه صفات الألوهية وفق عقيدة التجسد . كما أن أغلبية ساحقة منهم — عدا هؤلاء المعجبين به والمحافظين على ديانتهم — قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وهؤلاء هم الذين يشكلون الآن المناطق الشاسعة الواسعة في باكستان الغربية . ثم قاد الموجات الأخرى من الغزوات الإسلامية ملوك مسلمون من الجنسين التركي والتتاري . ولم يكن همهم إلا السلطة والحكم ، ولذلك قام بأعباء نشر الإسلام وتعاليمه ومبادئه بين الهندوس صفوة من الصوفية . ومن المعروف أن التصوف الإسلامي هو الآخر كان مفتوحاً دائماً لقبول كل التجارب الإنسانية ، ولذلك أسلم من أسلم من الهنود على أيدي الصوفية إعجاباً بهم وبتجاربهم الروحية ، وبقى الآخرون — وهم الأغلب — على ديانتهم مع تقديسهم للصوفية وتجاربهم الروحية وكراماتهم ، والتفاعل مع أفكارهم ، وإدخالها إلى الفيدانتية والهاكتية اللتان ظهرتتا في هذه الآونة . وهذا هو السبب في أننا لم نزل نرى طائفة الهندوس تتقدم بالهدايا والنذور إلى ضرائح الأولياء والصالحين من الصوفية المسلمين أكثر بكثير بالنسبة إلى المساكين المبتدعين :

ولهذا نستبعد مازعمه بعض المتكلمين المسلمين منذ القدم أن الهندوكية تنكر النبوة ، بل الصحيح أن الهندوكية اتخذت موقفا سلبيا نحوها ولم تبد رأيها مطلقا .

هل صنع الآريون التماثيل والأصنام ؟

يرى كثير من الباحثين أن الآريين منذ نزوحهم إلى الهند وطوال عصر الحياة القروية لم يصنعوا الأصنام والتماثيل ولم يبنوا الهياكل والمعابد . وهذا الأمر يرجع أولا وأخيراً إلى الحياة الريفية التي عاشوها قرابة ألف سنة ، منعزلين عن العالم كله ، ومنقطعين عن بلدان الشرق الأوسط وحضاراته . ولذلك لم يخترعوا الأواني الفخارية الجديدة لهم ، ولم يتمرنوا على التصوير والنحت ، ولم يزاولوا أعمال التعمير والبناء ، ولم يسافروا إلى البلدان المتحضرة المجاورة لهم في الشرق الأوسط ، ولم يحاولوا تبادل السلع التجارية معها أو مجرد الالتقاء بها . مع أن حضارة وادي نهر الهند في الألف الثالث قبل الميلاد كانت متقدمة جداً في جميع هذه المجالات ، ومتجاوبة مع الشرق الأوسط إلى أقصى الحدود . ومن الواضح أن هؤلاء الآريين قد شاهدوا تماثيل سيثا وكالي وفشنو وآلهة دراويدية أخرى أثناء نزوحهم إلى الهند ، كما وجدوا الهند متقدمة جداً في جميع الفنون الحضارية . وكان في إمكانهم جداً أن يقوموا بتطوير هذه الفنون والصناعات ولكنهم آثروا الحياة الريفية وفضلوا تنمية الوجدان والروح والتقرب إلى الآلهة على جميع المعالم الحضارية ومتطلباتها .

هل كان الآريون نباتيين أصلاً ؟

ويبرز سؤال هام فيما يتعاق بالآريين القدامى : هل كانوا نباتيين منذ البداية ؟ والإجابة على ذلك — كما يرى كثير من الباحثين — أنهم لم يكونوا نباتيين قط — لأنهم كانوا يأكلون لحوم الحيوانات مثل الأبقار والثيران ، ويقدمونها قربان للآلهة . وكذلك كان شأن جميع الآريين الذين استوطنوا

أوروبا وإيران . ولم يحدث أى تغيير فى هذه النظرية ، ولم يطرأ شىء حتى ظهور ديانة جديدة وهى الجينية — كما سندكرها قريباً — حرمت لأول مرة ذبح الحيوانات وأكل لحومها وتقديمها قرابين للآلهة . وهذه الديانة هى التى أثرت فى الهندوكية فى القرون الميلادية ، الأمر الذى دعا الآريين إلى أن يمتنعوا عن جميع أنواع اللحوم ، ويقدمون الأبقار كآلهة ، كما قدسوا كثيراً من الحيوانات ، وعبدوها ، ثم امتنعوا عن لحومها .

ومن الجدير بالذكر أن تقديس الأبقار واتخاذها آلهة قد ظهر كعقيدة دينية فى الديانة المصرية لأول مرة منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد تقريباً ، ثم انتشرت هذه العقيدة بين بنى إسرائيل . وكذلك وجد فى ديانات الأمم السامية فى العراق والشام تقديس الثيران . وأما الآريون فلم يكونوا وحدهم فتح تقديسهم الأبقار ، كما أنهم لم يعبدوا الأبقار وحدها ، بل القروء عندهم كانت تفوق الأبقار فى المكانة والقدسية والعبادة ، وذلك منذ أن ساعد « هانومان » — البطل القرد — راما — بطل ملحمة الرامايانا — فى معركته الفاصلة ضد عدوه اللدود « راون » — ملك سيلان — كما تحكى الأساطير . ولكن أمر الأبقار قد استفحل وصار مشكلة اجتماعية ودينية بالنسبة إلى جميع الأديان منذ دخول الإسلام إلى الهند ؛ لأن الإسلام يبيح ذبح الأبقار وأكل لحومها ، وأما القروء فهى محرمة فى جميع الأديان وعلى رأسها الإسلام . ولذلك لم يحدث صراع فى الهند حينما اتخذ الهندوس القروء آلهة لهم ، بل حدث نحو الأبقار فقط . لأن لحومها مباحة فى جميع الأديان العالمية ، كما أنها شهية جداً لا يمكن الاستغناء عنها لآى مسلم أو مسيحي أو أوربي وآسيوى وأفريقى .

وفىما يتعلق بالهندوس فإنهم — على اختلاف ملهم ونحلهم وأجناسهم وطوائفهم — يمتنعون عن اللحوم . فى جنوب الهند حيث يشكل الدراوديون — سكان الهند الأصليين — أغلبية ساحقة يأكلون جميع اللحوم عدا لحوم البقر ؛ وأما المنبودون — الطبقة السفلى حتى بنى الدراودين

الجنوبيين - فهم يأكلون حتى لحوم الأبقار أحياء وأمواتا ، وهذا يفوق هؤلاء المسلمين بمراحل في أكل لحوم الأبقار .

طبيعة الديانة الهندوكية وسر خلودها :

لقد وجدنا في الهند وكية الآرية انها تحوى جميع أنواع العقائد والاتجاهات والميول ، وهى تؤمن بالوثنية والتوحيد ووحدة الوجود واليوجية والبهاكية والتقمص والتناسخ وإثبات الذات والإلحاد ، ومستعدة للتجاوب مع جميع الأفكار والآراء بما فيها توحيد الإسلام ، وتجارب التصوف الإسلامى ، كما تتمثل هذه النزعات فى حركتى البهاكتى ، والفيدانتية لشنكر آشارى (٧٨٨ - ٨٢٠ م) . وهذا تكون الهندوكية مخزنا هائلا لجميع العقائد والاتجاهات وتجارب . وليس هناك شىء ما يمنع هــ الديانة ، وإن كان المفضل عندها كل من التوحيد وذلك للطبقة المثقفة العليا ، والوثنية للعوام والجهلة . وهذا هو سر نخلود الديانة الهندوكية واستمرارها على مدى القرون وعبر السنين دون اندثار وفناء . لأنها كانت مرنة سمحة فى كل العصور متجاوبة مع جميع الأفكار والاتجاهات وتجارب ، ولم تؤمن بشىء ما يسمى بالرجعية أو التزمّت أو التصلب والمحافظة ، كما أنها لم تتعصب لأية نزعة فى عصر من العصور : بل الذى حدث فى كل عصر أنها استطاعت جذب كل نظرية إلى صالحها ، أو سارعت إلى الأخـذ بأحسن ما لديها ، ثم التعديل فيها وفق رغبتها ومصالحها ، كما تأثرت وأثرت فى عقيدة وحدة الوجود واليوجية والبهاكتية منذ ظهورها . كذلك لم تشن حربا شعواء على الإلحاد والمادية والوجودية ، بل قررت هــ هذه النزعة هى الأخرى كمتجربة إنسانية ينبغى بقاؤها واستمرارها ، وإن لم تعجبها هذه الظاهرة فى أى عصر . ولما ظهرت البوذية كرد فعل ضدها استطاعت الهندوكية الاقتراب منها ، وأخذ أحسن ما لديها ، ثم التأثير فيها بالتالى . وهذا هو السبب فى أن البوذية لم تستطع القضاء على الهندوكية فى الهند ، فى حين سيطرت على جميع أديان

الشرق الأقصى مثل الصين واليابان واندونيسيا وسيلان وبورما وسادت في تلك المناطق .

ثم واجهت الهندكية الإسلام منذ الفتح الإسلامي للهند ، وفي هذه الآونة أيضا لم تبد أية مقاومة للإسلام ، بل اقتربت منه ، وانسأقت إلى التصوف الإسلامي وتفاعلت معه . فأدخل شنكر آشاري المذكور في حركته الإصلاحية التي تسمى « الثيداندية » أهم مميزات التوحيد الإسلامي ، وتجارب الصوفية المسلمين ، وكذلك أخذت حركة البهاكتي معظم مزايا التصوف الإسلامي . ومن المعروف أن التصوف كان قوة هائلة في الهند ، والصوفية هم الذين لعبوا دورا كبيرا في نشر الإسلام ومباده في أنحاء وربوع الهند . وبهذا كان التصوف عاملا أساسيا في ظهور الإسلام وانتشاره في الهند . وهكذا تمكنت الديانة الآرية الهندية من انعاش حركتها وإعادة حيويتها ومواصلة سيرها أمام كل التحديات الجديدة ، في حين غرقت الديانة الآرية في إيران في سيل الإسلام العارم وانمحت إلى الأبد ، لأن الديانة الإيرانية لم تفتح قلوبها لقبول جميع التجارب الإنسانية والموافقة عليها ، والانسياق إليها والتفاعل معها ، بل كانت آفاقها ضيقة كأية ديانة في العالم ، ولم تؤمن إلا بتجاربها الشخصية فحسب .

ثم تصدت الهندوكية لنفس التحديات في بداية الاحتلال الإنجليزي للهند في مستهل القرن التاسع عشر . وفي هذه الآونة ايضا سارعت إلى قبول الأفكار الغربية وحضارتها وأخذ كل ما فيها من الخير دون أية معارضة أو مقاومة ضدها ، في حين عارض المسلمون الهنود الحضارة الغربية أشد المعارضة وشنوا حربا شعواء ضدها ، واتخذوا موقفا عدائيا سافرا منها ، مما كلفهم الكثير من الأرواح والمال والجهد والعرق دون فائدة . وهذا هو السبب في أن المسلمين قد تأخروا في مجاراة موكب الحضارة الإنجليزية وثقافتها وعلومها ، وأقبل الهندوس على الجامعات

العصرية التي أنشأها الانجليز ، وأكبوا على دراسة علومها وفنونها ومجاربها ، وبهذا فاق الهندوس المسلمين قرابة نصف قرن تقريبا في المجال التعليمي العصري ، وهذا هو السبب في سر تفوقهم في العلوم العصرية في كثير من النواحي . ولولا حركة السيد أحمد خان المناوئة لموقف العلماء المسلمين الهنود والداعية إلى الإقبال على التعليم الأوربي ، لتخلف المسلمون قرونا طويلة في مجال التعليم الحديث والعلوم الأوربية العصرية المتقدمة .

ملحمة المهاباراتا

تصور هذه الملحمة في الحقيقة تلك المعارك الدامية التي دارت رحاها بين فرعين من أسرة واحدة للآريين خلال القرن الثالث عشر أو الرابع عشر قبل الميلاد . ولكن هذه المعارك نالت الشهرة والذيع ، واتخذت طابعا أسطوريا ، وبدأت السنة الناس تتناقلها بالإعجاب — باب والشوق ، وأجريت فيها تعديلات جديدة ، وأضيفت إضافات عديدة متنوعة عبر القرون . وقد جرت هذه التعديلات والإضافات في الأحداث والوقائع والمشاهد والنظريات والعقائد ، وظل الأمر على ذلك قرونا طويلة ، ولم تدون هذه الملحمة التي تضاعف أصلها وهيكلها على مر الأزمنة إلا في القرن الخامس الميلادي : وبهذا لم يكن لهذه الملحمة السنسكريتية العظيمة التي ألقت بالشعر مؤلف معروف بل ساهم في صياغتها وعرضها أشهر شعراء اللغة السنسكريتية في كل عصر وزمان ، وتحكى حكايات غريبة عن مؤلفي هذه الملحمة : ومنها أن الإله « حانيسا » قد كسر أنيابه الطويلة لشدة حماسه واندفاعه ، وسجل بها « المهاباراتا » التي أملاها عليه الإله « ثياسا » ذلل الذي يجب العلوم والمعارف .

إن أبطال هذه الملحمة هم أولئك الآريون الذين حكموا « دهل » العاصمة ، وما جاورها من المناطق الواسعة الشاسعة ، والذين سمعوا « كورو » . وفي الفترة التي تبدأ فيها هذه الملحمة ورث الحكم أخوان من هذه القبيلة وهما : « باندو » ، و« دهيراتا راشترا » . وقد أنجب

الأول ستة من الأولاد الذكور ، ثم توفي ، فاعتلى العرش أخوه الأعمى « دهيراتا راشترا » ذلك الذى أنجب المائة من الأولاد الذكور . وبين هؤلاء الأخوة المائة وبين الستة دارت تلك المعركة التى سجلتها هذه الملحمة المقدسة .

وبما أن هذه المعركة قد دارت فى مناطق محدودة فى شمال الهند بالقرب من العاصمة الحاضرة فلم تصور الملحمة إلا مناظر ومشاهد تلك المناطق فقط ، ولا نرى فيها أثر الجنوب مطلقا .

كان سبب ظهور هذه الملحمة الخلافات والحزازات والتنافس وشهوة الاستعلاء على الحكم التى نشأت بين أولئك المائة والستة من أفراد الأسرة الملكية . ومن جراء ذلك تكونت جبهة من أولاد الأعمى المائة بقيادة ابنه الأكبر « دوربودان » كما أنشأ أبناء أخى الملك الأعمى الستة جبهة ثانية بقيادة « يودشترا » . وبين هذين الحزبين دارت جميع المعارك للوصول إلى الحكم . كان « أرجنا » من أشهر إخوة « يودشترا » ، ذلك الذى فاق الجميع فى البطولة والمغامرة ، ولم يكن يساويه أحد من أبناء عمه . ولكن انضم إلى الحزب الأول بطل غريب وهو « كارنا » الذى لم يقل عن « أرجنا » شيئا فى الشجاعة والبطولة . ثم جرت أحداث كثيرة ، مكنت الحزب الأول من الاستيلاء على العرش ، فتولى العرش « دوربودان » أكبرهم سنا ، وأرغم الجماعة الأخرى على مغادرة البلاد والعيش فى الغابات والجبال لقضاء اثنتى عشرة سنة فيها .

لقد عاش هؤلاء الأخوة الستة فى المنى وسط غابات كثيفة الأشجار ووارفة الظلال ، وحافلة بالمناظر الخلابة والمشاهد البديعة ، كما أنها مليئة بالحيوانات والوحوش ، ومزدحمة بالأنهار الجارية وروافدها ، فعاشوا حياة طيبة ، يعبدون الآلهة ويؤدون الطقوس . وقد رافقهم فى هذه الرحلة « كرشنا » ، ذلك الذى تجسد فيه فيما بعد فشنوكين هؤلاء جميعا ومرشد ومرافق . وقد زارهم خلال هذه الفترة كثيرا من الكهنة

والرهبان ، كما زارهم سيثا الاله الدراويدي الأصيل . لقد قص هؤلاء كلهم على المطرودين قصصا وحكايات تصور مآسى تشبه مآساتهم بجانب ما تحويه من العبر والمواعظ . وهذه القصص والأساطير الإضافية أصبحت مادة خصبة في الآداب فيما بعد ، تلك التي إستوحاها الشعراء والقصاصون ومولفو المسرحيات في أعمالهم الأدبية .

وبهذا إستكمل هؤلاء المدة المفروض عليهم قضاؤها ، ثم خرجوا من الغابة ليعيشوا سنة أخرى مختلفين عن أنظار الناس ، ثم واصلوا بجهودهم لاستعادة عرشهم من أيدي أبناء عمهم . ومن هنا بدأت المعارك الدامية تلك التي تصورها الملحمة .

إن هذه الملحمة تحتل مكان الصدارة بين الآداب السنسكريتية ، بل الآداب الهندية كلها . وهي آية في الأدب والفن لغزارة مادتها الأدبية والفنية . تصور الأحداث والوقائع تصويرا دقيقا ، وتصف الشخصيات وصفا ممتازا بحيث تتميز الشخصيات من الرجال والنساء وتبرز صفاتهم الخاصة وتجلى خصائصهم البارزة . وهذه الظاهرة لا تظهر بوضوح في كثير من الأعمال الأدبية والفنية التي ظهرت في اللغة السنسكريتية فيما بعد ، إذ أننا نلمس في تلك الأعمال المتأخرة الخلط والتشابه والتجانس بين الشخصيات وصفاتهم ومميزاتهم . وهذا يدل على براعة مولفي المهاباراتا وتفوقهم في الأدب والشعر وطول باعهم في الوصف والتصوير .

لقد قارن كثير من الأدباء الأفرنج بين المهاباراتا والملحمة اليونانية الشهيرة الإلياذة تلك التي ألفها هوميروس . وواجه التشابه بين الملحمتين إن كلا من الإلياذة والمهاباراتا تصور حضارة واحدة تقريبا ، إذ أن الأبطال في كلتا الملحمتين يحاربون على العربات ، والعربات كانت شائعة الاستعمال في كل من الهند واليونان منذ نزوح الآريين إليهما ،

ثم استخدمت الخيول لهذا الغرض : كما نجد في كل من الحضارتين - كما تصف هاتان الملحمتان - رعاية الغنم والأبقار ، وشن الغارات المفاجئة على العدو للاستيلاء . وكذلك نجد ثمة تشابها في الاهتمام بالآلهة وإجراء الحديث على ألسنتها وتقديسها . وناهيك بوعورة الأسلوب في الملحمتين وعدم الدقة في البحور فهما في بعض الأحيان .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الإلياذة تصور التنافس بين البطلين وهما « انجيليوس » ، و« هكتور » كما نجد التنافس في المهابهاراتا بين « أرجنا » و« كارانا » . هذا وتمثل كل من الإلياذة والمهابهاراتا حياة بلادهما وتقاليدهما وحياة شعوبهما وأحاسيسهما وعبقريتهما . وهما بمثابة موسوعة كبرى لحياة الأمتين الآريتين العظيمتين ومعارفهما . وكما أن المهابهاراتا تمنح مادة خصبة لخلفية للأساطير الهندية وقصصها ، كذلك تلعب الإلياذة دورا كبيرا كإطار خلفي لكثير من الأساطير اليونانية وأعمالها الأدبية الخالدة .

ملحمة الرامايانا

لقد عاشت - بين فترتي القرن الثاني عشر والعاشر قبل الميلاد في شمال الهند في ولايتي بهارواتاربراديش أسرتان كبيرتان لملوك الآريين وهما « كوسالاس » ، و« قيديحاس » وكانت مدينة « أوده » عاصمة دساراتا ملك كوسالا . أما مدينة « بته » ، فقد كانت عاصمة ملك « قيديحاس » ، ذلك الذي زوج ابنته « سيتا » لبطل الأسطورة راما - وهو الإبن الأكبر لدساراتا .

كانت الرامايانا عبارة عن الأحداث التاريخية التي وقعت في هذه الفترة من الزمان . وقد صاغها أشهر الشعراء باللغة السنسكريتية : ولكن هذه الأشعار لم تسجل في نفس الآونة ، بل هي الأخرى - كما مهابهاراتا - ظلت تحفظها صدور الناس ، وتتناقلها الألسن . ومرت بمراحل عديدة عبر القرون واتخذت هذا اللون الأدبي البديع في القرن الخامس قبل الميلاد . وهذه الملحمة هي الأخرى لا يعرف مؤلفها على وجه التحديد

بل شارك في صياغتها عدد كبير من فحول الشعراء باللغة السنسكريتية .
وتقول الراما يانا نفسها أن الراهب « والميكي » ذلك الذى ساعد (راما)
في محنته في الغابة ، والذى شاهد وعاصر جميع مشاهد البطولية هو الذى
نظمها بعد عودة رامان من منفاه إلى أيودهايا .

كان راما يعيش حياة طيبة مع زوجته (سيتا) ويؤدى جميع واجباته
الدينية لأنه كان راسخ الايمان بالآلهة ، إذ كان يعبدهم ويقدمهم حتى
رضى عنه الرهبان والكهنة واحترموه بالغ الاحترام .

ولما بلغ (دساراتا) من عمره مبلغا كبيرا وضعفت قواه عزم على تنويج
راما ، لأنه ابنه الأكبر ؛ ووارث عرشه الشرعى . وقد حدد يوما لتنصيبه
ملكاً والاحتفال بمناسبة التنويج . ولكن زوجة الملك دساراتا وهى كايكيا
حالت دون ذلك . لأنها لم تكن والددة راما ، لأن أباه تزوج من أربع ملكات ،
وكان راما من الملكة الأولى ، وكايكيا كانت مائة رابعة ، وتريد
تنويج ابنها بدلا من راما وهو بهارت . ولذلك استخدمت الحيل ، وحطمت
آمال راما ، وقررت إبعاده عن العرش ليعيش في المنفى بين وسط الغابات
والجبال بجنوب الهند لمدة أربعة عشر سنة . فخرج راما وسط مشاهد
حزينة مؤلة إلى الغابة يرافقه زوجته (سيتا) واخوه لشمن من زوجة
والده الثانية .

وخلال هذه الأحداث كلها لم يكن « بهارت » ذلك الذى أرادت له
أمه تولى العرش بدلا من أخيه الأكبر « راما » يعرف شيئا مما حدث ،
لأنه كان في مهمة عسكرية في بلاد نائية . فلما عاد إلى أيودهايا -
العاصمة - وجد فيها أحداثا وتطورات لم يتصورها . فقد توفى والده
دساراتا حزنا على راما ، ولشمن وسيتا . فدهش لما جرى ، ورفض
الجلوس على العرش الذى هيأته له أمه واتجه إلى الغابة جادا في البحث عن
أخيه لارضائه وإقناعه على العودة إلى العاصمة ليتولى العرش . وبعد أيام
حافلة بالتعب والإرهاق وصل إلى أخيه راما ووجده في دير وسط الغابات

مشيد بالأوراق والأغصان على صورة كوخ ، ويحرسه لشمن بسيفه وآوسه .
فانكب بهارت على قدمي راما يقبلهما في حب وحنان لاحد لهما ، وطلب
منه العفو وألح عليه في العودة إلى العاصمة ليتولى العرش . ولكنه أبي وقرر
قضاء الأربعة عشر سنة . فعاد بهارت حزينا يائسا يحمل أحذية راما ليضعهما
على العرش ويحكم أيودحيا بالنيابة عنه حتى يحل ميعاد عودته من المنفى :
ومن هنا تبدأ الملحمة الحقيقية ، لأن راما قد دخل الآن في طور
جديد من الحياة في الغابات . لأنه اتجه إلى ناحية الجنوب وألقى عصي
الترحال في غابة مغالمة بقرب نهر « جوداوارى » بجنوب الهند ، وعلى
مقربة مائة ميل تقريبا من مدينة بومباي .

وفي هذه الغابة رأى « راون » - ملك سيلان - « سيتا » - زوجة
راما - وهي في منتهى الجمال ، لأنها من الشمال ومن الطبقة الآرية ،
والملك راون من الدراويدين السود ، فاشتهاها وقام بعدة حيل ناجحة
لخداعها ، ثم خطفها وحملها إلى بلاده سيلان ، وأرغمها بكل الحيل ووسائل
العنف على الزواج منه ، ولكنها رفضت وأصررت على رفضها ، فاعتقلها
إلى حين تبدي الموافقة على الزواج منه .

ومن ناحية أخرى فإن راما حين عرف نبأ خطف زوجته المخلصة
الوفية ، حزن حزنا عميقا ، وشاركه فيه أخوه لشمن كل المشاركة : ولقد
وصل كلاهما إلى جبال (فاناس) في البحث عن سيتا ، ولقيا فيها
(سوجريشا) ملك بلاد فاناس ، وكان يصحبه قائده العسكري وساعده
الأيمن هانومان ذلك الذي عرضته الملحمة في صورة قرد :

لقد شن هؤلاء جميعا غارات عنيفة على سيلان ، وقاد هانومان بجيشا
جرارا تكون من أبناء جنوب الهند ، وقتل راون في المعركة الفاصلة . وتصف
الملحمة أن الآلهة كلهم كانوا مع راما في هذه الحرب يساعدونه ويشدون أزره ،
ويشجعونه : ولذلك انتصر راما على راون الشرير . ثم أمر راما باحراق
جثة راون ، فوضعت أكوام من الخشب والصندل والزيت والروائح

عليها ، وأشعلت النيران فيها حتى تحولت جثته إلى رماد . ثم سلم راما البلاد المفتوحة إلى الملك الذي ساعده في المعركة وهو ساجريثا وقائده هانومان . وعاد هو وزوجته وأخوه إلى البلاد ، حيث تمت مراسم التتويج وسط احتفالات رائعة .

إن هذه الملحمة تصور عصرها تصويراً دقيقاً بحيث تنجلي أمامنا جميع مظاهرها بين العقائد والتقاليد والمراسم والحياة السياسية والاجتماعية ، ونوحى إلينا بأننا نعاصر حقيقة أبطال هذه الملحمة ونشاهدهم أمامنا كشخصيات حية تماثل أمامنا . وكذلك تذكر هذه الملحمة أول اتصال الآريين بسكان جنوب الهند وتوغلهم إلى أقصى حدود الجنوب حتى تم استلاؤهم على جزيرة سيلان . وبهذا اتصل الفكر الآري والدرأويدي في الجنوب لأول مرة بهذه الروح السمحة والتعاون المتبادل والمواساة والمساعدة . ولعل هذا هو السر في أن سكان الجنوب قد اعتبروه بطلاً من أبطالهم وأضافوا عليه صفات الألوهية ، وعرضوه في صورة إلههم المختار عندهم وهو قشنو ، ذلك الذي تجسد فيه وفق عقيدتهم .

لقد تركت هذه الملحمة أثراً قوياً في نفوس الهندوس واحتلت مكان الصدارة بين غيرها من الملاحم . كما ساهمت مساهمة كبيرة في رفع معنوية الشعب ومنحه قوة روحية دافقة وإيقاظ شعور الحب والتضحية في نفوس الهندوس لتقديس وطنهم ومعتقداتهم الدينية وشخصياتهم الأسطورية الخالدة إلى حد العبودية .

لقد قارن كثير من الباحثين الأفرنج هذه الملحمة بـ « الأوديسه » (Oayssey) الملحمة اليونانية الشهيرة التي تلى الإلياذة ، تلك التي هي الأخرى ألفها هوميروس ، وتتناول كلتا الملحمتين الغربية والنقى والتشريد ، كما تشتركان في كثير من القيم والمثل والنواحي الفنية والأدبية .

وحيثما نقارنها بالملحمة الأولى وهي « المهابهاراتا » نجد أنها تشبهها في أمور كثيرة مثل النقى والتشريد . وكذلك في كثير من القيم والمثل والمبادئ . كما أنهما تمثلان الروح المعنوية والقيم الأخلاقية والروحانية للهند والتضحية والوفاء والإخلاص والحب والتفاني التي عرفت بها الهند دائماً وأبداً .



اوحة (١٦)

هانومان - البطل القرد - يخوض المعركة
ضد راون - ملك سيلان - في نصرة راما

كرشنا وراما واتخاذهما صورة الآلهة

لقد وجدنا « كرشنا » في ملحمة « المهابهاراتا » مساعداً وناصباً ومرشداً ، لارجنا بطل الأسطورة ، كما أن القرابة كانت تربط بينهما . ونعتقد أنه قد أضيف إلى أصل الملحمة في القرون التالية ، أى خلال القرن الثامن أو التاسع قبل الميلاد ، لأن هذه الملحمة قد أضيفت إليها إضافات كثيرة عبر القرون كما قلنا ، وسجلت في القرن الخامس الميلادى . ومن المعروف أنه قد دعا إلى الفلسفة الإيجابية وعارض السلبية كل المعارضة ، وبهذا يكون قد ظهر بعد ظهور فلسفة وحدة الوجود واليوجية ، وحاول اصلاح النواحي الضارة فيها .

ووفق ما جاء في الأساطير أنه ولد في مدينة « مانورا » التى كانت تقع بين (دهل) - العاصمة الهندية الحاضرة - « وآغرا » - موقع التاج محل الآن . وكانت أمه « ديثاكي » اخت ملك يسمى « كامسا » . وقد تنبأ بعض الكهان يوما بأن هذا الملك سوف يلتنى مصرعه على يد بعض أبناء اخته . ومن أجل ذلك كان يقتل أبناء اخته فور ولادتهم . فلما ولدت أخته « كرشنا » استطاعت اخفاءه واستبدلت به بنت راعى البقر فى إحدى القرى المجاورة . وبهذا تمكن « كرشنا » من الإفلات من بطش خاله ، وتربى وسط رعاة الغنم ، وبصحبة طائفة البراهمة .

وقد ظهرت منه معجزات وخوارق منذ ولادته . وذلك أنه كان يملك طاقات كبيرة فقد استطاع مرة أن يمسك بعربة ويقذفها بعيدا ، كما استاصل شجرتين كبيرتين وحطمهما تحطيماً ، وقضى على ثعبان مائى كبير ، وساعد أخاه « بالاراما » على قتل عفریت شرير كبير .

وقد قام يوما بحيلة غريبة ناجحه مع « الاله إندرا » نفسه : وذلك أن الاله إندرا قد نصبح مرة الفلاحين ورعاة الغنم الذين أكرمهم والذي كان يجلب لهم الأمطار ، أن يقدموا أيضا الجبال التى تعطيهـم الأخشاب والأعشاب والحشائش الخضراء التى ترعاهـا أبقارهم ، بالإضافة إلى تقديم الأبقار والأغنام التى ترضيهم بما تقدم لهم من ألبانها : وحينما قام



لوحة (١٧)

سيتا وهانومان ويتوسطهما راما وتحتهم
جماعة من القروء تقدم لهم الصلوات



لوحة (١٨)
الاله سيثا في صورة جديدة عند الآريين والد راوديين

هؤلاء بأداء عباداتهم المقدسة وطقوسهم للجبال والأبقار والأغنام تحقيقاً
لرغبة الإله اندرا وقف كرشنا فوق قمم الجبال وخذع الفلاحين وأخذ
ثمارهم كما ذكرنا آنفاً .

وتحكى الأساطير أن الفتيات من راعييات البقر كن قد ذهبن يوماً إلى بركة
ماء ، وخلعن ملابسهن لكي يستحم من فتعالت ضحكتهن كعادتهن ، فسمعها
« كرشنا » واقرب منهن وسرق ملابسهن وأخفاها بين الأعشاب بعيداً
عنهن . فلما خرجن من البركة لم يجدن ملابسهن ووجدن « كرشنا » أمامهن
فألحن عليه في إعادة ملابسهن ووافقن على شروطه في أن يقدمن له
الطقوس والعبادات ، وتعهدن على ذلك . ومنذ ذلك الحين بدأت فتيات
الهند يقدمن له القرابين ويغنين له ويخرجن للبحث عنه وسط الغابات ويرافقنه .
وقد أصبح كرشنا منذ ذلك الحين صديق الفتيات أو عشيقهن أوفيقهن .
وقد اعتادت كثير من الفتيات الهندوكيات منذ ذلك الحين أن يخرجن من
بيوتهن عندما يستمعن إلى أنشودة راما أو مزاميره شوقاً إليه وحباً له .

وحيثما شب « كرشنا » وكبر عاد إلى بلده « ماتورا » وقضى على خاله
الملك « كاسما » والأشرار الآخرين الذين التفوا حوله أو اقتنوا آثاره .
ثم لعب دوره الفعال في الملحمة « المهاباراتا » و « الجيتا » كما قلنا .

ومن معجزات كرشنا أن ملكاً من ملوك الهند أنجب واداً غريباً سماه
« سى سوبالا » ، وكانت له ثلاثة عيون وأربعة أيدي . وقد استولت الدهشة
والخوف على والديه عند رؤيتهما هذا الطفل ، وظنا أنه عفريت ،
وفكرا في التخلص منه فإذا بهما يسمعان صوتاً يقول : إنه لا داعي للتخلص
منه ، لأنه قد ولد من يقاتله ، والقدر محتوم منذ الأزل ، فسألاه : من
الذى سيقاتله ؟ فأجاب الصوت بقوله : لو وقع الطفل في حضنه فستطير
عينه الثالثة وتختفى يده الزائدتان . فخرج الوالدان يحملان الطفل ويجدان
في البحث عن الرجل الذى وصفه الصوت بأنه قاتله . وبذلاً المستحيل في
العثور عليه . وحيثما يثسا من ذلك وعادا إلى القصر ظهرا أمامهما كرشنا



لوحة (١٩)

كرشنا وهو طفل يلعب على ثعبان



لوحة (٢٠)
كرشنا يسرق ملابس راعيات الغنم

مع أخيه . وما أن وقع الطفل في حجره حتى طارت عينه الثالثة واختفت يده الزائدتان . فركعا أمامه وقدما له الصلاة وطلبا منه أن يعفو عن ولدهما إذا ارتكب المعاصي ضده في المستقبل . فوافق كرشنا على ذلك وترك قصرهما وعاد مع أخيه .

وقد حدث مرة أن الملك « يودشتيرا » أقام حفلا كبيرا بمناسبة تتويجه وحضره أعيان الملوك وأعظم الأبطال في الهند ، وكان من بين هؤلاء المدعوين كل من « سى سوبالا » الذى كبر وتولى عرش أبيه ، والإله كرشنا . فتقدم الملك المضيف بقرايينه وطقوسه إلى كرشنا ، إكراما وتقديسا له . فلم تعجب هذه الظاهرة « سى سوبالا » واحتج عليه ، وأطال لسانه ضد كرشنا وأهانته إهانة شديدة . وقد حاول جميع الحاضرين تهدئته وإسكاته خوفا من غضب كرشنا ، ذلك الذى لم يزل يعفو عنه ، كما سبق أن عفا عنه أكثر من مائة مرة . ولكنه ظل على وقفه من التمرد والتفوه بالشتائم وتقديم الإهانة . ولما بلغ السيل الزبى وظهر سحق الآلهة عليه قويا حطم الغضب سكون الإله ذى اللون الأسود ، ولمعت عيناه بالنار ، وحمل دائرة وصولجانا وطارا بهما . ولما وقعا عليه سقط الملك جثة هامدة وانقسم جسده إلى قطعتين . ثم اقتربت روحه المذنبة من كرشنا وركعت أمامه وقبلت رجليه وطار .

وحينما مات أرجن بعد كسبه المعركة المقدسة خلفه أبناؤه وأحفاده : فقد قام هؤلاء بنشر تعاليم كرشنا الموجودة في « الجيتا » . ولهذا ترى أن كلا من ملحمة المهابهاراتا والجيتا قد انتشر في جميع أنحاء الهند بسبب انتصار مبادئ كرشنا ونياتها الشيوع والذبيوع . ولكن بعد مرور الزمن قد عرض كرشنا في صورة إله ، لأن قُشنو قد تجسد فيه . ومن المتناقضات أن « كرشنا » ذلك الذى تجسد فيه قُشنو يموت موتا طبيعيا كأي رجل في العالم . وتقول الأساطير إنه قبل أن تحين له ساعة الرحيل

من هذه الدنيا أصابته لعنة « درواسا » الكاهن : فأصاب رجله نخطا رمح لصائد في إحدى الغابات . كان كرشنا يتعبد في ذلك الحين في دير من الأديار . فتوفي كرشنا للاصابة القاتلة ، وارتفع إلى السماء حيث رحب به جميع الآلهة ، ومنذ ذلك الحين وقع الظل على الأرض .

وكذلك وجدنا « راما » بطلا أساسيا في ملحمة « الرامايانا » وابنا أكبر للملك دسارانا . ولكن قد أضيفت إليه فيما بعد صفات الألوهية ، وتجسد فيه هو الآخر فشنو ، إله الآلهة عند الهنود . ومن هنا تحول « راما » من الشخصية الأسطورية إلى إله من الآلهة . ثم تحكى الأساطير أن « راون » — ملك سيلان — ذلك الذي خطف ميتا — زوجة راما — قد تجسد فيه « حران باكسو » ملك العفاريت ، ذلك الذي منحه الإله براهما سلطات واسعة وطاقات هائلة في هذا الكون . ولكنه أساء استخدام هذا الجميل ، واستخدم طاقاته في طرد الإله « إندرا » ونفى الآلهة الآخرين من مساكنهم ، وتجريدهم من سلطاتهم . ثم أعلن نفسه سيد هذا الكون وألغى عبادات الآلهة وفرض نفسه إله الآلهة . ولكن ابنه « برهلادا » كان على عكسه ، لأنه كان يؤمن بالإله فشنو ، ويقدمه ويعبده ، ويرفض الخضوع لوالده ، لينشر دين الإله فشنو في أرجاء بلاده . ولما عرف والده حقيقة عقائده ثار عليه وزاد سخطه ، واتخذ جميع وسائل الإرهاب والتعذيب لإبعاده عن عقيدته ، ولكنه فشل في كل محاولاته فشلا ذريعا ، لأن الآلهة كانوا مع ابنه ينصرونه ويمنعون عنه الأذى ، وذات يوم دار بينهما نقاش حاد عن الإله فشنو ، وتحدى الملك الإله فشنو ، ورفض الاعتراف بوجوده أو جبروته في هذا الكون وسأل ابنه : ولماذا لا يظهر فشنو أمامه ؟ ولماذا يختفى عن الأنظار ؟ ، ثم ركل الأعمدة المقامة في قصره بكل قواه وحطمها تحطيمًا ، وإذا بالإله فشنو يخرج من الأعمدة ويقف أمامه في صورة أسد ، ورأسه كرأس الإنسان ، ويقبض عليه بيده قبضا شديداً ، ويمزقه تمزيقا ، وبهذا انتهت أسطورته .

ثم تولى عرشه ابنه، ونشر مبادئ الإله فشنو، وظل على ذلك حتى وافته المنية ثم جاء ابنه من بعده، ثم حنيد، واقتنى كل منهما آثاره.

وتقول أسطورة أخرى إن «راون» الملك الشرير الذى كان يكن عداوة شديدة نحو «راما» اعترف به أخيراً، وقال: إنه لم يخطف سيتا وزوجته إلا لرؤية راما، وشوقه الزائد لياقى مصرعه على يديه، وذلك لينال النجاة والخلاص بعد الموت.

الديانة الجينية

لقد ظهرت الديانة الجينية كرد فعل عنيف ضد عقيدة التناسخ الكهنوتية التى ظهرت لإيجاد التفرقة الطبقة العنصرية بين الناس، وامتصاص دماء الشعب الدراويدى المغلوب على أمره، واستنزاف قواه ومواهبه لصالح أغراضها الشخصية وتحقيق مآربها الفردية وتوطيد سيطرتها على الناس أجمعين. كان «قارادامانا» (Vardhamana) منشىء هذه الديانة. قد ولد خلال عام ٥٤٠ ق.م فى بلدة «ويسالا». وهو كان أصلاً من الطبقة الثانية من الآرية، أى طبقة القواد والعساكر. وكان أبوه رئيساً كبيراً، وزعيماً بارزاً فى هذه الطبقة الآرية الثانية.

وقد ثار هذا الزعيم الدينى على العقيدة الكهنوتية التى أثبتت اتصال الروح بالجسد على الدوام، ودوران انتقالها وفق مفروضات قرروها لصالحهم وتحقيق مآربهم. وقد حاول ابطال مزاعم الكهنة فى هذا الصدد قائلاً: «إن الروح ما دامت تكون محبوسة ومقيدة بأغلال الجسد وسلاسله لن تصبح فى فسحة، ولن تتجرر لتنطلق إلى آفاق غير محدودة، ولن يتسع سلطانها، ولن تظهر عبقريتها وإن يتحقق نبوغها. وقد اعتكف هذا الإنسان العظيم لمدة اثنتى عشرة سنة واعتزل الناس جميعاً، ومارس رياضيات روحية شاقة، ثم وصل إلى هذه النتيجة المذكورة التى تحرر الروح من قيود الجسد ودوران التناسخ. ثم ظهر أمام الناس لينشر دعوته. وقد بلغ من عمره الآن الثانية والأربعين سنة، وأصبح مقدساً، وصاحب رسالة جديدة فى إطار الديانة الهندوكية. ثم واصل جهوده

فى نشر هذه الدعوة وظل يدعو الناس إليها ، وينتقل من قرية إلى قرية ومن بلد إلى بلد حتى استطاع تشكيل جماعة لأنصاره واتباعه . وقد سميت هذه الجماعة « الجينية » Jainism ، وهى مشتقة من كلمة « جينا » Jina ومعناها : المنتصر على العواطف والرغبات والمسيطر عليها . ولا تنص هذه الرسالة قد جاهد هذا القديس وناضل إلى أقصى الحدود . وعاش حياة بسيطة فقيرة وسط البؤساء والضعفاء . فلما توفى انقسم أتباعه إلى فرقتين متصارعتين ، وبالتالى إلى جماعتين متنازعتين واتخذ كل منهما شعارا ، مخصوصا ، فقد اكتست طائفة منها بكساء أبيض ، واكتست أخرى بكساء سماوى ، أى عاشت على الطبيعة بدون ثوب ولا كساء ، بل شبه عارية .

لأننا لانعرف على وجه التحديد دعوته تفصيلا ، ولكن ديانته الجديدة قد اشتهرت بعده بالقيم والمبادئ الآتية :

١- قد فرضت رياضيات وتدريبات جسمانية وروحية قاسية صارمة على أتباعها وأنصارها لعلوا الروح لتأخذ مكانتها الطبيعية ، وتسيطر على الرغبات والعواطف والشهوات ، واتبعت طريقا خاصا للتأمل والتفكير والاستغراق فى الله .

٢ - ألغت جميع أنواع القرايين ، بل منعت أكل اللحوم لجميع الحيوانات وذلك اشفافا على الحيوانات ورحمة بها .

٣ - حرمت جميع أنواع المنكرات والفواحش مثل الكذب والسرقة والزنا بل فضلت التجرد على الحياة الزوجية للتخلي عن جميع الفواحش والعوائق التى تسببها الحياة الزوجية وتحول دون الوصول إلى الغاية المنشودة .

٤ - ومن لم يرض بممارسة حياة القديسين والرهبان فى هذه الديانة صمحه به بممارسة الحياة الزوجية فقط ، وأما الأمور الأخرى فلم يستثن منها أحد .

٥ - قد خفضت الأدوات والاحتياجات التى يتطلبها الإنسان فى الحياة

اليومية إلى أدنى مستوى ، وفرضت على كل فرد ممارسة حياة بسيطة زاهدة للغاية ، ومنع من السعى وراء الحياة الفاخرة وطلب الكماليات التي تسبب جميع المشكلات في الحياة ، وتحمل الإنسان على طلب العوالى والمفاخر وبذل كل الجهود من أجلها ، ناسيا أو تاركا كل المبادئ والقيم الإنسانية .

ونتيجة لهذه التعاليم والقيود الصارمة تطورت هذه الديانة وسارت في اتجاه معين ، وبمرور الأيام قد انخفضت الحماسة لهذه الديانة ، وأصبح أنصارها معدودين . لقد ظل القديسون والرهبان على أمرهم ، وأما أنصار هذه الديانة واتباعها العاديون فلم يرضوا بالحياة البسيطة المتواضعة الزاهدة التي فرضتها عليهم هذه الديانة ، فأصبحوا من كبار ملاك الأرض والمصانع والشركات . وهؤلاء يشكلون الآن ربع مليون نسمة فقط من سكان الهند ، وذلك في ولاية واحدة وهي بومباي — مركز الصناعات والتجارة — ، ومعظمهم من كبار أصحاب الأموال . ولكنهم امتنعوا كلية عن أكل اللحوم ، وتبعاً لذلك امتنعوا — منذ البداية — عن ممارسة جميع المهن التي تؤدي إلى تربية الحيوانات وترويضها ، وبيعها ، وشراؤها وذبحها ، وتنظيف جلودها . ولذلك لانجد منهم أحداً يمارس مهنة الجزارة أو اصطياد الأسماك أو صنع الجلود وما إلى ذلك .

لقد قلنا من قبل إن هذه الديانة هي التي أثرت في جميع الهندوس للامتناع عن اللحوم وذبح الحيوانات وبيع جلودها ، ثم أعطت الديانة الهندوكية الأولوية للابقار في هذا الصدد ، وذلك كرد فعل لموقف غير النباتيين ممن لا ينتمون إلى الديانة الهندوكية . ثم خدع الكهنة الهندوكيين البساء بزعمهم أن الديانة الهندوكية تحرم ذبح الأبقار وأكل لحومها ، بل تقدس هذا الحيوان ، مع أن الديانة الهندوكية الآرية القديمة لم تنص على شيء في هذا الأمر ، ولم تفرض أية قيود على ذبح الحيوانات وأكل لحومها ، شأنها في ذلك شأن جميع الديانات الآرية مثل ايران واليونان وأوروبا كلها .

إن أتباع الديانة الحينية لا يتبعون الآن في تنظيمهم الحديث أصول هذه الديانة ومبادئها بحذافيرها ، بل لانجد عندهم الآن بتاتا البحث في تصور الله سبحانه والسعى وراء معرفته ، ويوجهون كل الاهتمام لاستمرار العلاقة بين الروح والجسد والمادية والمعنوية ، ويسعون للوصول إلى هذا الهدف ، ويمارسون كل التجارب لتحقيق هذه الغاية ، ولكنهم في نفس الوقت لا يلتزمون بالخطوط التي رسمتها الديانة من قبل وهي مزاوله التدريبات الجسمية والروحية الشاقة للتخلص من جميع الرغبات والشهوات .

بوذا : حياته وتعاليمه

وقد اختلف الباحثون حول عصر بوذا وتاريخ ميلاده ووفاته ، ولكن آخر نتيجة وصلوا إليها في هذا الصدد هو أنه ولد في عام ٥٦٠ ق م وتوفي في عام ٤٨٠ ق م وبهذا يكون بوذا معاصر المنشيء الديانة الحينية ، ولكنه نشر تعاليمه بعد جيل من وفاة صاحب الديانة الحينية . لقد ولد بوذا في ولاية بهار بالقرب من الهملايا ، وعلى مسافة مائة ميل فقط من « بنارس » تلك - التي تعتبر الآن مدينة مقدسة للهندوس - ، وذلك من عائلة آرية من الطبقة الثانية وهي جماعة القواد والعساكر . وكان أبوه ملكا صغيرا في تلك المنطقة ، وبهذا يكون بوذا أميرا ، وولد في بيت ترف ونعيم ، وتربى على النعيم وشب عليه . وقد بدأ حياته الأولى كأي أمير وتزوج فتاة جميلة كانت ابنة ملك مجاور له ، وهو لم يبلغ العشرين حينذاك ، ولكنه سرعان ما انقلب على هذه الحياة وما فيها من الترف والبذخ ، وأحس بمشكلات الناس ومتاعبهم وآلامهم ، ولا سيما طبقة البوساء والفقراء ، فقلق واضطرب ، وترك كل شيء في قصره ، وتوجه إلى غابه في الهملايا ، وهام فيها على وجهه سنين ، واتخذ مكانا فيها للتأمل والتفكير والاستغراق في البحث على نور وضياء يهتدى به ، وذلك لإذهاب آلام الناس وأحزانهم . وبعد ست سنوات انشرح قلبه ولاحت له أضواء كاشفة فخرج على ضوئها ونورها من التأمل والتعبد متجها

إلى عاصمته لنشر دعوته ومبادئه التي انشرح لها قلبه ، واطمأنت بها نفسه .
وقد حيكت حكايات وقصص كثيرة حول ولادته ومعجزاته منذ
صغر سنه ، وجهوده وتعبه في الغابة أيام التأمل والتعبد . وكل هذه
الأمور توحى إلينا بأنه قد انتهج طريقة وحدة الوجود واليوجيه والبهاكتية
على السواء ، ومارس التدريبات على نفي الذات . فقد استفاد في بداية
عمره بالغابة من الرهبان المنعزلين والمولعين بحب الله وذاته ، وكذلك
صاحبه بعض رفقة في هذه الرحلة ومارسوا نفس التجارب في مكان
آخر في نفس الغابة ، ولكتهم ظلوا منعزلين ومتأملين ، ولم يصلوا إلى
النتيجة ، ولكن بوذا وحده قد كلل بالنجاح في رياضاته الروحية ومتابعه .
ومن هنا تعلم بوذا عقيدة نفي الذات ، وقتل الأنانية ، تلك التي ظل ينشرها
بين الناس طوال حياته ، الأمر الذي صارت من أبرز معالمه الدينية . ولما عاد
بوذا من الغابة كان ميكلا من العظام ، ولم يبق شيء من اللحم في جسده .
بسبب معاناته الجوع والعطش والمتاعب والمشاق طوال ست سنوات .
لقد اختار بوذا لنفسه ازياء الیوجيين منذ مغادرته قصره ، فلما عاد
من الغابة ظل عليها ، وهي عبارة عن كساء يكتسى به جسده كله .
وقد أصبح نفي الذات محور التعاليم عنده . ولم يكن معنى ذلك أنه دعا
الناس إلى مغادرة البيوت والاهل والمال ، والتوجه إلى الغابات والجبال
لممارسه التجارب الصوفية واليوجيه والبهاكتية ، بل أعطى لنفي الذات معنى
عمليا متحركا ، يمكن تطبيقه في حياة كل فرد وفي كل عصر . فكانت
النتيجة التي وصل إليها من خلال تجاربه أن الآلام والأحزان والمشكلات
التي يعانيها كل فرد في الحياة سواء أكان فقيرا أو عاجزا أو غنيا إنما
سببها زحمة الآمال والأمانى والرغبات والشهوات التي تراود الانسان
وتحتضنه دائما . وحينما يفشل الإنسان في تحقيق هذه الغايات يألم ويحزن
ويأس ، ويعاني أنواع المتاعب والإرهاق الجسدى والنفسى . ولأجل
ذلك ينبغي له ممارسة الضغط على هذه الأمانى والرغبات بل والسيطرة
عليها والقضاء على الذات والأنانية وإبادته ليعيش سعيدا فرحا في الحياة .

وقد ذكر بوذا أربعة أمور في أول موعظة له في مدينة بنارس وهي :

١ - ما هي حقيقة المشكلة وما هو سر كل الأمراض ؟ الولادة داء ، والعجز والشيخوخة داء ، والمرض داء ، والموت داء . وإذا مس الإنسان ما لا يرضاه يعاني مصيبة ، وكذلك تقلصه من الرغبات مصيبة ، وإذا لم تتحقق طلباته يعاني الآلام ، وبهذا يظل يعاني الآلام والمصائب والمشكلات .

٢ - إذا ما هي الحقيقة ، وما هو سر هذا الداء ؟ هي تلك الرغبات والشهوات التي تحمل على التناسخ والظهور من جديد بعد فناء هذا الجسد ، وبصورة جديدة ممتازة عالية ، ويصحب هذه الرغبة أنواع من الحـرـص والطمع والطموح جادة في البحث عن وسائل تحقيقها في كل مكان . وفي عبارة أخرى : شهوة تحقيق الرغبات الجنسية وممارسة التجارب من أجل خلود الذات وبقائه ، ورغبة الموت لتحقيق هذه الغاية .

٣ - ما هو إذن العلاج إذن لمنع هذه الأمور والحيولة دون حدوث هذه المشكلات والآلام ؟ وعلاجها منع جميع الرغبات والآمال والأمانى والتخلص منها نهائياً ، وإنكار الذات مطلقاً ، وإلقائها والتحرر من الذات بكل الوسائل وقطع جميع الصلات بها .

٤ - وما هي الطرق التي توصل إلى منع جميع الأحزان والآلام ؟ هي تتضمن في ثمانى نقاط هامة وهي الطرق الحقيقية الموصلة إلى هذه الغاية المنشودة : (١) اتجاهات صادقة سليمة (٢) رغبات صادقة (٣) كلام صادق (٤) سلوك طيب (٥) معيشة طيبة (٦) جهود مخلصة صادقة (٧) تفكير صادق سليم (٨) تركيز صادق سليم .

وهذه الأمور الأربعة هي التي أصبحت جوهر الديانة البوذية على مدى العصور ، وعلى ضوء هذه الأمور البسيطة العملية الساذجة الإيجابية يرى

الباحثون أن الديانة البوذية ليست فلسفة إطلاقاً ، بل هي رياضة وعمل .
وقد اعتمد بوذا منذ أول وعظه على العمل لتحقيق مبادئه ، ثم شرح
هذه الأمور بأسلوب بسيط ، وعلى طريقة الحوار في تسلسل وترتيب
طبيعي ، ومراعاة لكل الجوانب النفسية والإنسانية .

لقد اعتقد بوذا أن عقيدة التناسخ هي أم الحباثت واس المشكلات
والآلام والويلات . ولذلك حاربها بكل الوسائل في تعاليمه ، وبهذا
تكون دعوته ثورة على الكهنوتية الآرية والسيطرة الطبقية ، ومع أنه
هو الآخر كان من الآريين من الطبقة الثانية ، إلا أن تعاليمه شملت
جميع الأجناس والطوائف والطبقات ، واستهدفت توفير السعادة لجميع
هؤلاء ، وقصدت تحطيم جميع الأغلال والسلاسل والقيود والموانع
الحائلة في طريق الوصول إلى الهدف المنشود . ونتيجة لذلك دعت
تعاليمه إلى الضرب بجميع أنواع الطموس والقرابين — رضى الحائط ،
والاكتفاء بالتجارب العملية لتنقية الروح وتهذيب النفس وتربية الأخلاق
الفاضلة والتدريب على السلوك الممتاز .

وقد وجه بوذا عناية كبرى إلى الناحية الأخلاقية والمبادئ السامية .
إن المبادئ العليا والטהارة الروحية عنده تتضمن الأمور الآتية : الوفاء
والإخلاص في الحياة الزوجية ، وإباحة أكل اللحوم للعيش والغذاء
(بخلاف الديانة الهندية التي حرمت اللحوم) ، وتحريم المسكرات
والمخدرات ، وتحريم القمار ، وعدم الاندفاع في التجميل وطلب المعالي
والكماليات ، وعدم التطواف في الشوارع بدون ضرورة ، وعدم ممارسة
حياة الكسل والبطالة ، وعدم مصاحبة الأشرار وملازمتهم .

ومن المعروف أن بوذا قد شن حرباً شعواء على عقيدة التناسخ .
ولكن هذه الناحية تجلت فيما بعد بصورة سلبية وهي أنه قد أحاط
الغموض فيما يتعلق بعقيدة الآخرة في البوذية . ولا شك أنه أبطل التناسخ

ودوران الروح ، ولكنه لم يأت ببديل إيجابي للتناسخ كما يبدو لنا من قراءة آثاره . ولا نعرف على وجه اليقين : ماذا كان يعتقد عن الروح بعد مفارقتها الجسد الإنساني فور الموت ؟ وما لاشك فيه أنه لا يعتقد وجود الروح على حدة منفصلة دون التصاقها وارتباطها بالجسد ، ولكن ماذا يحدث بعد الانقطاع بينهما ؟ يعتقد الباحثون أنه كان يؤمن بنوع من البرودة بعد الموت ، أى لاهياة ولا موت ، ولا بعث ولا نشور ، ولا ثواب ولا عقاب ، وفي نفس الوقت لا عدم ولا فناء . ولكن هذه الحالة في نفس الوقت تكون عظيمة وعميقة وغير محدودة ، ومثلها مثل البحار العميقة الأغوار . وهذه العقيدة هي التي تسمى في البوذية « نرڤانا » (Nirvana) .

ومن الجدير بالملاحظة أن تعاليم بوذا قد سادتها أنواع من الغموض والملايسات . والسبب في ذلك أن تعاليمه كانت تتناقضها الألسن اعتمادا على الذاكرة قرابة أربعة قرون . وفي خلال هذه المدة الطويلة أضيفت إلى عقيدته وتعاليمه إضافات كثيرة ، ونسبت إليه أمور عديدة ، وكما نسبت إليه عشرات من الكتب . وقد ثبت فعلا ثبوتا علميا وجود الخلط والتحريف في كثير مما يروى عنه وينسب إليه . كما لا نملك دليلا قاطعا على تأليفه كتابا واحدا من بين عشرات من الكتب المنسوبة إليه . ومن هنا يعتقد بعض الباحثين الأفرنج أن ما نسب إليه من عقيدة سلبية عن الآخرة قد أضيفت إلى ديانته ، ونسبت إليه بعد وفاته بقرون . وكذلك عرض بوذا نفسه فيما بعد في صورة إله قد تجسد فيه فشنو ، كما تجسد من قبل في راما وكرشنا .

وكذلك تثار مشكلة أخرى فيما يتعلق به وديانته ، وهي أننا لانجد في تعاليمه ومبادئه أثرا يدل على إيمانه بإله واحد أو عدة آلهة أى بالتوحيد ولا بالوثنية . وهذا الأمر يذهب بنا إلى كثرة الظنون حول شخصيته :

ومن هنا اعتقد بعض الباحثين أنه كان وجوديا (أى ملحدآ) : ومن ثم لا يحاول أحد من البوذيين الخوض والتفكير في الله ووجوده وذاته مطلقا ، وواجبات الانسان نحو الله في حياته . لأن بوذا لم يدع إلى هذه الأمور ، ولم يكلف أحداً بالخوض في هذه المسائل التي لاتعنيه ولا تجديه في الحياة .

ولكن هذه تهمة وجهت إلى بوذا ظلما وزورا ، لأن أتباعه بسبب مواصلة عملية الإضافات والتعديلات في دينه قد شوهوا معالم عقائده ، وجعلوها مشكلة إنسانية مادية فقط ، وهي تحرير الانسان من جميع أنواع العبودية ؛ وتخليصه من قيود دوران الروح ، وحل مشكلاتها وآلامه بعمل ايجابي وتجارب عملية عن طريق ممارسه الضغط على الذاتية والأنانية . إن الاتحاد أو الوجودية يوجب إنكار الله وقدرته وجبروته صراحة ووضوحا . ولكن فيما يتعلق ببوذا - على الرغم من كل التشويهات في أقواله وكلامه - فلا يوجد نص صريح يدل على إنكاره الله ، بل كل ما نراه هو موقف الصمت الرهيب والسكوت الكامل إزاء الله ، لا نفى ولا اثبات ، موقف سلبي تماما ، شأنه شأن « نرقانا » عقيدة الآخرة .

البوذية في عصر بوذا

ومن المعروف أن بوذا قد اتخذ حياة الزهد والتقشف والتنسك منذ عودته من الغابة . فقد توفيت زوجته قبل عودته من الغابة ، فلم يتزوج ثانية ولم ينجب ، ولم يتخذ له مسكنا رغم أنه كان يملك العرش كله ، كان يلبس كساء اليوجيين والرهبان . وإذا حل في أية قرية لنشر دعوته كان يوفر له أهلها المسكن والمأوى والأكل والشرب له ولحواريه . ولم تنشأ الأديار طوال حياته ، لأنه لم يدع الناس إلى الرهبانية كما حارب جميع الطقوس التي تؤدي في المعابد الهندوكية ، ولذلك لم يكن داعيا إلى إنشاء الأديار والمعابد لأتباعه ، وناهيك بحياة التنقل والتجول التي مارسها طوال حياته دون راحة أو سكون ودون قرار أو مستقر . لقد

كسرس حياته كلها في إنقاذ البشرية من ويلات الآلام والأحزان والمشكلات بالطرق السلمية الإيجابية . قد أعجب به كثيرون من الشبان والكهول ، من الرجال والنساء ، ولازمه هؤلاء على الدوام ، وحاولوا اقتفاء أثره في كل شيء ، في اللبس والأكل والشرب والسكن والمأوى . وقد كان هؤلاء الحواريون يزاولون تدريبات روحية ، ويجمعون في مكان بين حين وآخر لمذاكرة تعاليم بوذا وتطبيقها عملياً على أنفسهم . ومن النظم التربوية السائدة في مدرسة بوذا الروحية المتنقلة أن حواريه كانوا يعقدون الاجتماعات غيباً بينهم ، ويقومون برحلات روحية للتدريب على تعاليمه ، وتنقية الروح من الأوثان ، ويعلنون على مسمع من الناس ومرأى منهم ذنوبهم التي ارتكبوها حتى لا يعودوا إليها مرة أخرى .

فلما كثر عدد أتباعه في كل قرية ، اتبع هؤلاء نظام المجالس القروية الموجودة في كل قرية منذ القدم أي منذ قدوم الآريين إلى الهند ، وحاولوا عرض الأمور الدينية والدنيوية التي تعترضهم بين حين وآخر في هذه المجالس لحلها عن طريق المناقشة الحرة . وكانت القرارات تتخذ بالإجماع ثم تنفذ . وكان ينتخب أعضاء المجالس من بين الرهبان أنفسهم . وبهذا قامت الأديار رويداً رويداً ، وتلتها التنظيمات السياسية والطرق التبشيرية في البوذية .

وبما أن بوذا قد ركز جهوده كلها لحل مشكلات الناس وآلامهم كانت تسير دعوته في الحقيقة — من وجهة نظرنا المصرية — على خط الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي . وهذا هو السبب في أن بوذا لم يدع أتباعه إلى ترك الدنيا والتخلي عن شئونها ، واتخاذ الرهبانية في الحياة ، ومغادرة البيوت إلى الغابات لممارسة الحياة الصوفية واليوجية .

إن بوذا قد ترك في حواريه وأتباعه تأثيراً قوياً أبدياً . لذلك ظلت العلاقات متوطدة بينه وبين أنصاره دائماً وأبداً . وهذه العلاقات جعلت الدين والسياسة ينسجمان إنسجاماً كاملاً متيناً لا تنفصل عراهما أبداً كما أخذت رغبات التفوق بين أنصاره وشهوة الأناية والكبرياء والغرور

الداعين للحط من شأن الآخرين والتقليل من أعمالهم وجهودهم وفضائلهم ، بل خلقت في نفوسهم سباحة وودودة ورحابة صدر بشكل مذهل اعترافاً بفضل كل فرد منهم وتجاربه الروحية ، بل وعرضه عرض تجاربه في صورة مكبرة أمام الجماهير .

وعلى مرور الزمن وانتشار البوذية في أنحاء آسيا اتخذت البوذية لونا جديداً في كل مكان ، ولامح مخصوصة ، وتجاوبت مع طبيعة كل منطقة وروحها الأصيلة وتقاليدها وتراثها . فالبوذية في الهند وسيلان وبورما والصين واليابان ليست على صورة واحدة ، وتنظيم واحد ، بل تختلف ملامحها اختلافاً شامعاً . ويرى الباحثون أن البوذية في سيلان هي أقرب صورة إلى بوذا بالنسبة إلى البوذية في الأقطار الأخرى من الدنيا .

لقد رسمت صورته فيما بعد ونحت له تماثيل اعجاباً به وتقديساً له ، ثم دعا هذا الإعجاب به لمنحه صفات الألوهية واتخاذها لها متجسداً فشنو فيه .

ومن الحدير بالذكر أن القرن الذي ولد فيه بوذا ونشرت تعاليمه كان عصراً بكرأ خصباً للعالم أجمع . فقد ظهرت في العالم المعاصر له ديانات ودعوات مماثلة له . قد ظهر أنبياء كثيرون في فلسطين وأنذروا بني اسرائيل بسبب جرائمهم التي ظلوا يرتكبونها وتنبثوا بسقوط بيت المقدس وبعلاء اليهود من أرض فلسطين ، ذلك الذي تم فعلاً في حدود عام ٥٨٧ ق م حينما أجلى ملك بابل اليهود من فلسطين . وكذلك ظهر زرادشت في إيران ونشر تعاليمه كما ظهر في الصين «كونفيوشس» وأنشأ دينه الجديد . ولكن لا نجد ثمة أثراً يثبت أن بوذا تأثر بالديانات السامية في الشرق الأوسط ، أو كان للديانة البوذية أثر في ظهور الأديان في كل من إيران والصين . لأن طبيعة هذه الأديان وأهدافها ورسالاتها واجوائها تختلف اختلافاً كبيراً .

البوذية بعد وفاة بوذا

لقد أشرنا من قبل أن البوذية قد أجريت فيها تعديلات كثيرة بعد وفاته. إن الحركة البهاكتية الدراويديه الأصل قد أعجبت ببوذا وتعاليمه أعجاباً شديداً ، وذلك من ناحيتين : أولاً أنها تهدف القضاء على عقيدة التناسخ الكهنوتي ، كما استهدفت البهاكتية القضاء عليها كذلك ، وثانياً : أن البوذية تقضى على النظام الطبقي العنصرى ، وتدعو إلى إيجاد المساواة بين جميع البشر دون تمييز طبقي أو عنصرى . من أجل ذلك اعتبرت « بوذا » هو الآخر إلهاً قد تجسد فيه « فشنو » ، كما تجسد من قبل في رامنا وكرشنا . وبهذا دخل بوذا في طور جديد إلى البهاكتية ، ثم انتشرت هذه العقيدة في أنحاء الهند ، واعتقدت جميع الفئات الهندوكية أن فشنو قد تجسد الآن في بوذا . وتبعاً لذلك قد حيكت أساطير جديدة حول بوذا ، وهى أنه قد تشرف بالتزول إلى الأرض وقد تجسد فيه فشنو لهداية البشرية وانقاذها من آلامها وأحزانها . إنه يكون موجوداً دائماً في هذا الكون ، إما على هذه الأرض أو في السماء . ثم اسبغت عليه صفات رب العالمين والموجود الأزلى الدائم الأبدى ، ومحور العالم كله . وعرض على أنه هو محور الكائنات كلها ، وهو الذى يتخذ عدة أشكال وألوان كلما اقتضت الضرورة ذلك لهداية البشر والرفق بها ومساعدتها في محنها وآلامها .

تقول الأساطير إن بوذا قد مر بعدة أشكال ودخل عدة أجساد قبل ظهوره في شكله الأخير كالإنسان المنقذ الهادى . وقد كان يقوم في حياته الأولى بمهمة نشر تعاليم الآلهة في السماء ، وولد أخيراً في « كابيلفاستو » ابناً لملكها « ساكياس » .

وقد سميت الأساطير التى تتعلق بحياته قبل نيله « النور » « جاتا كاس » أو الوحي في أصبح التعبير . وهذه الأساطير كلها ليست بوذية أصيالة في صياغتها بل معظمها يعتبر مجموعة من القصص والأساطير التى كانت متداولة في الهند منذ زمن بعيد ، أو ظهرت بعد « بوذا » ، فاندجت أخيراً في « جاتا كاس » واتخذت ملامح وخصائص البوذية . فلما أخذت البوذية طريقها إلى الشرق

الأوسط في السنين الميلادية الأولى وقبلها بقليل دخلت فيها أساطير هذه البلدان واندجت فيها ، وهكذا ألقت كل الأساطير الهندية المتمثلة في البوذية وأساطير الشرق الأوسط في ساحة واحدة وتجاوبتا إلى أقصى الحدود .

وكذلك دخلت الأساطير البوذية الهندية الصين واليابان وبورما وسيلان عن طريق البوذية التي سادت هذه المناطق واستولت على عقول سكانها ، ثم انعكست فيها روح تلك البلدان وأساطيرها ، وبهذا ظهرت أساطير ممزوجة بالروح الشرقية كلها في مظهر الأساطير البوذية .

وهكذا تكون الأساطير الهندية قد لعبت دوراً كبيراً في الحياة الدينية والفكرية والأدبية في شعوب آسيا أجمع ، وتركت آثاراً بعيدة المدى في آدابها . ولم نزل نلمسها في آداب تلك الشعوب حتى الآن ، كما أخذت طريقها إلى أوروبا واندجت في الآداب اليونانية والرومانية كما سندكرها قريباً .

فرقتان بوذيتان : المهايانا والهيانيا

وبعد وفاة الامبراطور أشوكا — مبشر الديانة البوذية في الهند في سنة ٢٣٢ ق.م كما سندكره قريباً — ، ومن جراء الحركة البهاكتية قد ظهرت عقيدة جديدة بين البوذيين الهنود تسمى « المهايانا » Mahayana ، تلك التي أضفت على بوذا صفات الالهية ، وعرضته في صورة رب العالمين . وهذه العقيدة هي التي انتقلت إلى كل من الصين واليابان وانتشرت فيهما . ولكن جماعة أخرى ولا سيما البوذيين في سيلان قد عارضوا هذه العقيدة منذ البداية ، وصرحوا بأن « بوذا » لم يكن إلا بشراً قد جاء لهداية البشرية ، وآمن هؤلاء بالنصوص البوذية القديمة التي ألقت باللغة البالية — المناوئة للغة السنسكريتية — تلك التي تعرضه كبشر . وتسمى هذه الجماعة « الهيانيا » Hinayana . وان كانت هذه الجماعة من ناحية أخرى تحترم بوذا وتقده إلى أقصى الحدود : وقد وصلت إلى سيلان مبكراً كثير من آثار بوذا ومخلفاته من الهند وهي تتكون من طاس وناب وترقوة ، يقدسها البوذيون ، كما يقومون بال الحج إلى الأماكن التي ولد فيها بوذا بالهند وتربي واعتكف ونال النور ونشر تعاليمه .

الفصل الرابع

دخول الهند في طور الحضارة من جديد والتقاؤها مع العواصم الحضارية الكبرى في العالم

وبسبب الحياة الريفية والنظم البدوية السائدة في البلاد طوال العصور الآرية من وادى نهر الهند حتى ضفاف نهرى الجنجا والجمنا ، لم تقيم المنشآت المدنية ، ولم تشيد القصور والحصون ، ولم تصنع الأدوات الحضارية مطلقا . وإن ملحمة المها بهاراتا التى تصور المعارك الدامية بين الطائفتين الآريتين قبل القرن التاسع قبل الميلاد ، هى الأخرى تصور الروح البدوية السائدة فى الحروب مثل الاعتقاد فى الآلهة حتى اثناء المعارك ، وكذلك الأسلحة التى تلوح لنا من خلال ملحمة المها بهاراتا من القوس والرمح والخيل والعربات هى نفس الأسلحة الحربية التى حملها الآريون خلال عام ١٨٠٠ ق.م تقريبا ، حينما زحفوا على الهند . ولم يحدث فى هذه الأسلحة والتكتيك الحربى القديم أى تطور أو تجديد . وكل ذلك يرجع إلى الاسباب البدوية التى عاشتها الامة الآرية خلال هذه العصور حيث لم توجه فيها العناية إلا إلى تنمية الوجدان والفكر الصوفى والخيال المجنح الحصب نحو الآلهة وعرضه فى مختلف الاشكال والانواع البديعة ، تلك التى تبشر بوجود طاقات هائلة من المواهب الادبية فى الشعب الآرى ولدت خلال الملحميتين « الرامايانا والمهابهاراتا وسالت وفاضت وسقت الهند كلها.

لقد أوردنا من قبل أن كتب الفيدا واليوبانيشاد تشير بوضوح إلى وجود النظام الرينى الذى امتاز بطابعه الديمقراطى . لقد نحل فيه للشعب سلطات انتخاب مجالس القرى عن طريق الانتخابات الحرة . وكانت هذه المجالس تختار الملوك أو تعزلهم أو تعيدهم إلى العرش مرة أخرى . ولكن بعد قيام الدول المدنية الكبرى سلبت من أيدي الشعب جميع السلطات الديمقراطية ، وحلت مجالس القرى التى اسندت إليها سلطات اختيار الملوك أو عزلهم محلها.

ولم يبق الآن إلا تلك المجالس فقط التي كانت تنظر في قضايا الناس ومشكلاتهم وتحكم فيهم وتحل مشكلاتهم . وهذه المجالس القضائية الشعبية لم تزل تمارس نشاطها في معظم مناطق الهند ولا سيما في الهند الجنوبية .

إن المجالس التي ألغتها الدول المدنية الجديدة لم تمنح إلى الأبد ، بل أخذتها البوذية — فيما بعد — بحذافيرها وطبقها في الأديار التي أقامت في أنحاء البلاد ، حيث أنشئت المجالس على نفس الأنماط الريفية للنظر في الشؤون الدينية والاجتماعية .

لقد استطاع الآريون خلال عام ٨٠٠ ق.م قطع الغابات الكثيفة الموجودة على ضفاف نهري الجنجا والحمنا وإنشاء القرى والارياف ، وتطوير الحياة البدوية إلى الطور المدني الأول . وفي هذه المناطق السهلية قامت دولتان مدينتان خلال القرن السادس قبل الميلاد أولهما « كولاسا » ، في ولاية اتاربراديش وفق التقسيم الحديث للولايات الهندية ، وثانيهما « مجدا » في ولاية بهار . وفيما يتعلق بنظم الحكم في هاتين الدولتين تشير الدلائل إلى أنها كانت اوتوقراطية أو استبدادية متحالفة مع طبقة النبلاء أو الارستقراطيين وكبار ملاك الارض أو الاقطاعيين بالاضافة إلى الكهنة . لقد قامت هذه الدول في الحقيقة لاستنزاف الدماء والعروق من القوى العاملة من الفلاحين والعمال والتجار الصغار لحساب هؤلاء المتحالفين من العناصر الثلاثة . وبهذا نشأ هذا النظام الثالوثي على غير النهج الريفي الديموقراطي المعروف ، وسار على الطريق الماكى شبه الاستبدادي الدكتاتوري .

ثم استولت هذه الدول الكبرى المدنية على كثير من الدول الصغيرة الحرة في أنحاء شمال الهند ذات الصبغة الريفية والنظام الريفي . ومن نتيجة ذلك أن اتجهت البلاد ولأول مرة إلى التوسع والوحدة والشمول .

كانت الزراعة عماد الاقتصاد في البلاد في هذه الآونة . وقد ساعدها على ذلك وجود النهرين الكبيرين وروافدهما ، والمناخ المناسب لزراعة القمح والأرز بالاضافة إلى الرياح الموسمية والأمطار الغزيرة . ولكن استصلاح مزيد من

الأراضي عن طريق إزالة الغابات كان يتطلب امكانيات مادية كثيرة أخرى مثل شق الترع والبرك وإقامة السدود وخزانات المياه . وهذه الأمور كلها كانت تحتاج إلى حياة مدنية أكثر منها ميلا إلى الريفية . ولذلك اتجهت الحكومات إلى هذه النواحي منذ القرن السادس قبل الميلاد وازدهرت الزراعة ، ولا سيما زراعة الأرز ازدهارا كبيرا . وقد شغلت الحكومة عددا كبيرا من العمال لشق الأنهار والترع والبرك وإنشاء القناطر ، وبهذا ظهر نظام الري المتقدم في البلاد ، على غرار أية بلاد متقدمة مجاورة لها في تلك الآونة مثل العراق ومصر .

ولكن نظام الري قد تقدم إلى مستوى كبير خلال السنين ٣٢١-٢٩٧ ق.م في عصر الامبراطور شندرغبت موريا .

إن الأمة الآرية - كما أشرنا آنفا - لم تطور اسلحتها التي جلبتها من موطنها الأصلي قرابة ألف سنة . ومع أنها حملت الحديد إلى الهند ، ولكن لم تستخدمه في صناعة الأدوات والأسلحة . وكانت الأسلحة عندها عبارة عن القوس والرمح كما وجدنا في الملاحم . وعلى الرغم من وجود الخيول والعربات اللذان حملتهما من موطنها الأصلي ، فلم تجر فيهما تعديلات جديدة من الناحية الحربية . ولكن هذه الأحوال قد تبدلت رأسا على عقب منذ القرن السادس قبل الميلاد ، وقد صنعت اسلحة حديدية جديدة . وقد نسجت الهند في ذلك على منوال الشرق الأوسط ، فتوافرت لديها الأسلحة الحديدية المعروفة في تلك الآونة . وبالإضافة إلى ذلك انشئت قوات جديدة مسلحة مثل قوات المشاة والفرسان ، والغيت العربات في الشؤون العسكرية ، وحلت محلها أنواع من الخلل الحديدية كالدرع الواقية في الحرب . وكذلك استخدمت الأفيال إلى جانب الخيول . ومن المعروف أن غابات الهملايا الكثيفة كانت مزدحمة بالأفيال في كل العصور . وقد استطاع الآريون السيطرة عليها وترويضها وتدريبها على الشؤون العسكرية . وهذا التكتيك الحديد في الممنون الحربية ذلك الذي تقدم بشكل ملحوظ منذ القرن الرابع قبل الميلاد

قد غير مجرى التاريخ الهندى : فعندما قامت الحرب بين الهنود واليونانيين فى هذه الآونة أصبح اليونانيون فى ذعر وذهول شديدين لرؤية الأفيال فى المعركة تلك التى كانت تدوس اليونانيين وخيولهم تحت أقدامها وتذيقهم شر هزيمة فى المعركة . وبهذا استطاعت الهند الحاق هزيمة ساحقة لقواد الاسكندر ونوابه فى الهند أولئك الذين جربوا حظوظهم فى مواصلة مهام الاسكندر فى الهند بعد وفاته .

وكذلك شيدت الحصون والقلاع فى أنحاء المعمورة للحفاظ والتيقظ من الغارات الخارجية المفاجئة على البلاد . وهذه أول مرة تنشأ فيها القلاع منذ قدوم الآريين .

بقية اجزاء الهند طوال العصر الآرى

ولقد ذكرنا من قبل أن حضارة نهر الهند قد اتصلت بسكان جنوب الهند ، واستوردت من جبال نيلغرى فى مدراس الأحجار الثمينة . وكان الدراواديون يقطنون هذه المناطق وهم السكان الأصليون للهند . ولكن هذه المناطق كلها قد عاشت فى البداوة ولم تشم رائحة الحضارة . وفى العصر الآرى لا نكاد نسمع عنها شيئاً ، لأن الآريين هم أيضاً اختاروا الحياة الريفية والعزلة التامة عن بقية أجزاء الهند . إن ملحمة الرامايانا تسجل لأول مرة توغل الآريين إلى المنطقة الجنوبية التى كانت حافلة بالغابات ، كما أنها تسجل وجود السكان السود فيها ، وامتداد هؤلاء السكان من نفس الجنس الدراويدي إلى أقصى حدود جزيرة « سيلان » حيث كان يحكمها الملك « راون » ذلك الذى خطف « سيتا » زوجة راما بطل الملحمة . وبهذا تكون المناطق الجنوبية هى الأخرى قد تمتعت بالسكنى وبالحكومات الصغيرة على منوال القرى والأرياف ، وأنخذت هى الأخرى نفس النظام الريفي . ولكننا لا نسمع شيئاً عن دورها فى مجال الثقافة والحضارة ، بل عاشت على منوال الحياة البدوية الأولى مؤمنة بالسحر والطلاسم ، لأن « راون » كان ساحراً بارعاً وهو الذى نخدع

سيتا بسحره ، واتخذ صورة الغزال الجميل لخداع كل من راما وسيتا كما
تحكى الملحمة .

وعلى الرغم من الحياة البدوية السائدة فى هذه المناطق فقد كانت هذه
متصلة ببلاد الشرق الأوسط منذ حضارة نهر الهند ، وذلك بسبب خيراتها
الطبيعية السخية وأحجارها الثمينة الغالية وموانئها العديدة الممتدة من السند إلى
سيلان من جهة سواحل غرب الهند على بحر العرب ، وعلى سواحل الشرق
على خليج بنغال . وبهذا يبدو أن العلاقات التجارية بينها وبين بلاد الشرق
الأوسط لم تنقطع بعد اندثار حضارة نهر الهند . ولقد سجل لنا التاريخ رحلة
تجارية بين الهند وفلسطين واليمن أيام النبي سليمان وملكة ميبأ خلال السنوات
١٠٠٠-٩٠٠ ق . م ، ومن اليونان إلى ساحل بومباى ومالابار لجلب العاج
والأحجار الثمينة ، وتحكى المصادر اليونانية أن الصلات التجارية بين
الفينقيين فى لبنان والهنود كانت مستمرة والرحلات متبادلة والسفن الفينقية
كانت ترسو على سواحل غرب الهند على الدوام . ولما دخلت اليونان المجال
التجارى العالمى وامتدت رقعتها واتسع نشاطها ، حاولت هى الأخرى أن تتصل
ببلدان الشرق الأوسط والهند . وفى عام ٩٧٥ ق . م أرسل الملك
هيرام (Hiram) ملك صور (Tyre) فى لبنان أسطولاً تجارياً إلى الخليج
العربى ومنه إلى بحر العرب إلى الهند ليأتى بالعاج منها . ومن المعروف أن
الهند كانت غنية بالغابات والجبال ، حيث توافرت فيها الأفيال ، وشد
التجار رحالهم من أقصى بلاد العالم لجلب العاج منها . وكذلك حمل تجار
الأناضول القروود والطاووس من الهند إلى ملوكهم .

الهند والشرق الأوسط منذ القرن الثامن قبل الميلاد

ومنذ سقوط حضارة وادى نهر الهند انقطعت جميع الصلات بين الهند
والعالم الخارجى وذلك لأن الآريين أنشأوا نظاماً ريفية فى المناطق المفتوحة لهم
وأغلقوا على أنفسهم جميع الأبواب التى توصل إلى العالم الخارجى . وبهذا

ظلت الهند منعزلة ومنقطعة تماماً عن جميع بلدان العالم ، وبالأخص عن الشرق الأوسط . ولما دخلت الهند في طور الحضارة والمدنية في القرن الثامن قبل الميلاد ، وظهرت على مسرح الوجود بعض الدول على طراز مدني بدائي استؤنفت العلاقات القديمة مع الشرق الأوسط ، وتبوءت التجارات ، وبدأت الرحلات التجارية لنقل البضائع بين البلدين . وبهذا استطاعت الهند التجاوب مع الشرق الأوسط في هذه الآونة .

وإذا نظرنا إلى خريطة الشرق الأوسط منذ القرن الثامن قبل الميلاد نجدها على الوجه الآتي : إن العراق قد تقدمت تقدماً كبيراً في ظل الدولة الآشورية التي استطاعت ضم جميع الأراضي العراقية وذلك منذ عصر الإمبراطور شالما نصر (٧٢٧-٧٢٣ ق.م) ، ثم توغلت في قلب الشام وسمطت الدولة الإسرائيلية على يدها في عام ٧٢٢ ق.م ، واستطاعت بناء مجد عريق وحضارة متقدمة في أنحاء وربوع الشرق الأوسط ، ودخلت إيران في حوزتها بعد تلك الفتوحات ، وامتد نفوذها إلى مصر في عام ٦٧٠ ق.م من ناحية ، واليمن في أقصى الجزيرة العربية من ناحية أخرى .

وبعد مرور فترة على هذه الانتصارات الآشورية العظيمة انتعشت إيران ، وبلغت أقصى مجدها وقوتها في عهد ملكها العظيم داريوس الأول (٥٢٢-٥٧٦ ق.م) . فحلت محل الإمبراطورية الآشورية والكلدانية واستولت على العراق والشام وفلسطين وضمت إلى حوزتها مصر في عام ٥٢٥ ق.م ، وبهذا ظل الأمر إلى غزو الإسكندر العظيم - ملك اليونان - في عام ٣٣٤ ق.م ، ذلك الذي ظل يجوس بلاد الشرق الأوسط بمحافل جيوشه العظيمة لمدة عشر سنوات تقريباً ، واستطاع خلالها فتح جميع بلدان الشرق الأوسط ، كما استطاع شن غارات عديدة على الهند وفتح بعض المدن في ولاية السند ، ولكنه لم يستطع التوغل في قلب الهند ليصل إلى بلاد النهرين الحمنا والجنجنا .

وخلال هذه العصور نشطت التجارة والملاحة بين الهند والشرق الأوسط .

ولم تكن السفن الهندية تجرى في أنهار الهند والجنجنا والجمنا فحسب ، بل امتد نطاقها إلى البحار والمحيطات ، فقد ترددت سفنها بين بحر العرب والخليج العربي ، واتصلت اتصالاً وثيقاً ببلاد الاشوريين ، وتبوءت العلاقات التجارية بينهما ، وتردد التجار بين البادين على السفن . وكذلك توجد اشارات إلى امتداد نطاق التجارة إلى مصر في هذه الآونة بل إلى سواحل شرق افريقيا ، وكذلك امتدت هذه الرحلات إلى جنوب شرق آسيا من ناحية أخرى .

الهند وايران

ومن المعروف أن الآريين الهنود والإيرانيين قد نزحوا من موطن واحد وانتموا بذلك إلى أصل واحد وأسرة واحدة ، ولذلك وجدنا تشابهاً كبيراً بين لغاتهما في الكلمات والتعبيرات وهندسة تركيب الالفاظ والكلمات ، كما وجدنا كذلك ملامح متشابهة بين آلهتهما وعقائدهما . ولكن الهند الآرية لم تتصل بإيران حتى القرن السادس قبل الميلاد لأسباب ذكرناها . ولما صعد نجم الإيرانيين منذ عام ٥٣٩ ق.م في السياسة العالمية واصبحوا سادة الشرق الأوسط كله ، أثر ذلك بالطبع في الهند الآرية التي هي الأخرى قد استفادت من سباتها العميق حينذاك واتجهت نحو الامبراطورية والحضارة خلال هذه الآونة .

إن داريوس الأول العظيم حينما فتح معظم بلاد إيران إلى حدود افغانستان وقد اقترب إلى نهر الهند ، أرسل ضابطاً اغريقياً له اسمه « سيلاكس » (Syllax) في عام ٥١٠ ق.م لعبور نهر الهند ليحمل إليه معلومات كافية عن الهند ثم يرجع إليه عن طريق البحر الأحمر فنفذ الضابط أوامره .

وهناك دلائل تشير إلى أن مد الزحف الإيراني خلال هذه الآونة قد تصادم على جدران الهند من جهة جبال هندوكوش وتوغل في ولاية السند — مهد حضارة نهر الهند — وافتتح بعض المناطق الواقعة على الحدود فيها ،

وظلوا فيها يحكمون ردحا طويلا من الزمن إلى أن غزى الاسكندر تلك المنطقة . لأن الدول الآرية الواقعة على ضفاف نهري الجنجا والجمنا في ولايتي بهارواتاربراديش كانت على مسافة بعيدة شاسعة من السند ، ولم يستطع الايرانيون التوغل في قلب الهند للوصول إلى ضفاف النهرين ، كما أن دول الهند الصغيرة في قلب الهند لم تشعر بالخوف من جراء استيلاء الايرانيين على بعض المناطق السندية .

ظهور اليونان على المسرح العالمى واتصالها بالشرق الأوسط والهند

لقد اثرت حضارات الشرق الاوسط تأثيرا بالغا في اليونان وهى لم تنزل في بداوتها ، كانت حضارة جزيرة كريت والأناضول في الشرق الأوسط طرقات أولى لايقاظ اليونان من سباتها العميق لتظهر على المسرح السياسى والفكرى العالمى فيما بعد . وقد اتصلت الأناضول وآسيا الصغرى كلها ببلاد الشرق الأوسط في مصر والشام والعراق منذ القدم ، وتوطدت بينهما العلاقات ، وتوثقت هذه العلاقات منذ حكم الحثيون - وهم فرع من الأسرة الهندية الاوربية - هذه المناطق . ولقد تبودلت علاقات تجارية وثقافية وطيدة بين هذه البلدان كلها في هذه الآونة ، الامر الذى مهد السبيل لظهور اليونان على المسرح العالمى .

كانت « منطقة بحر الايجى » (Aegean) - وهى يونانية تقع على البحر من ناحية الشرق - على اتصال مستمر بالشرق الأوسط منذ عام ١٥٠٠ ق.م تقريبا ، ومن هنا نجد في المخلفات الأثرية في اليونان لهذه الفترة أدوات استوردت من مصر والشام .

من هم الاغريقيون أصلا ؟ هم في الحقيقة كانوا فرعا من الأمة الهندية الأوربية . وقد نزحوا إلى اليونان من موطنهم الأصلى في حدود عام ١٦٠٠ قبل الميلاد واستوطنوا جزر بحر ايجى والمناطق الأخرى لليونان . ولكن حياتهم كانت بدوية للغاية ، شأنهم في ذلك شأن الآريين الذين نزحوا إلى الهند

خلال عام ١٨٠٠ ق.م . وهؤلاء هم أيضا حملوا إلى اليونان من موطنهم الأصلي العربات والخيول والحديد . ولكنهم عاشوا متخلفين جدا بالنسبة إلى سكان جزيرة كريت - الواقعة بالقرب من قبرص - تلك التي تجاوزت مع بلدان الشرق الأوسط ، واستطاعت تطوير حضارتها على منوال الشرق الأوسط . وكذلك انتعش النشاط الحضارى في هذه الجزيرة ثم في آسيا الصغرى منذ احتلال الحثيين لهذه المناطق كلها وتوغلهم في قلب بلاد الساميين واستيلائهم على خيرات بلاد الشام ، وكل ذلك خلال عام ١٤٠٠ ق.م تقريبا .

لقد ظهرت أول حضارة في اليونان في « ميسينا » (Mycene) ، وذلك خلال عام ١٦٠٠ ق.م تقريبا . ويبدو من دراسة المخلفات الأثرية فيها أن سكانها الأوائل بدءوا حياتهم على غير طريقة الآريين الهنود ، ونعني بذلك أنهم شيدوا الحصون وطوروا الأسلحة ، وصنعوا أدوات حضارية كثيرة ، كما تجاوزوا مع الحضارة المينونية (Minoan) في جزيرة كريت إلى أقصى الحدود ، واستوردوا منها أدوات حضارية كثيرة ، وظهرت فيها حكومة مدنية دون علاقة لها بالكهنوتية . لقد وجه هؤلاء منذ بداية الأمر عنايتهم البالغة نحو تطوير الملاحة والاساطيل البحرية . لقد اختلف الباحثون في هذا الأمر ما إذا كان هدفهم من تطوير الاساطيل ممارسة أعمال القرصنة ، أو توسيع النطاق التجارى إلى أقصى بلاد الشرق الأوسط ؟ وأيا ما كان الأمر ، فقد بدأت اليونان حياتها السياسية على خلاف خط الآريين الهنود منذ البداية ، واتجهت إلى الصناعة والتجارة والشئون العسكرية وتوطيد العلاقات مع البلدان الأخرى . وبدأت اساطيلها وسفنها تسير في البحر متجهة إلى جزيرة صقلية وشاردينيا وإسبانيا وإنجلترا من جهة ، وإلى جزيرة كريت وقبرص وآسيا الصغرى ومصر ولبنان وسوريا من جهة أخرى . وقد ظل الأمر على ذلك حتى عام ١٤٠٠ ق.م . وهؤلاء هم الذين بدءوا ممارسة أعمال القرصنة ضد مصر وفلسطين منذ عام ١٣٠٠ ق.م . تقريبا

وواصلوا هذه العمليات قرابة قرن، إلى حين استعادت مصر قواها المنهارة وقدرت على إلحاق ضربات قاضية على أعمال القراصنة وذلك خلال عام ١٢٠٠ ق. م تقريباً .

ومن المصادفات الغريبة أن دولة ميسينا قد واجهت هي الأخرى أشد المحن حينما تدفقت على البلاد أمواج هائلة من سكان الشمال البدوين ، واستولوا على مقدراتها ، وتولوا مقاليد الحكم فيها ، وهؤلاء هم «الدوريون» (Dorians) ، الذين كانوا أيضاً من أصل الأمة الهندية الأوربية التي استوطنت تلك المناطق مبكراً . وقد استولى هؤلاء على ميسينا ، ثم اتجهوا إلى الشرق الأوسط وأخضعوا لنفوذهم كريت والأناضول ، وتم ذلك كله خلال السنين ١٣٠٠ - ١٠٠٠ ق. م .

ثم تبدأ صفحة جديدة من تاريخ اليونان منذ عام ١٠٠٠ ق.م وتستمر حتى عام ٦٠٠ ق.م . وخلال هذه القرون ظهرت دويلات كثيرة في اليونان ومن أهمها : أرجوس (Argos) واسبارتا (Sparta) وأثينا (Athens) ، ثم استطاعت كل من اسبارتا وأثينا القضاء على جميع دول الطوائف ، وانضمت إليهما جميع بلاد اليونان ، مع جميع خصائصه ومميزاته ، وهما اللتان ظهرتتا على مسرح الوجود والحضارة في السنين القادمة . ومن الجدير بالذكر أن اليونان قد اتصلت بالفينيقيين - الأمة السامية في لبنان وسوريا حينذاك - اتصالاً وثيقاً ، وأخذت عنهم الحضارية والأدوات الحضارية مثل الكتابة والحروف وما إلى ذلك ، وبهذا استطاعت تطوير حضارتها وثقافتها واستقلالها في هذا المجال فيما بعد .

ومنذ عام ٥٣٠ ق.م دخلت اليونان في مرحلة جديدة ، وظهرت فيها الآداب والفلسفة والعلوم والفنون ، وتطورات فيها إلى أقصى الحدود ، واستطاعت بفضلها جذب أنظار العالم إليها ، وإعطائها أكثر مما أخذته منها لبناء الحضارة العريقة وثقافتها العظيمة . وفي الحقيقة قد تجسدت في اليونان

خلال هذا القرن جميع معارف الدنيا وعلومها وفنونها ، وانتقلت إليها ألوية الحضارة كما كان يحملها من قبل العراقيون والمصريون والهنود . وهكذا تنتقل ألوية القيادة من أمة إلى أمة على حسب صلاحيتها لتحملها ومواهبها لتطویرها وجهودها لنشرها .

الهند واليونان قبل غزو الاسكندر

إن « هرودوت (Herodotus) » — المؤرخ اليوناني الشهير المتوفى في عام ٤٨٤ ق.م — قد أورد في تاريخه بياناً كافياً عن الهند . وهو وصف الأمة الآرية فيها وصفاً صحيحاً حينما قال : إنها تنسم باللون الأبيض كالمصريين . ويتحدث عن الحيوانات الهندية مثل التماسيح ، ويذكر قصص الهند الشهيرة . إن القصص الهندية التي يتحدث عنها هرودوت في كتابه يتضمن الكثير منها كتاب « كليلة ودمنة » أشهر مجموعة قصصية نقلت إلى الفارسية ، ومنها إلى العربية فيما بعد . وقد اشتهرت في عصره في اليونان مجموعة قصصية تسمى « قصص أيسوب » (Aesop) . كان أيسوب عبداً إغريقياً . ومع أن كتاب « كليلة ودمنة » قد دون في القرن الثاني قبل الميلاد ، إلا أن جذوره ترجع إلى مئات السنين قبلها كما يرى الباحثون الافرنج ، وكانت قصصه تنقلها الألسن وتحفظها الصدور حينذاك . ولذلك أخذت طريقها إلى اليونان مبكراً . ويصرح هرودوت وغيره بأن الهند هي مهد القصص . ومنها انتقلت القصص إلى معظم بلدان العالم ، ولا سيما تلك القصص التي تروى على لسان التمساح والطاؤوس والثعلب والأسد والحيوانات الأخرى . كذلك وصف هرودوت طائفة هندية تمتنع عن أكل لحوم الحيوانات . وهذا يدل على أنه كان على علم من الديانات الهندية التي ظهرت في تلك الآونة مثل الحينية ، ثم البوذية ، ومن المعروف أن بوذا كان معاصر هرودوت وتوفي قباه بأربع سنوات فقط .

ثم وصف الهند رحالة أغريقي آخر يدعى « سى سيا » (Chesia) الذي

ولد بعد هيرودوت بقرن تقريباً . ومع أنه لا يصل إلى مستوى هيرودوت في الوصف والعلم إلا أنه أورد كثيراً من الحقائق عن الهند . وبهذا يكون كل من الهند واليونان على علم تام بالآخر ، وكما تبودلت بينهما المعلومات والمعارف والقصص مبكراً . ومن المعروف أن الهند قد خرجت في هذه الفترة عن صمتها وسكونها وحياتها المنعزلة وفتحت نوافذها لتطل على الحضارات العظيمة في الشرق الأوسط واليونان . كان هيرودوت على علم بعميقة التناسخ . وقد عبر عنها الفيلسوف اليوناني فيثاغورس (Phycagoras) : ٥٨٢-٥٠٧ ق.م) من قبله . ويعتقد الباحثون الافرنج أن هيرودوت قد أخطأ في عزوه هذه العقيدة إلى المصريين ، لأن الهند هي التي خلقتها لتثبيت نظريتها الكهنوتية المبنية على الطائفية العنصرية كما وصفنا بدقة من قبل . ومن الهند انتقلت هذه النظرية إلى إيران في عهد زرادشت وكذلك إلى مصر وكثير من بلدان العالم ومن بينها اليونان . ويؤكد الأستاذ راوليسون : إن ما أخذه فيثاغورس من النظريات الهندية في الهندسة والديانات والفلسفة والرياضيات أكثر بكثير مما أخذه من مصر . وقد تأثر فيثاغورس هو الآخر من الحبيزية حينما امتنع عن أكل اللحوم وإيذاء الحيوانات وانتهاج طريقة النباتيين . وكذلك يرى راوليسون أن عقيدتي التناسخ وكارما الآرية - المذكورة فيما سبق - كانتا عماد فلسفة أفلاطون (٤٢٤-٣٤٧ ق.م) (Plato) . كما أن أفلاطون قسم الإنسان إلى أربع طبقات في كتابه « الجمهورية » على غرار تقسيم الكهنة الآريين الهنود كلهم إلى أربع طبقات من قبل . إن قصة خلق الكون التي يرويها سقراط شبيهة بالقصص الواردة في كتب الفيدا الأخيرة . ويذكر أن سقراط لما شرح الفاسفة - بناء على سؤال وجه إليه بعض تلاميذه - انفجر واحد من الهنود الحاضرين في مجلسه ضحكاً . وهذا يدل على أن اليونان - مهد الفلسفة والمنطق - كانت متصلة بالهند - مهد الحكمة والتصوف .

الاسكندر والهند : والتقاء الحضارات العالمية في ساحة واحدة لأول مرة

ولما امتد سيل غزوات الاسكندر إلى أقصى حدود إيران ، وجاست خيوله تلك الأراضي الشاسعة وضمها إلى حظيرة الامبراطورية اليونانية لم تكن هناك مسافة بعيدة بين الهند وإيران . فتدفقت خيوله على بلاد الهند عن طريق جبال هندوكوش في عام ٣٢٦ ق.م ودخلت الهند وفتحت وادي نهر الهند . ولكن هذا الغزو العسكري وإن جاب ويلات لتلك المناطق ، إلا أنه أعطى فرصة ذهبية لالتقاء خصب بين ثلاث حضارات آرية ، نبعت وعاشت وواصلت جهودها منفردة حتى هذه الآونة وهي اليونانية والایرانية والهندية . بالإضافة إلى هذا اللقاء الثقافي والفكري الخصب بين الفكر الآري . مهد هذا الغزو السبيل — لأول مرة — للقاء مباشر بين أقدم الحضارات الإنسانية في الشرق الأوسط وهي حضارة أرض الرافدين ومصر ، لأن جيوش الاسكندر اخضعت هذه المناطق كلها لسيطرته .

لم يصحب الاسكندر معه جيشه الجرار فقط إلى الهند بل رافقه أيضا في هذه الغزوات كلها عدد من العلماء والفلاسفة والمؤرخين اليونانيين . وقد قيل أن أرسطاطاليس أعرب عن رغبته في مناقشة أحد الفلاسفة الهنود في النظرية الهندية المتصلة بموضوع ما وراء الطبيعة . ويؤخذ من بعض القصص السائرة أن الاسكندر — تحقيقا لرغبة أستاذه ومعلمه أرسطاطاليس — قد اصطحب معه عند مغادرته الهند عددا من العلماء الهنود . وبهذا تم التبادل الفكري والعلمي بين البلدين ، كما فتح الطريق لاتصالات زائدة متكررة مباشرة بينهما في المستقبل .

وقد كانت اقامته في السند في بلدة سميت « تاكسيلا » . وقد صارت هذه البلدة في تلك الآونة مركز الفكري الآري في تلك المناطق ، واشتهرت بكثرة طلاب القيدا ، واساتذتها وعلمائها . وبهذا تسنى للاسكندر والعلماء المرافقين له الاتصال بهؤلاء ، وفهم الديانات الآرية وكتبها . لقد كان

الأمير الهندي « بورس » (porus) أول من واجه الاسكندر في تلك المنطقة ، ونال شر هزيمة على يده ، وذلك على ضفاف نهر هيداسبيس (Hydaspes) ، ثم توجه الاسكندر إلى قبة نهر الهند ، وأنشأ فيها حصنا حصينا له وشيد اعمدة وأنشأ مستعمرة يونانية ، نظرا إلى أنها كانت منطقة استراتيجية بالنسبة إلى الحكم اليوناني في الهند . ولكنه لم يرض التوغل في قلب الهند للزحف على دول وادي النهرين الجنجا والحمنا ، بل توجه إلى العراق قاصدا إلى بلاده في أكتوبر سنة ٣٢٥ ق.م ولكن المنية لحقت به في العراق في عام ٣٢٣ ق.م ، وبهذا انتهت أسطوريته .

ظهور أول امبراطورية بقيادة شندر غبت

لقد ذكرنا من قبل ظهور أول دولة شبه مدنية في ولاية بهار سميت « مجدا » ، بالاضافة إلى دولة أخرى شبيهة بها في ولاية اتاربراديش في نفس الآونة وهي « كوسالا » . ولكن مجدا قد اتبعت لها فرصة الازدهار والتقدم أكثر من أية دولة أخرى شبيهة بها في نفس المنطقة . ولعل اكبر سبب لذلك ظهور « بوذا » في إحدى القرى المجاورة لمجدا ، وانتشار دعوته في انحاء البلاد ، وتدفق الناس على مجدا موطن « بوذا » للزيارة والتميم . وقد تولى عرشها ملك عظيم عقب عودة الاسكندر من السند وهو « شندر غبت » في عام ٣٢٢ ق.م ، وظل يحكمها إلى أن وافته المنية في عام ٢٩٨ ق.م وقد كان هذا أعظم من ملك الهند حتى ذلك الوقت . لقد راودته ولأول مرة فكرة توحيد البلاد كلها وإنشاء امبراطورية عظيمة على غرار الامبراطوريات السابقة في الشرق الأوسط . ولعل فتوحات الاسكندر واتصال الهند باليونان ومن قبل ذلك كان اتصالها بالعراق في ظل الاشوريين ثم إيران أوحى له فكرة إنشاء امبراطورية في الهند كما يرى الباحثون . فقد بذل هذا الملك المستحيل في توحيد البلاد ، وتطويرها في شتى المجالات : التجارية والزراعية والثقافية . ولذلك شن سلسلة من الغزوات للقضاء على دول الطوائف المنتشرة في انحاء شمال الهند مبتدئا .

من ولاية بهار ومنهيا ببنجاب والسند . لقد أصبح له من الضروري مواجهة
لنائب الاسكندر وحاكمه في ولاية السند وهو « سيلوكوس نيكاتور »
(Selucus Nicator) . لقد حاول سيلوكوس - في هذه الآونة - مواصلة
غزوات الاسكندر داخل الهند والتوغل في قلب الهند لغزو عاصمة
« شندر رغبت » . ولكن شندر رغبت كان أقوى وأشد من واجهه سيلوكوس حتى
ذلك الوقت . فلحقته هزيمة ساحقة على يد شندر رغبت . وكاد شندر رغبت
يطرده هي وجميع اليونانيين من الهند ، لولا أن عرض « سيلوكوس »
ابنته على شندر رغبت ليتخذها زوجة له . وبهذا تمت المصاهرة بين الهند
واليونان ، واستطاع سيلوكوس البقاء في الهند وتوطيد حكمه في ولاية
السند . وهذه الفترة تعتبر من أخطر الفترات واختصها في توطيد العلاقات
بين الهند واليونان في جميع المجالات ، وتبادل المعلومات والخبرات ،
والتجاوب إلى أقصى مدى في ميدان الفكر والأدب والفن .

وبعد وفاة « شندر رغبت » في عام ٢٩٨ ق.م اعتلى العرش أبنه الشهير
« بندوسارا » ذلك الذي واصل جهود والده في توحيد الهند ، وتطويرها ،
وتوطيد العلاقات مع اليونان مباشرة وعن طريق الدولة اليونانية ومستعمراتها
في السند تلك التي ارسى قواعد ما جده « سيلوكوس » . وفي هذه الآونة وفد
على بلاط « بندوسارا » رعاصمته « بتنه » (باتلي بوترا قديما) سفير يوناني
يدعى « ميغستينيس » (megasthenese) ؛ ذلك الذي اقام طويلا في العاصمة
وجاب أنحاء البلاد شرقا وغربا يدرس شعبها وعلومها وفلسفتها ، ثم سجل
أروع سجل تاريخي لهذه الفترة من تاريخ الهند ، وهو يعتبر حتى الآن
وثيقة تاريخية هامة للهند . لقد ذكر هذا السفير بهراحة وجود سبعة فرق
رئيسية بين الهندوس في هذه الآونة ، زيادة على ثلاث فرق بالنسبة إلى
الماضي ، كانت تتصارع فيما بينها وتمنع التزاوج والتناسل فيما بينها . وبالإضافة
إلى ذلك فتد درس كتب الهند الدينية والتصوفية ، وقارن بين الهند واليونان
في شتى المجالات وذكر أن كلا من الهند واليونان تتفقان في نظريتهما في

الفلك ، وقولها بأن الأرض كروية الشكل ، واعتقادهما بأن إلهما من الآلهة يدبر الكون ، وكذلك كانت نظريتهما متشابهة في الروح . وصرح كذلك بأن الهنود ينسجون القصص والأساطير حول خلود الروح والعدالة يوم القيامة ، ويتفقون في ذلك تماما مع أفلاطون وآرائه .

كانت فتحات جبال هندوكوش أكبر وسيلة لتبادل العلاقات التجارية بين الهند والشرق الأوسط عن الطريق البري . ولم تقتصر العلاقات الهندية واليونانية في هذه الآونة على وجود مستعمرة يونانية ودولة صغيرة لها في الهند ، بل حاول كل من بندوسارا وملك اليونان حينذاك وهو « أنتيوخوس » (Antiochus) إيجاد روابط وثيقة مباشرة بينهما ، وذلك غير العلاقات المتوطدة بين بندوسارا والملك اليوناني المستقل في السند . لقد أوفد أنتيوخوس سفيرا له إلى بلاط بندوسار اتوثيقا للعلاقات القائمة بينهما . وقد بعث بندوسارا إلى أنتيوخوس طالبا منه إرسال الخمر والزبيب وفيلسوف معلم يعلمه الفلسفة اليونانية ومنطقها . وقد استجاب أنتيوخوس إلى جميع طلباته عدا إرسال معلم فلسفي ، واعتذر له قائلا : إن مثل هذا الإيفاد لا يصح وفقاً للتقاليد اليونانية .

ومن المعروف أن مصر وسوريا قد أصبحتا من الولايات اليونانية المستقلة في هذه الآونة . وقد أوفد كل منهما سفيره إلى الهند . فقد بعث « بطليمي فلاديسفوس » (٢٨٥ — ٢٤٧ ق.م) سفيره « ديونيسيوس » (Dionysius) سفيرا إلى الهند وذلك من عاصمته الإسكندرية في مصر . ثم تواصل تبادل السفراء على هذا المنوال فيما بعد .

ومنذ فتح الاسكندر السند وطوال عصر الأسرة المورية ازدادت الروابط الثقافية والتجارية بين الهند والشرق الأوسط من جهة ، وبين اليونان من جهة أخرى . إذ كانت القوافل التجارية من « بته » — عاصمة الهند — تأخذ طريقها إلى الشرق الأوسط عن طريق فتحات هندوكوش ، مارة بتاكسيلا ، وكابل عاصمة أفغانستان ثم تجتاز الصحراء الممتدة من إيران إلى الشام مخترة

حدود الأناضول ، ومن هنا تتجه إلى أوربا عن الطريقين البحريين وهما بحر الكاسبيان « قزوين » والبحر الأسود . وبهذا وصلت البضائع الهندية إلى اليونان . وقد شوهدت بضائعها بكمية كبيرة في « أوكسيوس » (Oxus) في طريقها إلى أوربا .

الامبراطور أشوكا : مبشر الديانة البوذية في العالم

لقد سار الامبراطور اشوكا (Ashoka : ٢٧٣-٢٣٢ ق.م) - حفيد شند رغبت - في بداية الأمر على خط جده ووالده في توحيد البلاد وإنشاء امبراطورية عظيمة . وقد خاض لذلك معارك عديدة مع ملوك الهند الصغار وأخضع معظمهم إلى سيطرته ، ونجح إلى أقصى الحدود - لأول مرة في تاريخ الهند - في إنشاء امبراطورية عظيمة تشمل معظم مناطق الهند شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً . لقد دارت معركة دموية بينه وبين ملك كالنغا (Kalinga) ، وهي في ولاية آندابراديش بجنوب الهند الآن .

الامبراطور أشوكا

(٢٧٣-٢٣٢ ق.م)

وتوطيد علاقات الهند مع آسيا ومصر واليونان وانتشار البوذية في عصره

لقد سار أشوكا في بداية الأمر على خط والده وجده في توحيد الهند وإنشاء امبراطورية عظيمة . فقد خاض معارك عديدة مع ملوك الهند الصغار وأخضع معظمهم إلى سيطرته ، ونجح إلى أقصى الحدود - لأول مرة في تاريخ الهند - في إنشاء امبراطورية عظيمة تشمل معظم مناطق الهند شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً . لقد دارت معركة دموية بينه وبين ملك كالنغا (Kalinga) وقتل فيها الآلاف ؛ الأمر الذي أثر في نفسه تأثيراً قوياً ، وأحدث ردود فعل عنيفة ضد الحروب . ومن هنا تاب عن خوض المعارك وأعتنق البوذية ، وآمن بالسلام ونشره في أنحاء العالم عن طريق نشر البوذية في صورة متطورة جديدة كرسالة للسلام والأمن للبشرية جمعاء . لقد دخلت البوذية في طور جديد في عهده ، وأصبحت دين

الدولة الرسمي ، وقد أتاحت لها فرصة عظيمة لانتشارها في أنحاء العالم .

انتشار البوذية في عصره

لقد ظهرت نصوص عديدة متناقضة حتى عصر أشوكا ، نسبت كلها إلى بوذا . كان بعضها صحيح الانتساب والبعض الآخر مزوراً ، كما أنها صارت معقدة صعبة وعسيرة الفهم للغاية ، فليخص أشوكا ودون هذه النصوص وحفر أهم تعاليم بوذا على أعمدة من الصخور ونصبها في أنحاء البلاد ، وبهذا كان أشوكا أول من اتخذ الوسائل الدعائية لدين من الأديان ولأول مرة في تاريخ الهند . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل واصل جهوده في نشر البوذية في أنحاء العالم ، واستغل الطرق التجارية المفتوحة بين الهند والشرق الأوسط إلى أقصى حدود أوروبا ، والعلاقات الثقافية الموجودة بينهما لنشر البوذية . فقد أوفد عدداً كبيراً من المبشرين البوذيين إلى الشرق الأوسط وقبرص وكريت واليونان ، كما أن هناك إشارات إلى إيفاد مثل هؤلاء المبشرين إلى مصر التي كان يحكمها اليونانيون آنذاك .

إن أشوكا لم يكن مجرد مبشر للديانة البوذية ، بل كان كذلك مجدداً لها . لأنه هو الذي أعطى البوذية وجهاً مشرقاً ولوناً مقبولاً يجذب أنظار الناس ، ويأسر قلوبهم وعواطفهم . كانت البوذية منذ عصر بوذا إلى عصر أشوكا تبدو ديانة سلمية متشائمة ، تدعو إلى الزهد وقتل الطموح والذاتية ، وتحمل على ترك الدنيا ، وممارسة الحياة الیوجية ، مع أن بوذا لم يهدف إلى ذلك مطلقاً ، بل عرضها في صورة دواء للمجتمع الإنساني المريض ، وحل لكثير من المشكلات الاجتماعية ، وآلام الإنسان وأحزانه . ولذلك كانت ديانته عملية متحركة ، وبعيدة كل البعد عن كونها نظرية أو فلسفة .

فقد حفر أشوكا خلاصة تعاليم بوذا على أعمدة من الصخور ، وكانت تتضمن أهم مبادئ بوذا ، وهي الدعوة إلى « دهارما » التي هي عبارة عن الأعمال الحسنة والحث عليها مثل : السماحة والكرم والعفو والصدق وانطهارة

والبعد عن المعاصي والسيئات . ولقد اتخذ موقف التحفظ من ذبح الحيوانات وقتل الإنسان . وذلك لأن بوذا قد سمح باكل لحوم الحيوانات للعيش ، كما أن القصاص لا مندوحة عنه في الشئون القانونية لأية دولة . ومن أجل ذلك اتخذ اشوكا موقف الحياد من مثل هذه الأمور . ولم يشن حربا شعواء على الديانة الآرية أو الجينية أو أية ديانة واجهها مبشروه في أقطار الدنيا ، بل حرص على التسامح مع كل هذه الأديان ، وعدم ابداء التعصب لديانته الجديدة .

وإذا أباح أكل لحوم الحيوانات للعيش ، فقد حرم قرابين الحيوانات في المعابد للآلهة على طريقة ديانة الفيدا ، واصطياد الحيوانات للمتعة الشخصية بل هو شخصيا امتنع عن الاصطياد ، مع أنه كان مغرما به قبل اعتناق الديانة البوذية . وبهذا تحول اشوكا من أنه يعد أول إمبراطور عظيم في الهند استطاع توحيد معظم اجزاء الهند واخضاعها لسيطرته ، إلى أنه مصلح ديني عظيم اعتلى عرش الهند لأول مرة في تاريخها ، وبذل أقصى ما في وسعه لتوفير أسباب السعادة وإقرار السلام في أنحاء البلاد ، وأمدّها بطاقاته الروحية الهائلة للاستمتاع بالمتع الروحية والطمأنينة القلبية في ظل الديانة البوذية ومبادئها العليا .

وتشير الوثائق القديمة إلى أن اشوكا قد بعث بمبشريه حتى إلى الصين ، ثم وصل إليها المبشرون البوذيون حينما كان يحكمها امبرطورها الشهير « ووتى » (١٤١-٨٧ ق.م) ، وكان عددهم حوالى ١٨ مبشرا ، ولكن الامبراطور ووتى اعتقلهم والقاهم في السجن . وفي ليلة من الليالى افرج عنهم بعض الناس واستطاعوا الهرب من بطشه .

لقد كان اشوكا حريصا على استمرار العلاقات الهندية واليونانية على نهج والده ، وجده من قبل . وحاول تنمية هذه العلاقات وتطويرها إلى أقصى الحدود ، كما أوفد مبشرى البوذية إلى جميع المناطق اليونانية .

لقد توافد في عصر والده سفراء اليونان من سوريا والاسكندرية وانطاكية واليونان نفسها إلى الهند . وقد وفد ميغستينيس سفيراً لانتيوخوس الأول — ملك اليونان — إلى بسلط بندوسارا والد اشوكا . لقد بعث بطليمي (Ptolemy : ٢٨٥-٢٤٧ ق.م) — ملك الاسكندرية — سفيراً له إلى بته — عاصمة بندوسارا — وهو « ديونيوسوس » (Dionysius) ولكن اشوكا حينما دان بالبوذية ، بادر بإرسال سفرائه إلى اليونان وسوريا والاسكندرية وانطاكية رمزا لاستمرار العلاقات وتوطيدها بين هذه الدول ، كما كان قصده — كذلك — من وراء هذه الجهود نشر البوذية في تلك البلدان ، إيماناً منه أنها هي الوسيلة الوحيدة لقرار السلام والأمن في أنحاء وربوع العالم . ومن جراء هذه الاتصالات واللقاءات ازداد النشاط التجاري بين هذه البلدان ، وكثر ارتياد القوافل التجارية تحمل البضائع الهندية إلى تلك البلدان أو تحمل منها إلى الهند عن طريقين : الأول ، عن الطريق البري الممتد من هندوكوش إلى البحرين قزوين والاسود ، والثاني ، عن الطريق البحري من بحر العرب إلى البحرين الأحمر والابيض المتوسط .

ومن المعروف أن الامبراطورية المورية في عهد شند رغبت — جد اشوكا — قد تحولت إلى دولة شبه اقطاعية ودكتاتورية من حيث نظمها وادارتها ، وذلك أسوة بالامبراطورية اليونانية ، حيث طبق أشوكا النظام الديمقراطي الرفي مرة أخرى بصورة متطورة ، وبهذا عادت الديمقراطية التي كانت سائدة ومتأصلة في نفوس الهنود منذ نزوح الآريين .

العلاقات الهندية واليونانية بعد اشوكا

وبعد وفاة اشوكا في عام ٢٣٢ ق.م انقطعت العلاقات المتبادلة بين اليونان والهند ، إلا أن اليونانيين في « باكتيريا » (Bactria) في منطقة بحر قزوين في شمال غرب إيران ، قد توغلوا في الهند عن

طريق هندوكوش واستولوا من جديد على السند التي فتحها الاسكندر من قبل ، وظل يحكمها نوابه ، ثم استطاعوا التوغل في بنجاب وإدخالها إلى حوزتهم . وبهذا اتصل هذا الجزء الشمالى الغربى من الهند بـ « باكتيريا » ، وأصبح فيهما حكم واحد يحكمها الملك اليونانى « ميناندير » (menander ١٥٠ ق.م) . ومن المعروف أن حكام « باكتيريا » اليونانيين قد أعلنوا استقلالهم عن العاصمة اليونانية في عام ٢٥٠ ق.م . وقد اتخذ « ميناندير » ساغالا التي كانت تقع في « سيالكوت » عاصمة له ، ثم مد نفوذه إلى عاصمة « موريا » في وادى نهري الجنجا والجمنا . ولكن « ميناندير » لم يبق الآن يونانيا أوريبا ، بل اعتنق البوذية بدوره ، وأصبح هنديا صميا ، كما اندمجت الجاليات اليونانية كلها في الكيان الهندي ، واصطبغت بالصبغة الهندية الصميمة بعد اعتناق البوذية .

وإن هؤلاء اليونانيين الذين اعتنقوا البوذية قد آمنوا — تبعاً لذلك — بأن بوذا قد تجسّد فيه « فشنو » . وكان « هيلودوروس » (Heliodorus) — السفير اليونانى — أول من آمن بهذه العقيدة ، ثم آمن بها جميع اليونانيين المنتشرين من الهند إلى باكتيريا على حدود إيران من ناحية بحر قزوين . وبهذا أصبحت الديانة البوذية منتشرة في هذه المناطق ، وعرض فيها بوذا في صورة فشنو الاله المتجسد .

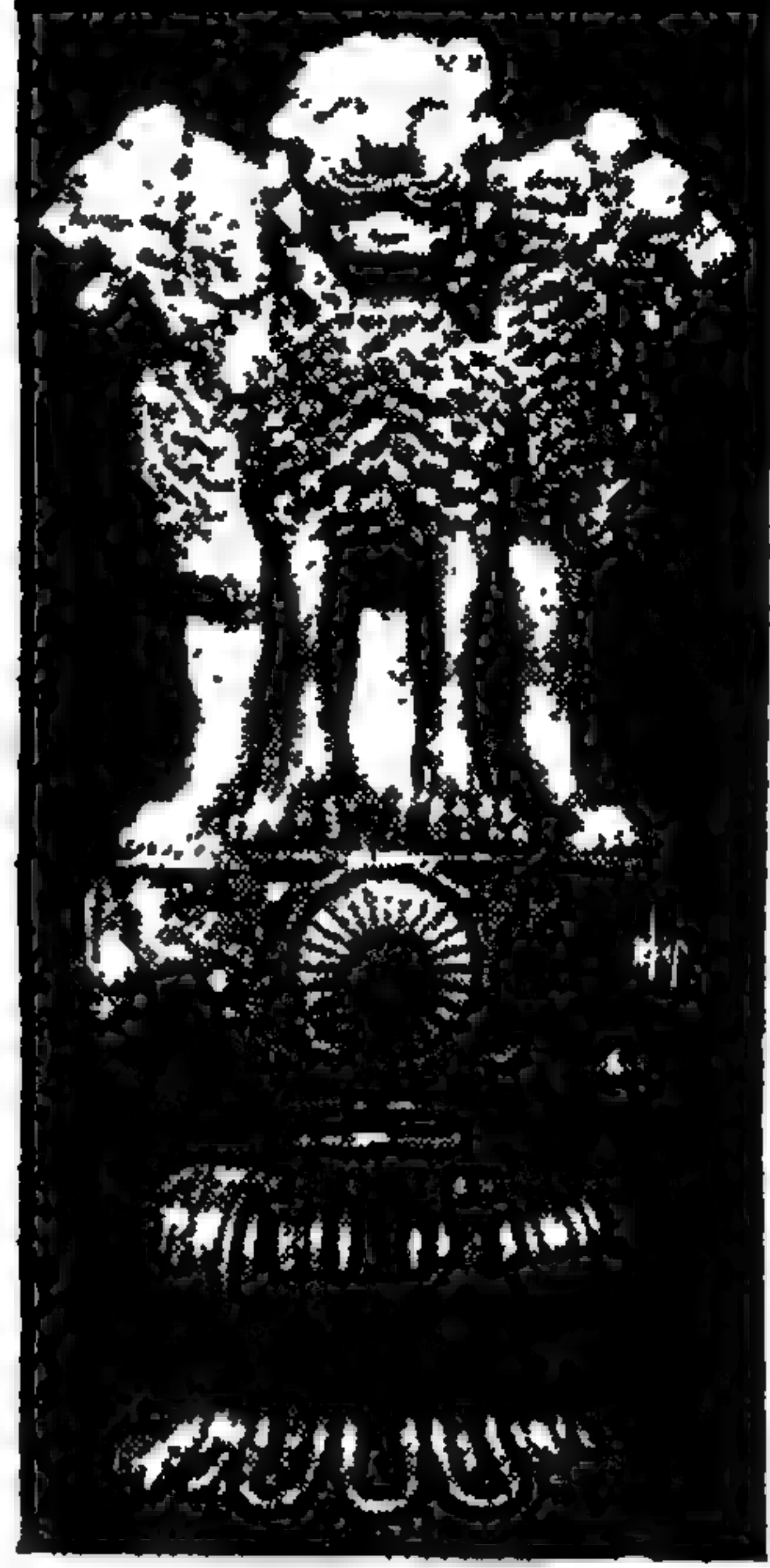
ولما ولد السيد المسيح في فلسطين في العهد الرومانى كانت هذه النظرية سائدة بين الرومانيين في الشرق الاوسط كله . وهذا هو السبب في أن الرومان قد عرضوا السيد المسيح في صورة الاله المتجسد أو بوذا الثانى ، وذلك بعد إيمانهم بالمسيحية .

الصين في مجال الحضارة والفكر

تقول الاساطير الصينية إن تاريخ بلادها يرجع إلى آلاف السنين ، ودبت الحياة الانسانية فيها منذ ظهور الكون ، ووجود الشمس والقمر والنجوم



لوحة (٢١)
العملات والأختام الهندية واليونانية
التي عثر عليها في شمال الهند الغربية



لوحة (٢٢)
 ثلاثة أسود ذات شوارب خشنة رمزا
 للسلام والمحبة للامبراطور آشوكا ،
 وتحتها ثور وضعها آشوكا على
 أعمدة من الصخور خلال القرن
 الثالث قبل الميلاد . وهذه
 الأسود قد اتخذتها جمهورية
 الهند الآن رمزا للسلام والمحبة
 بين الشعوب العالمية .





لوحة (٢٣)

ديمي تريوس (Demetrius : ١٩٠ - ١٦٠ ق.م) -
ملك باكتيريا اليوناني يلبس ملابس عليها رسوم الافيال
رمزا لانتصاره على الهند وضمه اياها الى حوزته



لوحة (٢٤)
هندية خلال العصر اليوناني بالهند

والأرض . وقد حكمها في بداية التاريخ اثنا عشر أو ثلاثة عشر ملكا ، وكل واحد منهم عاش حوالى ثمانية عشر ألف سنة ، وواحد منهم حكم حوالى ٤٥٦٠٠ سنة . ويقول العلماء الجيولوجيون أن الصين قد ظهرت على وجه الأرض قبل مليون سنة . وتتحدث أوائل الكتب التاريخية الصينية التى الفت قبل الميلاد عن ظهور الدولة الحسية (Hsia) فى عام ٢٢٥٥ ، واستمرارها حتى عام ١٧٦٦ ق.م ، ولكنه لم يعثر على دلائل أثرية لوجود مثل هذه الدولة .

ثم ظهر عصر شانغ (Shang) أوين (Yin) ، ويرجع تاريخه إلى ما بين السنين ١٧٦٦ – ١١٢٢ ق . م ولكن هذا الأمر هو الآخر لم يتأكد بعد من ناحية البحوث الأثرية ثم يبدأ عصر شو (Chou) فى عام ١١٢٢ ق.م ويستمر حتى عام ٢٥٦ ق.م . وقد جده الباحثون فى البحث عن المعالم الحضارية للصين منذ فجر تاريخها حتى القرن الثامن قبل الميلاد ، واكتنهم فشلوا فى العثور على شىء يدل على عظمة الصين خلال هذه القرون ، ولذلك يرون أن الصين – على الرغم من ظهورها فى التاريخ مبكرا قد دأبت على العيش فى البداوة طوال هذه القرون شأنها فى ذلك شأن أوربا كلها والتى لم تظهر فى التاريخ الحضارى قبل القرن الثامن قبل الميلاد . كانت الصين شبيهة بأوربا فى كل شىء ، منه وجود دول الطوائف العديدة فى أنحاء البلاد ، ولكنها كانت تؤمن – فى نفس الوقت – بالتعايش السلمى ، ولم تشن الحروب فيما بينها ، كما لم تعرف الحدود للبلاد فى هذه الآونة . كان النظام ملكيا وشبه إقطاعى . ولما حاولت المشاركة فى الطور الحضارى حطمت القيود وحاولت التوسع من ناحية الشرق والغرب ، فى حين دخلت أوربا فى الطور الحضارى من ناحية الشمال ، أى من جهة ألمانيا وإنجلترا واسكاندينافيا وروسيا .

وقد استنزفت المنازعات والحروب الأهلية قوى الأسرة الأخيرة ، ولم تتحد البلاد طوال هذه القرون ، ولم تتقدم فى أى مجال . وبهذا انمحت هذه الأسرة من الوجود فى عام ٢٢١ ق.م ثم بدأت الجهود لتوحيد البلاد ، وإنشاء دولة قوية متينة شاملة .

و ليست هناك أدلة تاريخية حتى نهاية القرن السابع قبل الميلاد تدل على ظهور الأديان فيها . ولعل الوثنية الطبيعية كانت سائدة فيها ، كما عاش الناس خلال هذه الفترة على قوانين الطبيعة . وقد انتشر تعدد الزوجات بشكل مدهل في هذه الآونة . وقد نبشت مقابر ملكية عديدة كما وجد في مقبرة كل ملك عظام ملكات عديدة ، بلغ عددهن أحياناً من اثنين إلى ٢٦ ملكة .

الديانة الكونفوسية

كانت الكونفوسية (Confucianist) أول ديانة ظهرت على أرض الصين . وكان منشؤها « كونفوسيون » (٥٥١ - ٤٧٩ ق . م) ، ذلك الذي دعا إلى إبقاء التقاليد القديمة وإعطائها صبغة دستورية للإنسان الصيني في الحياة . وعارض سن قوانين جديدة ، سواء أكان في العقوبات أو الأخلاق ، لأنها لم تخلق شعور الإحساس والمسئولية في الناس ، بل التقاليد القديمة هي التي تقدر على إثارة الإحساس والحياء بين الناس . وبهذا كانت دعوته محافظة أكثر من أن تكون تجديدية .

الديانة التاوسية

وقد ظهرت الديانة التاوسية (Taoism) في القرن الرابع قبل الميلاد على يد « شوانغ تزو » (Chuang Tzu) . وكانت دعوته صوفية محضة رامية إلى ترك الأسباب والعمل .

المدرسة القانونية

قد ظهرت هذه المدرسة خلال عام ٢٢١ ق.م حينما وصلت البلاد إلى أقصى مداها من الفوضى والاضطراب ، واستهدفت إعادة النظام إلى البلاد ، كما استهدفت كذلك توسيع نطاق البلاد ، ومواصلة الحرب لإخضاع الشعوب الأخرى لسيطرتها . وقد دعت إلى العمل والجهاد ، وحثت على مواصلة الأعمال الزراعية ، ولكنها فضلت الحروب على الزراعة ، وبهذا يعتقد

الباحثون أنها كانت أقرب إلى النازية التي ظهرت في القرن العشرين في ألمانيا لعدة وجوه .

لقد قامت الأسرة الحانية (Han) في عام ٢٢١ ق.م ، واستمرت حتى عام ٢٢٠ ق.م وخلال هذه الفترة توحدت البلاد ، واتسعت الفتوحات ، وتم احتلال اليابان ، ودخل في حوزتها كثير من المناطق . وفي هذه الآونة تمت الاتصالات بين الهند والصين من ناحية ، وبين الشرق الأوسط من ناحية أخرى . لقد امتد نفوذهم من ناحية الشرق الأوسط إلى «أوكسوس» (Oxus) و «باكتريا» (Bactria) أو بلخ التي كانت تقع في منطقة بحر قزوين أو شمال غرب إيران . وتمت هذه الأمور كلها خلال السنوات ١٤٠ ب ٨٧ ق . م . . لقد أتيحت للصين الآن فرص ذهبية للتطلع إلى الحضارات العظيمة في الشرق الأوسط المتمثلة في الرومانية والحضارة الهندية في الإمبراطورية المورية .

كانت باكتريا منطقة استراتيجية في ذلك الحين . بالنسبة إلى التجارة العالمية . إذ كانت تتدفق عليها بضائع الهند التجارية والشرق الأوسط واليونان وأوروبا كلها . وبهذا أتيحت الفرص للصين تحت قيادة إمبراطورها (ووتى) (Wu-ti) أن تتجاوب مع هذه البلدان وتتصل بها تجاريا ومودة وصدقة .

الصين والشرق الأوسط

إن الصين — رغم تاريخها الطويل — لم تتصل ببلاد الشرق الأوسط إلا منذ القرن الأول قبل الميلاد . لأنه قد منعها من الالتقاء بالشرق الأوسط كثير من العوائق الطبيعية مثل : وجود نهر الأصفر فيها وجبالها وغاباتها ووديانها ومستنقعاتها ، وبعدها عنها بمسافات طويلة عريضة لا يمكن قطعها إلا بعد مشاق وبعده سنين أو شهور ، وذلك على ظهر الخيول عبر مناطق الهملايا وبلوشستان وأفغانستان وعيلم . ومن المعروف أن هذه الطرق كلها

كانت وعرة صحراوية شاقة جداً . وكذلك كان ينبغي للسفن — من الطريق البحري — أن تقطع المسافات الطويلة عبر البحار والمحيطات مثل خليج بنغال ، وبحر العرب ، والمحيط الهندي والبحر الأحمر ، في طريقها إلى البحر الأبيض المتوسط . ولكن الصين منذ إتصالها بالعراق في القرن الأول قبل الميلاد قد استطاعت رؤية الحضارة المتقدمة في الشرق الأوسط ، فانسأقت وراءها لتدخل هي الأخرى في الطور الحضارى لأول مرة في تاريخها بفضل الشرق الأوسط ملتقى الحضارات حينذاك : وهى الحضارة اليونانية والرومانية والعراقية والمصرية والإيرانية والهندية . ومن جراء هذا الاتصال تأثرت بالخط المسمارى العراقى وأخذت أهم مميزاته وأدخلتها في خطها الصينى ، ومن هنا نجد بعض التشابه بين الخط الصينى والخط المسمارى العراقى . وإذا نظرنا — من ناحية أخرى — إلى بعض الأدوات الحربية التى انتقلت إلى الصين من الشرق الأوسط في هذه الآونة لوجدناها بدائية للغاية ، ولم تتمكن بعد لتجهز نفسها للاستفادة الكاملة من حضارة الشرق الأوسط المتقدمة بسبب تخلفها المادى والفكرى والذهنى ردحا طويلا من الزمن .

ولعل مجرى الأمور والأحداث في الشرق الأوسط منذ القرن السادس قبل الميلاد قد طرق آذان الصينيين ليلتفتوا إليها . ومن المعروف أن الامبراطورية الإيرانية كانت آخذة نفوذها منذ عام ٥٣٩ ق.م وأحدثت صوتا مدويا في أنحاء العالم ، ونهت الصين بالذات بعد امتداد رقعتها إلى حدودها . ثم صحبت الفتوحات اليونانية بقيادة الاسكندر في عام ٣٣٤ ق.م ، تلك التى لفتت أنظار العالم كله مرة أخرى ، وشدت انتباه الصين بالذات . ومن هنا كان اتصالها بالشرق الأوسط . ويقال إن السفير الصينى يدعى (شانغ كيان) (Changkien) قام برحلة شاقة نحو الغرب وقطع الطرق الصعبة عبر وديان أكسوس وجازارتيس ، ووصل إلى الشرق الأوسط ، واندفع من رؤية زخارف الحضارة فيها . ولما عاد إلى بلاده بعد اداء مهمته حكى لأهله

مشاهداته مما أثار رغبته في بدء العلاقات مع الشرق الأوسط . ولقد تم أول اتصال بينهما في عام ١٠١ ق.م. ثم حاول الصينيون إيجاد طريق مباشر عبر الصحراء إلى الشرق الأوسط ، فأنشأوا فعلا طريقا يربط بين الصين والشرق الأوسط في وسط الصحراء الممتدة عبر «سلك» . ويرى الباحثون أن الإبل ذات السنامين والمعروفة في تلك المناطق الصحراوية قد استخدمت في شئون المواصلات فيها . ثم نشطت الطرق البحرية منذ القرن الأول الميلادي عبر خليج بنغال وبحر العرب إلى الشرق الأوسط لتوطيد وتوثيق العلاقات بين هذه البلدان .

الهند والصين

ثم اتصلت الصين بالهند في عصر امبراطورها دوتى (١٤١ - ٨٧ ق.م) لأول مرة . ثم تعلم « اى - شين » (Yichen) - وهو سفير من سفراء الصين في عهد ملكها « يوى - شى » (Ryuech - chl) - تعاليم بوذا ، وتعلم واحد من كبار العلماء في الدولة وهو « شينغ لو » (Ohinglu) منه كتابا لبوذا .

ويقال أن الأمير « اينغ » (Ying) - وهو شقيق الملك مينغ (٥٧ - ٦٥ م) كان أول من اعتنق البوذية في الاسرة المالكية الصينية . ثم رغب فيها اخاه الملك ، ذلك الذى اوفد رجاله في عام ٦٧ م إلى الهند لاستيفاد عدد من الرهبان البوذيين ، ثم اعتنق البوذية ، ومنذ ذلك الحين أصبحت البوذية دين الدولة الرسمي في الصين ، ثم انتشرت منها في اليابان وكوريا والبلاد المجاورة لها . ومن المعروف أن الديانة البوذية هي الديانة السائدة في هذه المناطق كلها حتى هذه اللحظة .

وقد شهد أول دير بوذى في الصين في مكان يسمى « لو يانغ » (Loyang) - عاصمة الصين في ذلك الحين - وكذلك كلف هذا الملك عددا من الباحثين لترجمة الكتب البوذية إلى اللغة الصينية ، وبهذا وطدت البوذية أقدامها في الصين لتبقى فيها أبدا الدهر .

الهندوكية منذ عصر الامبراطور اشوكا

لقد واجهت الهندوكية ظروفًا جديدة صعبة منذ أيام اشوكا . لأنه اعتنق البوذية واتخذها دينًا رسميًا لامبراطوريته ، ثم قام بنشرها في أنحاء العالم بحماسة فائقة واندفاع عظيم . وفيما يبدو لنا أن الكهنوتية الآرية لم تبد أية مقاومة أو معارضة ضد هذه التطورات ، بل قبات — كعادتها — أهم المبادئ البوذية بعد اجراء تعديلات في عقيدة التناسخ . فقد اتجهت إلى العقيدة البوذية فيما يتعلق بالآخرة ، وهي الإيمان بحالة الركود والبرودة بعد الموت أى لا عذاب ولا ثواب ، ولا نار ولا نعيم . لقد انتهت الحماسة لعقيدة التناسخ ، كما تفككت عرى النظم الطبقيّة العنصرية . لأن مجرى الأمور والتطورات ، واللقاء الهند بالشعوب العالمية والتنقلات والرحلات المستمرة بين الهند واليونان من جهة ، وبينها وبين بلدان الشرق الأوسط من جهة أخرى قد أثرت في الديانة الكهنوتية إلى أقصى مدى ، ولم يكن الناس في ظروف تسمح لهم بأن يستمعوا إلى نصيح الكهنة ، ويجلسوا إلى جوارهم ، ويتعصبوا لأرائهم وعقائدهم . كما لم يكن في وسع الكهنة أن ينصحوا الناس بممارسة الأعمال والوظائف وفق الاطار الذي حددوه من قبل ، بل زادت رغبات الناس في الاسفار من وراء البحار لمشاهدة شعوب العالم المتقدمة والتجاوب معها ، بالاضافة إلى رغباتها في تحقيق الارباح والمكاسب الهائلة في التجارة . ومن المعروف أن « شند رغبت موريا » قد حطم القيود الدينية الآرية كلها حينما تزوج من أميرة يونانية ، ثم سارع الناس إلى محاكاته في الزواج من اليونانيات . ومن الاكيد أن اليونانيين الذين استوطنوا وادى نهر الهند ثم اتصلوا ببلاد النهرين الجنجا والحمنا هم أيضا تبادلوا الزواج من الهنديات الآريات وبهذا لم تبق هناك حدود معروفة للنظام الطبقي العنصرى . وهكذا انهارت الكهنوتية الآرية وضاع نفوذها وسيطرتها .

ومن الجدير بالذكر أن حركة البهاكتى التى ظهرت قديما وامتدت الهند بعقيدة التجسد قد انتعشت إنتعاشاً كبيراً في العصر المورى (أى خلال السنوات ٣٢٢ — ١٨٥ ق.م واصبحت لها فروع كثيرة ، وكل فرع منها قام بنشاط هائل لجذب

الناس إليها ، وفعلًا انجذب الناس إليها شوقًا ورغبة لممارسة تجاربها الروحية .
وأهم ما حدث في هذه الآونة أن الآلهة القديمة لحضارة نهر الهند وبالذات سيفا
وفشنو قد نالا منزلة كبيرة بفضل هذه الحركة ، واحتلا مكان الصدارة
في قلوب الهنود ، واصبح لهما سلطان واسع ، وسيطرة كاملة ، ثم اندمجت
فيهما جميع الآلهة بما فيها براهما — رب العالمين عند الكهنة — وصاروا من
الآلهة المشتركة الرئيسية لجميع الطوائف الهندوكية سواء اكانت آرية أو
دراويدية .

ومن الناحية العقائدية انحلت — كذلك — العقائد الوثنية والتوحيدية ووحدة
الوجود . وتجلت كلها كعقيدة واحدة تشمل كل الجوانب ، وتفتح لكل
التجارب وهذه هي الديانة الهندوكية التي لم نزل نراها .

وهذه الحركة هي التي — كما قلنا سابقا — اعترفت بسيادة بوذا بعد عرضه
في صورة (فشنو) رئيس الآلهة ، وادخلت العقائد البوذية الاساسية في الآرية
والدراويدية على السواء بعد اجراء تعديلات فيها بحيث لا تتعارض مع الروح
الهندوكية الاصلية .

الهندوئية في موقف الدفاع

ومنذ ظهور الحينية والبوذية وحتى وفاة اشوكا قد دخلت الكهنوتية الآرية
في موقف دفاع مريب ، ولكنها كعادتها لم تقم بأية ثورة ضد هاتين الديانتين ، بل
بدأت تدافع عن نفسها وكيانها . فتمد انشأت المدارس في داخل المعابد وخارجها
لتدريس كتبها المقدسة مثل : الفيدا والبرهمنان واليوجايشاد . وكذلك تجاوبت
مع الظروف الراهنة والمتطلبات الجديدة ، واستسلمت للنفوذ البوذي . ومن
هنا بدأت تجرى تعديلات عديدة في كثير من المسلمات عندها . ومن جراء
ذلك ظهرت عندها تفسيرات جديدة لكتبها المقدسة ، تلك التي كانت جديدة
ومدهشة ومتطورة بالنسبة إليها ، وهذه التفسيرات هي التي سجلت وسميت
بمجموعتها سوترأس (Sutras) ومعناها (الخيوط) . وقد وجهت العناية
في هذه التفسيرات لاعطاء لون جديد من الشرح والبيان للقرايين والكثير من

الطقوس والمراسيم ، الأمر الذى أذهل الكهنة المحافظين ، ولكن هذه الظاهرة كان لا مناص عنها فى مثل هذه الظروف الحرجة التى تصدت لها الكهنوتية :

ومن الجدير بالملاحظة أن تقدم الحضارة منذ القرن الخامس قبل الميلاد ودخول الهند مرة أخرى فى سباق التجارة والصناعة ، جعل الكهنوتية فى موقف حرج شديد . لأن النظام الطبقي العنصرى الذى صنعه الكهنوتية بدأ يتدهور وتتداعى أركانه . وذلك لأن إقبال الناس على التجارة والصناعة قد تفاقم أمره ، ولم تكن هناك مراعاة للقيود الطبقية التى صنعها الكهنة من قبل ، ولم يرضوا بتحديد الوظائف والأعمال ، فخرجوا من سيطرتها تماماً لممارسة الأعمال بكل حرية . ونتيجة لذلك زالت الفروق الكهنوتية واندجت الطبقات وفق مصالحها الجديدة ومطالبها الحاضرة ، ومن جراء ذلك ازدهرت التمارات وتقدمت الصناعة ، واتصلت الهند بجميع البلدان المتحضرة المتقدمة فى ذلك الحين . وهذه التطورات كلها بدأت تحطم آمال الكهنة فى تحقيق مآربهم الشخصية والرغبات المادية . فانخفضت مواردهم من جراء هذه التطورات وضعف أمرهم أمام الناس ، وذهبت مهابتهم دون رجعة . وهنا سخطت الكهنوتية على الحضارة والمدنية ، وحاولت إنقاذ موقفها المتداعى المنهار بدعوة الناس إلى التمسك بالنظام القروى ، والابتعاد عن زخارف الحضارة والمدنية . وليس ذلك تزمناً أو رجعية ، بل إنما كان محاولة لإنقاذ مكانتها المتدهورة ورفع دخلها المنخفض . ولذلك بادرت بإصدار الفتوى ضد الرحلات والأسفار خارج البلاد ، وركوب السفن والبواخر للسفر إلى البلاد النائية والتنقل فى البلاد الأجنبية . وقد سجل كتاب « سوتراس » المذكور آنفاً هذه الفتاوى والمحارم كلها . وهذا هو السبب فى أن هذا الكتاب لا يتحدث مطلقاً عن المدن التى ظهرت وتقدمت بشكل ملحوظ فى تلك الآونة .

الصراع بين اللغتين : السنسكريتية والبالية وازدهار الفنون والآداب

إن ظهور بوذا لم يكن ثورة عارمة على النظام الكهنوتي الآري فقط ، بل كان كذلك إبداعاً بظهور العلوم والفنون والآداب ، والتقاء الوجدان والنزعة الصوفية مع العقل والعمل والحياة والثقافة والحضارة . ولم تكن ثورة بوذا على التقاليد الآرية الطبقية وديانتها فحسب بل كانت كذلك على اللغة السنسكريتية الكهنوتية التي الفت بها جميع الكتب الآرية . ومن المعروف أن اللغة السنسكريتية هي التي كان يتكلم بها الآريون في موطنهم الأصلي ، ثم أتوا بها إلى الهند ، وتكلموا بها كأى غزاة ، ثم أصبحت لها سيطرة تامة على لغات نهر الهند ، بسبب كونها لغة الغزاة الفاتحين ، ولكنها سرعان ما اندمجت في اللغات الأصباية في الهند . وذلك على الرغم من سلامة هيكلها الأصلي الآري وهندسة التركيب للالفاظ والكلمات . ومن جراء ذلك دخلت هذه اللغة كلمات دراويدية كثيرة ومعانيها ، وقد حدث ذلك تماماً كما يحدث أثناء اندماج ثقافات الغزاة والمهزومين في كل عصر وزمان . وقد اكتسبت هذه اللغة على مرور الزمن ملامح جديدة وبدأت تنطور من الخشونة والوعورة إلى البساطة والسهولة . ولذلك نرى « الرج فيدا » - أول كتاب آري - قد ألف باللغة السنسكريتية الصعبة ، لا يفهمها إلا قليل من المتخصصين ، في حين تلوح السهولة والنعومة في الكتب الأخرى . وأما المهاجرات والراماياتا فهما يمثلان قمة الأسلوب والجمال اللذان وصلت إليه هذه اللغة ، ولذلك تحتل هاتان الملحمتان مكاناً خالداً في الأدب والفن ، في حين تمثلان جانباً يسيراً من النواحي الدينية الصميمة . وهذا كتب للغة السنسكريتية أن تصبح لغة السياسة والأدب والفكر والشعر والمؤلفات . وإلى جانب هذه اللغة الكلاسيكية كانت هناك أيضاً لهجات عامية ، يتكلم بها الناس ويتفاهمون فيما بينهم ، ولكنها لم تتخذ بعد طابعاً رسمياً أو أدبياً . فقد كان بوذا مضطراً لاستخدام إحدى هذه اللهجات العامية التي كان يتكلم بها سكان بلده وهي اللغة البالية (pali) لأداء مهمة التبشير . وذلك لأن أية ديانة لا تنتشر في البداية إلا بين عامة الشعب

من الطبقات الفقيرة الكادحة وبجماهير الناس . وهذه الطبقة تكون دائماً بعيدة عن الوان الأدب والفن والثقافة . ولذلك لزم الأمر مخاطبتها بلغتها وأسلوبها في كل عصر وزمان . وبانتشار الديانة الهندوكية وانتشار تلاميذ بوذا وحواريه انتشرت هذه اللهجة أيضاً في أنحاء وريبع شمال الهند ، ونالت إعجاب الناس في الأقطار الجنوبية إلى سيلان . وبدأت تنافس السنسكريتية وتغزو ناطقها . وهكذا ظهرت لغة جديدة منافسة للغة السنسكريتية وهي البالية تلك التي أصبحت في عصر أشوكا لغة الدولة ولغة التبشير للديانة البوذية .

لقد نالت هذه اللغة الرواج والشمول منذ اتخاذها أشوكا لغة التبشير البوذي . فقد حفر تعاليم بوذا على أعمدة الصخور بنفس اللغة . وهناك إشارات تدل على استخدامه الحروف الفينيقية لكتابة هذه اللغة وإعطائها صبغة أدبية وعلمية ورسمية ، لأول مرة في تاريخ هذه اللغة . ومن المعروف أن اليونان هي الأخرى أخذت الحروف الفينيقية لكتابة لغتها منذ القرن السابع قبل الميلاد . وقد سميت هذه اللغة الجديدة بعصر أشوكا «بالي براكرت» (paliprakrit) ، وهي صورة متطورة ومكبرة للغة بالي الشعبية العامة التي نالت الاهتمام والرواج منذ عصر بوذا .

لقد تطورت هذه اللغة تطوراً مذهلاً فيما بعد ، وهي التي انتقلت بحذافيرها إلى سيلان مع الديانة البوذية ، وتقدمت وتطورت فيها حتى سميت (السنغالية) وهي اللغة الرسمية الأولى فيها الآن . وأما في الهند فقد جرت فيها تعديلات عديدة على مر القرون ، وإحدى لهجات هذه اللغة هي التي تسمى الآن بالأردية وهي لغة الهند وباكستان المشتركة .

ولكن الكهنة لم يقفوا في هذه الآونة مكتوفي الأيدي أمام هذه التطورات ، بل أدخلوا لغتهم السنسكريتية في طور جديد من الناحية العلمية والأدبية واللغوية وفي إحدى المدارس السنسكريتية المذكورة ظهر عالم قد وهو (باي نيني) (painini) ، ذلك الذي ألف لأول مرة قواعد نحوية وعروضية للغة

السنسكريتية ، مستمداً عناصرها من النصوص الفيدية القديمة ومتوغلاً في أعماق أدبها وأسرارها اللغوية والبيانية والشعرية . وبهذا يكون « باي نيني » أول من ألف قواعد النحو والصرف والبلاغة والعروض على وجه الأرض بوجه عام عند كثير من الباحثين ، تلك الدراسات التي تطورت بعده ، وبلغت أقصى مدارج النضج والكمال والإتقان . لقد استطاع العالم العربي الشهير « البيروني » فهم أغوار هذه اللغة بكل أسرارها النحوية والبلاغية والشعرية وسجلها في كتابه « تحقيق ما للهند » ، الأمر الذي يبدو لنا في منتهى الصعوبة مجرد فهم ما أورده البيروني أو الوصول إلى مستوى البيروني في فهم هذه اللغة وإدراك أبعادها اللغوية .

لقد عاش « باي نيني » في مستهل القرن الرابع قبل الميلاد ، وقبل هجر « شندرجيت موريا » (٣٢٢ - ٢٩٨ ق . م) بقليل ، ثم وجهت عناية زائدة إلى تطوير هذه اللغة وعرضها في صورة مشرقة عظيمة وجعلها لغة علمية وأدبية رائعة . وقد جد الكهنة خلال عصر شندرجيت في البحث عن الوسائل العلمية لتطوير هذه اللغة . قد وجهت عناية زائدة إلى النواحي الأدبية والفنية في الملحميتين الشهيرتين « المهابهاراتا » واصطياد الدرر الكامنة من أعماقهما . ومن المعروف أن الكتب السنسكريتية المذكورة مبتدئاً من الفيدا ومنتها إلى هاتين الملحميتين كانت خصبة في الفنون الأدبية ، وغنية في العناصر التي تعد النفوس إلى الولع بالمرحلية . ان القصص الواردة فيها تعد مادة خصبة جياشة في إشعال المواهب الفنية لتأليف المسرحيات ، لأن العرض والسرد والشرح والحوار والنقاش والبيان والجمال الأسلوبى كل هذه الأمور كانت متوفرة في جميع الكتب المذكورة . وناهيك بالأسلوب الجديد جاء به « بوذا » لشرح مبادئها وهو أسلوب الحوار السهل المسلسل . وبالإضافة إلى هذه الأمور قد ظهرت قبل عصرى المهابهاراتا والراماياتا قصص عديدة تروى على لسان الحيوانات ، تلك التي جمعت في كتاب « كليلة ودمنة » في القرن الثانى قبل الميلاد تقريباً . ومن هنا كان من الطبيعي أن يتطور الفن المسرحى

فى بلاطشند رغبى إلى قة المجد الفنى ، وأروع مثال لذلك مسرحية شكنتلا
اللى الفها كالىداس فى هذه الآونة .

مسرحية شكنتلا

وقد ظهرت كتب فنية عديدة فى المسرحية السنسكريتية منذ القرن الرابع
قبل الميلاد حينما ألف « بارنيرى » كتابه « اشتاد هبائى » فى الفن المسرحى
باللغة السنسكريتية ، وذلك بعد ازدهار اللغة البالية الشعبية منذ عصر بوذا .
وقد استخدمت هذه اللغة فى الأخرى فى المسرحيات فى الحوار ، ولا سيما
لأداء ادوار غير الآريين أو البوذيين .

لقد ظهرت المسرحية السنسكريتية مستقلة عن المسرحية اليونانية . ولذلك
عزى الآريون هذا الفن إلى الآلهة ، وقالوا : إن الآلهة سألت أباهما أن
يتنكر فنانا جديدا يجلب المسرة للعين ويرهف الآذان بسماعه . ومن ثم استنبط
« براهما » — الإله الأكبر — عناصر المسرحية الأربعة من كتب الفيدا
الأربعة وهى : اللقاء ، والغناء ، والفن الإيمائى ، والعاطفة أو الألم ، ثم
مزجها فى صورة فنية جديدة . وتدل هذه النصوص على أن المسرحية الفنية
قد ظهرت منذ القرن الخامس قبل الميلاد حين صعد نجم « براهما » ، ثم
تطورت أيام مجد الإله سيفا ، ذلك الذى أضاف إلى هذه العناصر الأربعة
« الرقص » أيضا .

وكذلك دفع « براهما » المهندس المعمارى المقدس لبناء المسرح ، لكى
يقدم فيه براهما عرضا تمثيليا .

وفى يبدو لنا أن القاعات المسرحية لم تنشأ بعد ، بل قصور الملوك
والأمراء هى التى كانت تلعب دور المسارح فى هذه الآونة . ولم تنشأ
المسارح إلا منذ القرن التاسع عشر الميلادى .

وفى يتعلق بكالىداس — مؤلف شكنتلا — فإننا نرجح الأقوال التى تؤيد
وجوده فى القرن الأول قبل الميلاد وبهذا يكون قد ولد فى أواخر عصر موريا
فى مدينة (أوجين) فى وسط الهند حينما كان يحكمها ملكها الشهير (وكر ماديتة)

ولم يؤلف كاليداس مسرحية شكنتلا فحسب ، بل كذلك ألف مسرحيات أخرى وهى : وكرم موروشيم (٢) مالويكا اجنى (٣) متروا يكهيان ؟ ولكن شكنتلا فاقت جميع هذه المسرحيات ، وسجلت مكانا خالدا بين المسرحيات العالمية .

لقد قسم كاليداس مسرحيته العظيمة (شكنتلا) إلى سبعة فصول : الفصل الأول سماه الغابة ، والثاني ، مكان خيمة الملك فى هذه الغابة ، والثالث الغابة المظلمة ، والرابع أديرة الراهب ، والخامس قصر الملك ، والسادس شارع من شوارع المدينة ، والسابع الطريق إلى السماء .

قد ولدت شكنتلا فى دير فى إحدى الغابات حيث تبنها راهب كبير ، ورباها حتى شبت ، وفاقت البنات الهنديات كلهن فى الأخلاق والسلوك والجمال . وهنا شاهدها ملك ، فعلمت فى قلبه ، واحترق شوقا وحبا لها إلى أقصى الحدود ، حتى تزوج منها بعد مشاهد عديدة من فصول الحب والجمال والتضحية والوفاء والإخلاص . ثم أصابت الملك لعنة أحد الآلهة ، ومن جراء ذلك نسيها الملك نسيانا باتا . ومن هنا تبدأ فصول المأساة فى حياتها حتى تلتقى به فى السماء بين رحاب الآلهة . وهذه الرحلة السموية تصور أقدم أمانى الإنسان وآماله فى السفر إلى السماء ، تلك التى تجلت فيما بعد عند (دانتي) الشاعر الإيطالى الشهير (١٢٦٥ - ١٣٢١ م) بأبدع المظاهر وأروع الصور فى الكوميديا الألهية .

العلوم والفنون

ومنذ دخول الهند الآرية فى سباق الحضارة مع الشرق الأوسط واليونان بدأ فيها ظهور العلوم الجديدة التى لم تنل الهند حظا موفورا منها خلال العصور الآرية كلها وهى : الفلك والهندسة والرياضيات . ومن المعروف أن الهند كانت غنية بالوجدان والتصوف والحكمة والأدب والأساطير طوال القرون الماضية . وأما هذه العلوم العقلية والعملية التطبيقية فاحتاج إلى مناخ

جديد ومجتمع متطور مدني : ومن أجل ذلك تكون الهند قد دخلت حلبة السباق في هذه العلوم منذ القرن السابع قبل الميلاد، وتأثرت بالعراق واليونان ومصر في أول الأمر إذ أنه لم تكن لها اصاله فيها في هذه الآونة ، إلا أنها طورته فيها بعد بسرعة مذهلة ، وأبرزت فيها مواهبها وذاتيتها واصالتها حتى فاقت معظم بلدان العالم فيما بعد ، تلك التي انتقلت إلى بغداد في العصر العباسي الأول . وكذلك الطب المركب المعروف في مصر والعراق واليونان كانت تتطلب نفس المجتمع الحضاري . وقد بلغت الهند القمة في السحر والتعاويد في العلاج ، وفي العقاقير والأعشاب والأدوية المفردة في الماضي ، إلا أنها أخذت نصيبها من الطب المركب المدني منذ هذه الآونة ثم طورته إلى أقصى الحدود .

وكذلك تختلف الهند في الفنون المعمارية والنحت والتصوير منذ نزوح الآريين . ولم تنشأ فيها حصون ولا قلاع ولا هياكل ولا معابد ولا قصور طوال هذه القرون ، بل كانت الحياة تسير على الطريقة البدوية . ولكنها منذ العصر الموري التقت بالفنون اليونانية والإيرانية والعراقية والمصرية على السواء . وسواء أكان ذلك في النحت أو التصوير أو العمارة . وقد وجد تمثال لاشوكا وقد نحت بعض فناني الشرق الأوسط الذي ينسب إلى إيران أو اليونان أسدا على رأس التمثال وهذه تعد أهم إشارة للامتزاج بين الفنين . وقد سبق لشند رغبت أن شيد قاعة كبرى أو بهوا عظيما في عاصمته في بته على طراز بهو فخم وجد في قصر أحد الملوك الإيرانيين . ومن المعروف أن هذا الملك كان قد أخذ من قبل من إيران فكرة توحيد البلاد وإنشاء امبراطورية عظيمة داخل البلاد ، تلك التي حققها حفيده اشوكا .

ومن الاكيد أن معظم معالم الحضارة قد انتقلت إلى الهند في ذلك الوقت من إيران والعراق ومصر واليونان بعد التقائها بهذه البلدان الحضارية التقاء نخصبا ، ولا سيما منذ أن صارت اقلية يونانيا منذ عصر الاسكندر حتى أوائل

القرن الأول قبل الميلاد . وهذه الآثار نجدها واضحة بينة في المباني والهياكل والتماثيل والنقود وما إلى ذلك .

النظم السياسية في الأسرة المورية

ولما أصبحت الهند دولة مدنية متقدمة في العصر المورى أخذت جميع النظم السياسية والإدارية المتبعة في ايران والشرق الأوسط من قبل ، تلك التي استولى الاسكندر عليها . وبفضل الاتصالات المستمرة بين الهند وايران في هذه الآونة استطاعت الهند نقل معظم تلك النظم إلى الهند وتطبيقها فيها . وكان شند رغبت أول من طبقها ، ثم واصل تطويرها وتحسينها ابنه بندوسارا ، وحنميده اشوكا ، إلا أن اشوك بعد اعتناقه البوذية قد أعاد تطبيق نظام المجالس القروية ، مع الاحتفاظ بالطابع المدني والحضارى للدولة ، وبهذا دخلت امبراطوريته إلى طور ديمقراطى شعبى لأول مرة .

الفصل الخامس

الهند منذ القرن الأول قبل الميلاد الى القرن السابع

لقد تولى عرش الهند من اليونانيين البكتريين عدد من الملوك ، ثم استولى على الهند « الهنود البرثينيون » ، ثم السيكيون والكنشيون وبهذا دخلت الهند مرحلة خطيرة من الاضطراب والفوضى في هذه الآونة .

ومن المعروف إن قبائل منغوليا البدوية الساكنة في وسط آسيا شمال غرب الصين بدأت تندفق على البلاد الحضارية بحثا عن الكلا والحصائش الخضراء لحيوها . وهذه القبائل قد أثارت الفوضى والفتن في عديد من البلاد . وتشير القرائن إلى أن بعض الموجات من هذه القبائل هي التي تدفقت على الهند في هذه الآونة ، وسميت بالأسماء المذكورة آنفا . ثم زحفت موجة أخرى من هذه القبائل عن طريق فتحات هندوكوش في عام ٤٨ م ، واستولت على المناطق الجبلية المجاورة لولاية السند وبلوشستان ، ثم امتد سلطانها إلى أفغانستان ، واستولت على كابل عاصمتها الآن ، واستطاعت تأسيس دولة سميت « الكوشانية » (Knshan) التي بلغت قمة المجد ، واستعلى على عرشها ملكها العظيم « كانيشكا » (kanishka : ٧٨ — ١٠٣ م) ، ذلك الذي اتخذ بيشاور عاصمة له ، ثم اعتنق البوذية وامتزج بالتراث الهندي . وكذلك توغل في داخل الهند إلى وسط الهند لإنشاء شبه إمبراطورية له . وهذا أول من امتلك ناصية الهند واعتنق البوذية واستطاع مد إمبراطوريته من أفغانستان إلى الصين ناحية بحر قزوين في الشرق الأوسط من جهة ، وإلى كاشغر من ناحية الصين من جهة أخرى . وهذه الفتوحات أدت إلى التجاوب بين هذه البلدان كلها في مجالات الفكر والدين والثقافة والفنون كما سنرى فيما بعد .

وفي شمال لم يزل موجودا لهذا الملك فراه يرتدى أزياء شبيهة بالأزياء الهندية للرجال في شمال الهند حتى الآن وهي : البنطلون الهندي (البيجاما) والصدره (الأشكن) . وهذه أول إشارة تدل على دخول هذه الأزياء إلى الهند التي لم تزل موضع الإعجاب لدى سكان الشمال في الهند . وقد سلك هذا الملك نفودا تحمل صور آلهة الهند واليونان وزرادشت وبوذا ، الأمر الذي يدل على تسامحه مع جميع الأديان من ناحية ، واتساع إمبراطوريته إلى هذه المناطق كلها من ناحية أخرى . وبهذا لمصطبغت دولته بالصبغة الدولية في هذه الآونة . لأن المناطق التي دخلت في حوزته كانت حيوية جداً بالنسبة إلى التجارة الدولية حيث كانت تلتقي الطرق التجارية المؤدية إلى الشرق الأوسط وبحر قزوين ، والبحر الأسود . قد أشرك هذا الملك اليونانيين في كثير من الأعمال والوظائف ، ولاسيما في الصباغة الفضية . وفي هذا العصر ظهر طراز معماري جديد سمي « الغاندارا » (Gandahara) الذي امتزجت فيه الفنون الهندية والأغريقية في الدرجة الأولى ثم العراقية والإيرانية والسورية والمصرية من الدرجة الثانية .

ثم أتت الفرص للصين أن تنضم إلى هذا الفن وتظهر فيه عبقريتها منذ أن دانت بالبوذية . وبهذا التقت مع الهند واليونان للمساهمة في تطوير الفن الغانداري ، خصوصاً في التماثيل والمعابد التي تتعلق بالبوذية . وبهذا أصبحت الكوشانية إمبراطورية عظيمة تشمل معظم المناطق الحضارية ومراكزها في آسيا ، كما نشرت الديانة البوذية في أنحاء وربوع هذه المناطق العالمية الحساسة ، وتبعاً لذلك إنتشرت الفنون البوذية المتمثلة في « الغاندارا » في جميع هذه البلدان .

وقد ظلت الكوشانية تحكم البلاد منذ القرن الأول الميلادي حتى عام ٢٢٤ م ، ثم فوجئت الهند بغارات عنيفة عليها من جهة هندوكوش . وكان

هؤلاء المغبرون هم الساسانيون (Sassanid) الإيرانيون الذين صعدت نجومهم في السياسة الدولية في هذه الآونة . وقد تقوضت أركان الدولة الكوشانية من جراء هذه الغارات ، ولكن دول الطوائف الأخرى المنتشرة في أنحاء الهند لم تتأثر بالغارات الساسانية وسقوط الدولة الكوشانية . ومن المعروف أن هذه الدول قد عاشت على نفس الحالة طوال عصور الكوشانيين تدفع لهم الضرائب وتحتفظ بحريتها واستقلالها الذاتي . لقد دخلت الهند في هذه الفترة في حالة من الفوضى والإضطراب والتلاقل من جراء هذه التطورات ، وظلت على ذلك قرابة قرن تقريبا . ولذلك لم تتضح لنا خلال هذه الفترة الحرجة المقلقة معالم حضاراتها . ثم وصلت الهند فجأة إلى قمة الحضارة وعصرها الذهبي منذ عام ٣٢٠ م كما سندكرها فيما بعد .

ظهور الامبراطورية الرومانية على المسرح العالى واتصالها بالهند

لقد ظهرت الروم كقوة عالمية لتحل محل اليونان منذ عام ٢٠٠ ق . م ، واحتلت جميع بلدان الشرق الأوسط والتي كانت تحتلها اليونان من قبل ، وذلك إلى عام ١٨٩ ق . م تقريبا وهي : آسيا الصغرى ، ولبنان وسوريا وفلسطين . ولكن مصر في ظل ملوك البطالمة قد عاشت منفصلة عنها ، مع توطيد العلاقات معها ، ثم وضع أسطول روماني في مياه مصر في البحر الأبيض المتوسط خلال عام ١٦٨ ق . م . ولكن مصر دخلت فيما بعد في حوزة الامبراطورية الرومانية منذ عام ٣٠ ق . م ، وظلت على ذلك حتى عام ٢٨٤ الميلادي . وأما العراق وإيران والمناطق المجاورة لهما من آسيا الصغرى إلى بحر قزوين فقد ظل يحكمها بقايا ملوك مقدونيا وسيلوكيا حتى عام ٤٤ ق . م تقريبا .

ومن المعروف أن مناطق وادي نهر الهند وإيران والعراق وآسيا

الصغرى من جهة بحرى قزوين والأسود واجهت اضطرابات شديدة منذ تدهور موقف اليونانيين فى عام ٢٠٠ ق . م وظلت تتوارد عليها قبائل بدوية من منغوليا لتثير فيها القلق والفوضى والفتن . ثم استولى الملوك البكتريون على معظم هذه المناطق ، ثم نشروا فيها البوذية والحضارة الهندية ، ثم استخلفهم بعد زمن يسير ملوك الكوشانية الذين هم أيضا — وبدورهم — قد نشروا فيها البوذية والحضارات المشتركة من الهندية واليونانية والعراقية والایرانية .

لقد ارتبط هؤلاء بصلات من المردة والصدّاقة مع الرومانيين فى الشرق الأوسط ، ولم تكن تفصلهم من ناحية العراقى إلا مساحة ٦٠٠ ميل فقط ، تلك التى ظلت فى أيدي ملوك الطوائف . وفى شمال العراق من ناحية الأناضول كانت تقع مدينة شهيرة تمثل الحضارات الممزوجة من الهندية واليونانية وتدين بالبوذية ألا وهى انطاكية (Antioch) . وكذلك كانت تقع بالميرا (palmyra) أو تدمر وهى مدينة شهيرة فى المناطق الصحراوية بالعراق (وهى حاليا فى سوريا فى غرب نهر الفرات) . وقد ظل يحكمها ملوك بيترا (petra) الى عام ١٣٠ م حتى احتلتها الامبراطورية الرومانية وضممتها الى حوزتها كولاية لها وبهذا ظل امرها حتى عام ٢٧٣ م .

كانت الهند تلتقى بهذه الدول وعواصمها من ناحيتين : الاولى ، كان يتصل سكان المناطق الواقعة بين نهر الهند ونهر نربدا بالقرب من بومباى بانطاكية وتدمرو الاسكندرية ، وذلك على الطريق البرى الممتد من هندوكوش الى بحر قزوين . والثانية : سكان جنوب الهند وسيلان كانوا يلتقون بها عن طريق بحر العرب او خليج بنغال مارين بعدن ، ومنها الى البلدان الواقعة على بحرى الاحمر والابيض المتوسط ، وبالأخص تدمرو والاسكندرية وانطاكية . وهذه العواصم أصبحت نشيطة من الناحية التجارية حيث كانت تتبادل البضائع التجارية . وتأخذ طريقها الى أنحاء الهند وكذلك الى اوربا وأفريقيا .

وقد استطاعت الامبراطورية الكوشانية توطيد علاقاتها مع الامبراطورية الرومانية ، ونجد أثرها واضحا في النقود التي سكها ماوك الكوشانية ، تلك التي تحمل صور الرومانيين . وكذلك يبدو من دراسة هذه النقود أن الامبراطور كانيشكا قد لقب بالقيصر في هذه الآونة .

تطورات جديدة في ايران والعراق خلال العصر الروماني

وبعد وفاة الاسكندر في عام ٣٢٣ م قامت في ايران دويلات كثيرة يحكمها نوابه وخلفاؤه وسميت هذه الدولة بـ (السلوقية) . وقد اتخذت هذه الدولة مدينة سلوكية على الجزء الاسفل من نهر دجلة عاصمة لها في البداية ، ثم نقلتها إلى أنطاكية (وهي في سوريا الآن) . وأهملت بذلك شئون إيران ، وتقلصت قبضة الساوقيين عليها ، وسرعان ما نشأت دويلات محاية مثل دويلة فرانادارا في إقليم فارس .

وفي هذه الأيام ، أي في عام ٢٥٠ ق . م صعد نجم البارثيين (parthian) ، وهم يعرفون أيضا باسم « الاشكيين » (Arsacids) نسبة إلى ملكهم الأول « أرشك الأول » (٢٤٨ - ٢٣٦ ق . م) . وهم كانوا في الأصل قبيلة من قبائل الساكا المتنقلة في منطقة شرقي بحر قزوين .

وفي أيام ملكها العظيم « ميثراداتس الأول » (١٩٠ - ١٢٣ ق . م) بسط نفوذ إيران على باكتريا (بلخ) وبارسا (فارس) وبابل ، وخوزستان وميدان . وفي عهد ميثراداتس الثاني (١٢٣ - ٩٧ ق . م) اتسع نفوذ البارثيين ، فامتد من الهند إلى أرمينيا ، وهو الذي اتخذ لقب ملك الملوك . وفي عهد فرايتس الثالث (٧٠ - ٥٧ ق . م) بدأت سلسلة من الحروب مع روما على طول الحدود المشتركة ، وظلت هذه الحروب قائمة بصفة متقطعة حوالي ثلاثة قرون ، لأن روما كانت مصممة على التوسع نحو الشرق ، والاستفادة - أيضاً - من توسيع نطاق التجارة ، والسيطرة على طريق تجارة الحرير الذي كان طرفه الغربي جميعه في أيدي البارثيين ، وقد

نقى مارك أنتوني هزيمة ساحقة في موقعة « فراءاتا » (phraata) إلى الجنوب من بحيرة أرومية ، ولكن حملة تراجان (Trajan) الأخيرة ضد بارثا قد كالت بالنجاح .

وبعد انتصارات ميتراداتس الثاني عد البارثيون أنفسهم وارثين للاكمنين في الناحية السياسية فاستبدلوا حضارتهم الضحلة بحضارة راقية مستعارة هي في أعلى صورها ، مزيج من الحضارة الإيرانية والإغريقية (الهيلينية) . وقد سمي أحد الملوك نفسه « فيلهيلين » (أى المحب للإغريق) ، واختيرت الأساليب اليونانية في الحياة ، كما اختيرت اللغة اليونانية — في البداية — لغة رسمية .

وقد أنشئت — فعلا — أغلب المدن البارثية ، بما فيها طيسفون العاصمة ، فيما بين النهرين . وبذلك صارت إيران الأصلية تقع خارج الممر الرئيسى للنشاط التجارى والفنى .

وكان البارثيون يتكلمون لغة فارسية بسيطة . كانت قريبة في تركيبها من اللغة المستعملة في نهاية العصر الآكمني ، ويكتبونها بخط آرامي يسمى الخط البهلوى ، ولا زالت بين أيدينا — من الأمثلة نقوش طويلة منحوتة في الصخر وعدد من النصوص البهلوية المكتوبة ، ولكن عيوب هذه الحروف البدائية تجعل قراءة ما كتبها صعبة للغاية .

ويبدو أن البارثيين قد انحرفوا عن الأساليب المتأثرة بالهيلينية في التفكير منذ القرن الأول الميلادى ، والدليل على اتخاذهم هذا الاتجاه الجديد اختيارهم الديانة المزدية ديانة رسمية للدولة ، وبذلك اكتسب المجوس شيئاً من القوة والعزة .

وقد بذلت أولى المحاولات لجمع التقاليد الدينية وتنسيقها في المدة الواقعة بين عامى ٥٠ ، ٧٧ م ، كما أعد أول تفسير « للافستا » بأمر من الملك الفارسى ، ومع ذلك ، فإن تسامح البارثيين نحو جميع الأديان سمح للمسيحية بالانتشار في الجزء الغربى من الدولة في القرن الثانى الميلادى ..

ولم يكن الفن المعماري البارثي أصيلا أو هاما ، وتوجد جميع الآثار المعمارية المتبقية عن ذلك العصر غربى بلاد فارس الأصلية ، وهي تعكس صورة التأثيرات ذات الصبغة الهلينية وتأثيرات بلاد ما بين النهرين . مع مزجها بأساليب الفن المحلي .

العصر الساساني

دبرارد شير - في حوالى عام ٢١١ م - ثورة في إقليم فارس ، وفى سنة ٢٢٤ م قتلت قواته آخر ملك بارثي فى القتال الذى دار فى خوزستان (Susiana) ، وسرعان ما سيطر أردشير على جميع إيران ماعدا ولايتى أرمينيا وبلخ ، ويبدو أن تسمية دولته الجديدة بالساسانية مشتقة من لقب مارسى قديم هو ساسان بمعنى القواد ، ولو أنه قد انقلب أخيرا فصار اسما للأسرة .

وقد ربط الساسانيون سلسلة نسبهم بالأكمنيين عن طريق سلالة ملوك الفراتادارا (Frataadara) الذين ظلوا مستقلين إلى أن دخل إقليم فارس بالقرب من أويارس تحت الحكم البارثي ، ثم ضربوا بعد ذلك عملة فى اصطخر - بالقرب من برسيوليس - إلى عهد اردشير ، وكان أردشير نفسه حفيد ساسان الذى كان موبدا رفيع الشأن فى معبد أناهيتا باصطخر .

وجعل اردشير دين « مزدا » (الزرادشتية : mazdaism) ديناً رسمياً للدولة ، وسرعان ما اشتبك فى نزاع مباشر مع روما . وقد استمرت الحروب المدمرة مع روما ، ثم مع بيزنطة - بعد ذلك - طوال العهد الساساني جميعه ، وكانت قوى الشرق والغرب متعادلة تقريبا ، رغم أن الجولة الأولى من الحرب قد كسبها الساسانيون بهزيمتهم للاسكندر سفيروس (Alexander Severus) . وقد أسر شابور الأول ، ابن أردشير ٤٢١ - ٢٧١ م وهو اثنى الملوك الثلاثة الكبار فى هذه الدولة - الامبراطور فاليريان (Valerian) فى أثناء الحرب ، وأخذ أسيرا حتى توفى عنده ، وكانت أرمينيا هى

السبب الرئيسى للنزاع ، وقد تبادلها كل من الطرفين مرات عديدة فى أثناء حكم هذه الدولة ، والدول التالية لها .

وقد حكم بضعة وأربعون ملكا ساسانيا ، وكان نرسى ٢٩٣-٣٠٢ م أقل توفيقا فى حروبه ضد روما ، فأصبح نهر دجلة - فى أثناء حكمه - حدا ثابتا بين الشرق والغرب .

وولى شابور الثانى ابن حفيد اردشير العرش فى ٣١٠ م . وقد اشتبك فى أثناء حكمه الطويل - الذى استغرق ٦٩ سنة - فى ثلاثة حروب مع روما ، وبعد وفاته اشتعلت نيران المنازعات الداخلية - حول سلطة الملك - بين الملوك والاشراف ورجال الدين ، فاعدم ثلثه من الملوك على أيدى الاشراف ، وأصبح الملوك التالون - فى خلال مدة استغرقت قرنا تقريبا - يختارون من الأسرة الساسانية بواسطة رجال الدين ، وكبار الاقطاعيين .

وقد اعاد خسرو الأول (٥٣١-٥٧٩م) - أعظم ملك فى هذه الدولة - الامبراطورية إلى أربعة أقاليم إدارية ، وفرض ضريبة محددة على الأراضى بعد ما مسحت جميع أراضى الدولة ونفذت مشاريع الري ، وظفرت الزراعة بالاهتمام والعناية ، ونعمت البلاد برفاهية حقيقية . كما شجع خسرو التعليم ، وكان هو نفسه قادرا على قراءة اليونانية ، فأمر بترجمة كتب من اليونانية والسنسكريتية إلى البهلوية ، وجمعت القصص الخرافية ، ونظر إلى المسيحية نظرة تسامح .

وقد انتصر خسرو الثانى (٥٨٩ - ٦٢٨) م على بيزنطة فى البداية وبعد اختيار قسطنطين الأول المتوفى عام ٣٣٠ م استنبول عاصمة له ، واسمها القديم بيزنطة ، سميت امبراطوريته بالبيزنطيه ، ولكن الامبراطور هرقل (Heraclius) لم يلبث أن أوقع به هزيمة ساحقة فى النهاية فى موقعة نينوى فى سنة ٦٢٧ م ، فأصبح الملك الساسانى فى فرضى شاملة .

ثم قاوم يزدجرد الثالث (٦٣٢ - ٦٥١ م) مد الاسلام المتدفق دون جدوى ، وأمضى السنوات العشرة الأخيرة من حياته هاربا مطاردا . وبهذا دخلت إيران في حوزة الإسلام إلى الأبد .

الحركات الدينية والعلمية في إيران

وفي القرن السادس قبل الميلاد وهو العصر الاكمني في إيران ظهرت ديانة جديدة وهي « الزرادشتية » التي بشر بها « زوارتشرا » (Zorathushtra) ، ذلك الذي سمي فيما بعد « زردشت » . وقد ولد في « ميديا » ، وهي مملكة قديمة بغرب إيران . وصارت عقيدته فيما بعد الديانة الرسمية لدارا واکرزسيس وارتكزرسيس الأول . إن هذه الديانة تؤمن بـ « آهور امزرا » على أنه إله الخير . ونسبة إلى هذا الإله تسمى الديانة أيضا « المزدية » . واقترن الخير فيها بالصدق والنور أيضا . وهو أيضا قرر خلود الروح والحساب في يوم القيامة . وهذه الديانة في الحقيقة ضرب من الإصلاح للديانة الوثنية الفارسية وترمى إلى تنمية الحصاد ، والرفق بالحيوانات المستأنسة مما يؤدي إلى توفير الغذاء .

وقد ألف زرادشت كتابا سمي « الافستا » أو « الزند - افستا » ، وزند معناها التفسير ، وافستا ، معناها قانون .

وكانت هذه العقائد بسيطة جدا في البداية ، ولكنها سرعان ما تغيرت فيما بعد ، واتحدت مع آلهة إيران القديمة من ناحية واختلطت بالطقوس الدينية لطائفة المجوس الميديّة من ناحية أخرى (والميديّة نسبة إلى « ميديا ») . ثم أصبح رجال هذه الطائفة يتوارثون وظيفة الكهنة في همد الدين الجديد المنتشر .

ثم ظهرت في إيران « الديانة المانية » في القرن الثالث الميلادي . وقد أعلن مؤسسها « ماني » في عام ٢٤٢ م النبوة ، ثم انتشرت ديانته في أنحاء الامبراطورية الرومانية وآسيا ، وتأثرت بالبوذية والغوصية

(سيأتى تفسيرها قريبا) تأثرا كبيرا ، واتسمت بتعاليم الزرادشتية ، متخذة النضال أساسا للصراع بين الخير والشر . كانت تعاليمها روحية بين أتباعها الذين كانوا يأملون السعادة بعد الموت . لقد قاومتها النصرانية بعنف ، ولذلك قضت عليها فى القرن الخامس الميلادى .

ولما خاض شابرو الأول معركة الفاصلة مع « قاليريا — الامبراطور الرومانى — فى عام ٢٥٨ م » وانتزع منه النصر لنفسه أودعه هو وجيشه فى السجن . ولكنه فى نفس الوقت أحسن معاملة الأسرى ، ومنحهم الحرية الكاملة ليستفيد منهم ، لأنه كان منهم الكثير من الأطباء والمهندسين والصناع المهرة . فأنزلهم فى بقعة قريبة من مدينة « سوسى » ، ومدينة « تستر » ، وأقام لهم فيها معسكرا اشتهر فيما بعد بمدينة « جنديسابور » أى (معسكر شابور) . وهذه المدينة هى التى أصبحت مدينة علمية عظيمة فيما بعد انتقلت إليها علوم الاسكندرية والهند ، والتقنى فيها الأطباء والعلماء من الامبراطورية الرومانية والاسكندرية والهند . كان كسرى أنوشروان (٥٣١ — ٥٧٨ م) أعظم من وجه عناية بالغة إلى هذه المدرسة ، وأعاد فيها مجد الاسكندرية والهند على السواء فى العلوم والفنون .

الصلات بين الهند والروم

إن الدولة الكوشانية الهندية قد حاولت بكل الطرق والوسائل توطيد العلاقات مع الروم ، على الرغم من هذه الأحداث والتطورات . وقد أرسل ملكها « كاد فيسس الثانى » (kadphises) فى عام ٩٩ م سفيره إلى « تراجان » (Trajan) — ملك اليونان — ليقدم له تهنائه بمناسبة تولية العرش . وقد رحب تراجان بأعضاء السفارة أعظم ترحيب ، وأقعدهم فى مقاعد شيوخ المجلس فى عرشه . ومن المعروف أن العلاقات الإيرانية واليونانية كانت متوترة خلال العصرين البارثيين (٢٥٠ — ٢٢٩ ق.م)

ق . م) . والساساني (٦٥ - ٢٢٩ م) ، ولذلك كان محتماً أن تزداد الروابط بين الدولتين الكوشانية والرومانية لسلامة الطرق التجارية البرية الممتدة بين بلديهما .

وكذلك توثقت علاقات الرومان مع المملوك الآخريين في وادي نهر الهند وما جاورها من البلدان وذلك كمعاداة لإيران ، والحفاظ على المصالح التجارية للروم . وكذلك نال الفن الغانداري تقدماً وازدهاراً في أنحاء وربوع الهند والامبراطورية الرومانية في هذه الآونة .

لقد زاد توافد السفراء من ملوك الهند العديدين في أنحاء البلاد إلى بلاط ملوك الرومان منذ القرن الأول قبل الميلاد . وكذلك كثرت الرحلات والأسفار المتبادلة بين الروم والهند . وقد تراحم التجار في كلا البلدين لنقل البضائع إلى بلادهم . كان سفراء الهند يحملون إلى ملوك الروم هدايا غالية باهظة الثمن ، وأحياناً لا تقدر قيمتها . إن الهدايا التي قدمت للملك أغسطوس كانت تتضمن الأسد (الثعبان الكبير) و غلام مقطوع الكتفين يطلق السهم من أصابع رجله بكل دقة ومهارة ، والقوس في رجله .

لقد شوهد في بلاط أغسطوس عدد من رهبان الديانة الحينية وكهانها . ومن المعروف أن الاسكندر هو الآخر اصطحب معه (كالانوس) (Kalanos) الراهب الحيني ، ذلك الذي انتحرفياً بعد وفق العقائد الحينية . وقد رأس الوفد الهندي في بلاط أغسطوس راهب حيني يدعى (زارمانوكيفاس) (Zarmanochegas) . قد جاء هذا الراهب برسالة مكتوبة على الرق وبالإغريقية إلى الملك يناشده فيها توثيق الروابط بين البلدين ، وتوفير الوسائل لرعايا الرومان في الهند وإعفاؤهم من جميع الرسوم والضرائب . ولكن هذا الراهب هو الآخر أشعل النيران في كومة من الحطب وألقى نفسه فيها ليحترق على الطريقة الحينية .

ولقد اعتقد الرهبان الحينيون آنذاك أن الانتحار على هذا الوجه يضمن النجاة والخلاص في الآخرة .

وقد بنى له ضريح في اليونان ، كتب عليه ما يلي نصه : « وها هنا يرقد زارمانوكيفاس » الهندي من سكان بلدة بارغوسا ، ذلك الذي قدم نفسه قربانا لنيل الخلود وفق تقاليد بلاده .

وهذه الظاهرة تدل بوضوح على أن الديانة الحينية قد أصبحت معروفة في الروم ؛ وذلك بالإضافة إلى البوذية التي انتشرت فيها ونالت مكانا كبيرا منذ أيام مجده اليونانيين .

جنوب الهند في مجال الحضارة واتصاله بالروم

لقد ذكرنا من قبل اتصالات جنوب الهند بحضارة — رالهند ووجود دويلات بدوية عديدة فيها أيام محنة رامما إذ كانت منفاه حينذاك . ولكنها ازدهرت فيما بعد ازدهارا كبيرا وقامت في أواخر القرون قبل الميلاد دول كبرى ذات حضارة متقدمة وهي شولاس وسيراس وباندياس . ومن المعروف أن سكان هذه المنطقة كلهم من الأصل الدراويدي — السكان الأصليون للهند — واتسموا باللونين الأسمر والأسود منذ القدم . وبسبب وجود هذه المنطقة على البحر من ناحيتين ، أولاها في الغرب على بحر العرب ، وثانيهما في الشرق على خليج بنغال ازدهرت العلاقات التجارية بينها وبين بلدان الشرق الأوسط إلى درجة كبيرة جداً . فقد نشطت الرحلات التجارية وأسفارها بين هذه البلدان خلال العصر اليوناني ، ثم زادت وتفاقم أمرها في العصر اليوناني .

وفي عصر ملوك الأسرة الباندية أرسل ملك لها في عام ٢٥ ق . م سفيرا له إلى ملك الرومان آنذاك وهو « اغسطوس » ابن الأخ لقيصر . وقد ظل هذا السفير في بلاطه قرابة أربع سنوات .

الاسكندرية وجنوب الهند

لقد أصبحت الاسكندرية منذ القرن الأول الميلادى مدينة عالمية ثانية بعد فينيس (venice) — عاصمة الروم — فى شمال ايطاليا ، تلك التى أصبحت مدينة أولى عالمية فى هذه الآونة . وأما من الناحية التجارية فقد صارت الاسكندرية المركز الأول فى العالم دون نزاع . لقد كانت صور و « صيدون » (فى لبنان) مركزان تجاريان دوليان طوال مجد الفينيقين — أى العرب فى سوريا ولبنان — وقد انتقلت الآن هذه المركزية إلى الاسكندرية . وازداد تردد القوافل التجارية بين الاسكندرية وجنوب الهند من ميناء مالابار على بحر العرب . كانت القوافل الهندية وتوابلها والعاج والأطواس والقروء وأحجارها الثمينة موضع الإعجاب فى بلاد الشرق الاوسط وأوربا . وكانت تحمل هذه البضائع بكمية هائلة إلى الاسكندرية ، ومنها كانت توزع وتشحن إلى البلاد الأخرى . لقد عرف الملاحون فى هذه الآونة طبيعة الرياح الموسمية المؤدية إلى الهند فاستغلوها لتسهيل المواصلات إلى الهند . كانت « موزيريس » (Muziris) فى « كرانغانور » (cranganore) فى ساحل مالابار أهم ميناء حيث كانت ترسو فيها السفن العالمية بإعداد ضخمة جدا . وبسبب توفير الاسباب وتيسير السبل والسيطرة على الرياح الموسمية كانت تقطع المسافات الطويلة من ايطاليا إلى مالابار فى ظرف ستة عشر اسبوعا . ومن الجدير بالذكر أن نفس المسافة بدأت تقطع فى عام ١٨٣٨ م من خمسة إلى ثمانية اشهر ، وذلك على الرغم من تقدم الحضارة وسيطرة العالم الغربى على الملاحة العالمية وتطويرها . لقد أصبحت أوربا الآن على صلة وثيقة بالهند وتقربت إليها إلى أقصى الحدود . ثم نشطت الطرق البحرية من مالابار إلى كراتشى فى بحر العرب ، بسبب كثرة ارتياد التجار والزوار والرحالة من الشرق الاوسط وأوربا . لقد ألف فى هذه الآونة ملاح يونانى — اسكندرانى المولد — وهو « بلىنى » (pliny) فى هذه الآونة كتابا عن الرحلات البحرية عبر بحرى الاحمر والعرب طوال سواحل الهند الممتدة من مالابار إلى

نهر الهند . وقد أعرب عن اسفه الشديد من تدفق خزائن الشرق الاوسط وذهابها إلى الهند عن طريق الرومان ، وقدرها مايون بجنيه استرليني وفق تقديرنا الحديث وذلك بسبب اقبال أوروبا والشرق الاوسط على شراء البضائع الهندية .

وبالاضافة إلى ذلك تشير وثائق الهند الجنوبية المكتوبة بلغة تامل (Tamil) المسجلة في هذا العصر أن الرومان قد أنشئوا مستعمرات عديدة لهم في انحاء سواحل الهند الغربية الممتدة من مالابار إلى نهر الهند بالقرب من كراتشي . وقد وجدت مستعمرات رومانية كثيرة في ميناء «كرانغانور» في مالابار ، ومدورا في مدراس وبوكار على نهر الكاويري في مدراس نفسها . وقد تغنى شاعر مدراس في هذه الآونة بلغته التاميلية ازدهار بلاده وظهور مدينة «موشيري» وتحمل فلافل مدراس إلى الشرق الاوسط .

ولم تكن هذه المستعمرات لسكان الروم فحسب بل عاش أيضا مع الرومانيين جنبا إلى جنب المصريون أيضا من أهالي الاسكندرية والسوريون والبنانيون .

ويعتقد أن هذه المستعمرات كانت شبيهة بالمستعمرات التي انشأها البرتغاليون في القرن الثامن عشر الميلادي لنفس الأسباب على طول الساحل الغربي الممتد من مالابار إلى سورت في مومباي .

وكذلك تشير الدلائل إلى أن كثير من المتعلمين الرومان والأميين منهم قد توظفوا في بلاط ملوك مدراس في شئون عديدة . وقد دخلت بنات الروم في حرم هؤلاء الملوك ملكات وأميرات ، كما دخلت من قبل ابنة ملك اليونان في حرم الامبراطور شندرغبت موريا بعد عودة الاسكندر مباشرة من الهند في طريقه إلى بلاده . وكذلك توظف الرومان في الحرس الملكي في مدراس لسلامة ارواح الملوك من المؤامرات ومن الاغتيال .

وبالاضافة الى تجار وسفراء الهند الجنوبية كثر توافد تجار الهند على

الاسكندرية من المناطق المختلفة . يقول « ديوكريسوتوم » (Diochrysostom) وهو يخطب في جماهير الاسكندرية ، وذلك في عهد الملك اليوناني «ترازان» (Trazan) : « أنى أرى بينكم جنسيات عديدة من الناس الوافدين من اليونان وايطاليا وسوريا وليبيا وسيليا (Cilicia) واثيوبيا وبلاد العرب وباكتيريا (بلخ) واسكثيا (Scythia) وايران والهند (وهم قلايون بالنسبة إلى المذكورين) .

ومن المحتمل جدا أن يكون هؤلاء الهنود الوافدون إلى الاسكندرية من سكان أحد الموانئ الهندية الشهيرة الممتدة من مالابار إلى كراتشي .

ظهور لغة دولية شعبية في الاسكندرية

يقول « راولينسون » : إنه قد ظهرت في الاسكندرية لغة مشتركة دولية خلال القرن الأول الميلادي وذلك نتيجة للاختلاط والامتزاج بين الاجناس المختلفة من الناس . وكانت هذه اللغة تستعمل في أسواق الاسكندرية للتفاهم والتخاطب مع الزوار والرحالة والتجار الأجانب الوافدين من شتى انحاء الأرض . وهذه الأمور كلها هيأت الاسكندرية أن تصبح المركز التجاري الأول في العالم اجمع . وإن ظهور هذه اللغة الدارجة المشتركة كان طبيعيا نظرا إلى الظروف والملابسات المحيطة بالاسكندرية في تلك الآونة .

الهند وبلاد العرب

كانت السفن الهندية تردد من ساحلها الغربي على موانئ الخليج العربي منذ أقدم العصور . وفي هذا العصر أصبح ميناء باريغازا Barygaza على الساحل الغربي الهندي همزة الوصل بين الهند والخليج العربي . وكان هذا الميناء على مقربة من بومباي ، ولذلك كان يربط بينه وبين وسط الهند وشمالها طرق برية آمنة ممتدة . كانت القوافل البرية تأخذ طريقها من هذا الميناء إلى «أوجين» Ujjain في وسط الهند ، ومنها إلى «بتنه» العاصمة الهندية للملوك موريا (وهي الآن عاصمة ولاية بهار) مارة بالمدن الآتية : فيديسا vidisa وباروت (Barhut) وكاوسامبي (Kausambi) وبراياجا (Prayaga) . وعلى ضفاف نهر الجنجا في المملكة المورية — وعلى مقربة من مدينة كلكتا الآن — انشئ ميناء كبير للسفن التجارية المتنقلة بين الهند والصين وسيلان عبر خليج بنغال .

مجد الديانة البوذية كديانة عالمية أولى

منذ أن دان الرومانيون بالبوذية وثم احتلالهم للمناطق الممتدة من بحر قزوين إلى الصين تتخللها بلاد الشرق الأوسط والهند كسبت البوذية الشهرة العالمية وأصبحت دين الدولة الرسمي لمعظم هذه البلاد ، وظهرت باسمها الفنون والآداب . ومن المعروف أن الديانة البوذية كانت تتمثل في عقيدة التجسد في هذه الآونة ، لأن « كانيشكا اليوناني » إمبراطور الكوشانية اعتنق البوذية وفق عقيدة التجسد ، وآمن بأن الإله فشنو قد تجسد فيه . وهذه العقيدة هي التي أصبحت سارية المفعول في هذه المناطق كلها . وبهذا تكون البوذية قد مهدت السبيل للمسيحية الرومانية التي امتصت جميع الخصائص البوذية العالمية وحلت محلها في الشرق الأوسط كله ، ثم أخذت طريقها إلى أوروبا . ونتيجة لذلك فقد أعطى الرومان للمسيحية نفس المكانة والتقدير والصفات التي كانت تتمتع بها البوذية من قبل . وبهذا يكون الرومان قد عرضوا السيد المسيح بنفس صورة بوذا ، والمسيحية كصورة طبق الأصل للبوذية العالمية .

ومن الجدير بالملاحظة أن نظرية تجسد الإله العظيم فشنو قد اتخذت صبغة عالمية منذ القرن الأول الميلادي ، وتجلت في أبداع مظاهرها في البوذية في طائفة المهايانية كما قلنا . ولقد احتل الإله الأعظم « فشنو » - الدراويدي الأصل - مكاناً بارزاً في الديانة الآرية والدراويدية على السواء منذ القرن الأول ، وحل محل « براهما » إله الآلهة للبراهمة ، وتجلت هذه الظاهرة في كتاب هندوكي ظهر في هذا العصر « البهاغاواتا » (Bhagavata) الذي يمجّد الإله فشنو ويفصل نظرية التجسد كما أورد لنا هذه التفاصيل السفير اليوناني في بلاط ملوك الهند في هذا القرن وهو « هيلودوروس » (Helodorus) .

كانت الدولة الكوشانية (٧٨ - ٣٠٠ م) آخر دولة في الهند ، تدفق الساسانيون على الهند وظلوا يحكمون السند إلى عام ٣٢٠ م ، ثم قامت الدولة المورية واستمرت إلى عام ٥٣٥ م ، وضعفت البوذية في هذه الآونة ،

إلا أنها انتعشت فيما بعد منذ عام ٦٠٦ م حينما قامت لها دولة في شمال الهند سميت « هاراشافاردانا » (Harshavardhana) واستمرت حتى عام ٦٤٧ م ، ثم ظهرت لها دولة أخرى في بنغال تحت اسم « اسرة بالا » (pala) : ٧٥ - ١٥٠ م). لقد قلنا أن البوذية صارت الديانة الرسمية في الصين منذ القرن الأول الميلادي ، كذلك أصبحت الديانة الرسمية في اليابان خلال عهد أسرة « شوتوكوتاي شي » (Shotokutaishi) : ٥٧٢ - ٦٢١ م) .

لقد اشتهر رجل في سوريا في القرن الثالث الميلادي وهو « بارديسانيس » (Bardesanes) الذي كان من الأصل البابلي . فقد رغب هذا الرجل في الديانة البوذية . وقد أتاحت له الفرص لمعرفة هذه الديانة حينما وفدت على سوريا سفارة هندية خلال عهد ملكها الشهير « الاغابالوس » (Elagalaus) : ٢١٨ - ٢٢٢ م) ، فتعلم منهم البوذية . لقد كان مولعاً من قبل بالتصوف ووحدة الوجود . وهذا الاتصال بالسفارة الهندية أثار رغبته في هذا المجال إلى أقصى الحدود . ثم لم يتمالك إلا أن شد الرحال إلى الهند لمشاهدة البوذية في موطنها الأصلي وزار كذلك الأغوار الشهيرة التي شيدها البوذيون وخلدوا فيها الفن الغانداري المعماري البوذي . لقد سجل انطباعاته كلها في هذا الصدد في كتابه . ولقد صرح بأنه وجد فيها تمثالا للاله سيثا - الهندي الأصل من حضارة نهر الهند - مع آلة التناسل منصوبة فيها على الطبيعة . وكذلك عرف هذا الرجل كثيرا عن الديانة الهندوكية . وقد كان لانطباعاته وآرائه صدى كبيرا في الشرق الاوسط ، ونال احتراماً بالغاً في عهده من جماهير الناس .

إن فشل الديانة الكونفوشية في تحقيق آمال الشعب الصيني في التقدم والإزدهار ساعد البوذية في أن تغزو هذه البلاد وتحتل في قلوب الناس . ولكن هذه الديانة سرعان ما امتزجت بالروح الصينية الأصلية وألقت بالديانة التاوسية (Taoist) الصينية ، وأصبحت صينية محضة في طبيعتها . ولكنها واجهت الصعوبات حينما ازداد زحف البدوين على الشمال وإحداثهم القلاقل

والاضطرابات في البلاد . ولكنها استعادت قوتها مرة أخرى منذ القرن الخامس الميلادي . وفي هذه الآونة ترجم معظم التراث البوذي من اللغات الهندية إلى الصينية .

ومن المعروف أن الصين قد تلقت الديانة البوذية المسماة بالمهايانية من الهند ، تلك التي عرضت بوذا في صورة الإله الذي تجسد فيه قشنو ، ولكن الصين سرعان ما مزجت البوذية بتراثها القديم ، وعرضتها في الصورة الصينية البحتة ، وذلك منذ نهاية القرن الرابع الميلادي .

لقد لعبت الصين دورا كبيرا في نشر البوذية في كل من اليابان وكوريا . وقد دخلت البوذية كوريا بجهود الرهبان البوذيين الصينيين خلال السنوات ٣٧٢ — ٥٢٨ م ، وكذلك دخلت اليابان في عام ٥٥٢ م ، ولكنها امتزجت في هذه البلدان أيضا بتراثها المحلي وحضارتها ، واستقلت عن الروح الهندية الأصلية ، وكذلك عن المزاج الصيني ومميزاته .

الهندوكية في آسيا الصغرى وسوريا

لقد تأثرت المدرسة الهيلينية اليونانية المنتشرة في آسيا الصغرى بالبوذية خلال القرن الأول الميلادي . واحد من زعماء هذه المدرسة في هذه الآونة وهو « أبولونيوس » (Apollonius) الذي اشتهر بالكرامات قد سافر إلى تاكسيلا ليتعلم الديانة الهندوكية من كهنوت ، فعلمه هذا الكهنوت . كانت تاكسيلا مدينة مشهورة على ضفاف نهر الهند بين بنجاب وبشاور .

مشكلات الرومانية ومصائبها

لما بلغت الهند قمة الحضارة والتقدم منذ القرن الثالث الميلادي تدهورت الأمور في الإمبراطورية الرومانية من جراء الحروب والأمراض الوبائية

وغارات القبائل البدوية من الشمال . ولذلك فقدت الروم سيطرتها على الملاحة العالمية في البحر الأحمر ، الأمر الذي أدى إلى تدهور التجارة العالمية في الشرق الأوسط وضعف الاسكندرية وفقدانها مكانتها العظيمة في هذا المجال . وقد ظهرت إيران على مسرح السياسة العالمية منذ عام ٢٢٩ م ، وأصبحت سيدة الموقف حتى القرن الخامس الميلادي ، كما ظهرت الحبشة واليمن كذلك في هذا المجال وأصبحتا مهيمتين على الملاحة العالمية في البحرين الأحمر والأبيض المتوسط وتفرضان ضرائب باهظة على السفن التي تتردد على ميناء عدن والموانئ الأخرى . ومن هنا اتجهت الهند إلى موانئ الهند الشرقية في خليج بنغال لتوطيد علاقاتها مع بلاد جنوب شرق آسيا ، كما أن الطرق البرية المؤدية من هندوكوش إلى بحرى قزوين والأسود قد استأنفت نشاطها لتكون على صلة وثيقة بالروم . وكذلك توجهت سفن الهند من موانئها الغربية إلى الخليج العربي مباشرة لتعفى نفسها من دفع الضرائب الباهظة للعرب اليمنيين في عدن . وهذا الطريق البحري الجديد ساعد على ازدهار موانئ الخليج العربي وازدهار مدينة تدمر في شمال شرق سوريا في المجال التجاري منذ عام ٢٧٣ م .

وهذه العوامل السياسية والاجتماعية خلقت الاضطراب واليأس والتشاؤم في نفوس سكان الامبراطورية الرومانية . ومن هنا زادت الميل إلى العزلة ووحدة الوجود وازدهار الاتجاهات السلبية في نفوس هؤلاء السكان . فظهرت وحدة الوجود في أبداع الصور وأروع الأشكال لانخفاء الدموع وتغطية الأحزان والآلام في ستار من العزلة النفسية والحياة الرهبانية .

وبما أن الاسكندرية قد صارت مركز الحضارة الرومانية منذ قرنين تقريباً فقد تأثرت إلى أقصى المدى من هذه الأحداث والتطورات . ولذلك نبعت فيها جميع هذه الفلسفات السلبية والاتجاهات المتشائمة ، ثم صدرتها إلى البلدان المجاورة لها في الامبراطورية الرومانية .

الفلسفة الغنوصية واتصالها بالبوذية

وفي العصر الهيلينسي (Hellenistic Age) — وهو عبارة عن القرون الثلاثة التي تلى وفاة الإسكندر ، تلك التي انتشرت خلالها الحضارة اليونانية في العالم أجمع — ظهرت « الغنوصية » (Gnosticism) ، وهي في الأصل نسبة إلى « غنوصيس » ، أي المعرفة . وهي حركة فلسفية ودينية نشأت في العصر الهيلينسي ، وأساسها : إن الخلاص يتم بالمعرفة أكثر مما يتم بالإيمان والأعمال الخيرة . ويقول الغنوصيون بالثنائية ، أي بالتمييز بين الخير والشر المعبرين عنصرتين أساسيتين للوجود ، وأدمجوا في تعاليمهم شيئاً من السحر والشعوذة .

وقد دخلت هذه الفلسفة المسيحية منذ البداية ، ولذلك نبذت المسيحية الغنوصية الأولى ، الأسس اليهودية للمسيحية ، وكذلك العهد القديم . ونادت في القرن الثاني الميلادي بأن الخلاص يتم عن طريق الحكمة (أي الصوفية) ، وقسمت الناس إلى ثلاث طبقات : الغنوصيين ، وخلاصهم مضمون ، والمسيحيين غير الغنوصيين ، ويمكنهم أن يخلصوا أنفسهم بالإيمان ، ومن عدا هؤلاء وأولئك هالكون .

وبهذا تكون الغنوصية الفلسفة الشرقية في غطاء يوناني قد اتخذت مركزها الاسكندرية وذلك قبل ظهور المدرسة الافلاطونية الحديثة في القرن الثالث الميلادي .

لقد كان من أبرز رواد الغنوصية فيها « باسيليدس » (Basilides) المصري الأصل ، وكان أكبر معاصر له في مصر آنذاك هو « هارديان » (١١٧ - ١٣٨ م) ، ذلك الذي اقتبس الحكم الشرقية لمزجها بالغنوصية ، ثم عرض المسيحية في هذا الإطار المزخرف البهيج من الحكم والفلسفات .

كان هارديان متشائماً جداً في الحياة . فقد حيره الألم والحوف

اللذان يعانينهما الإنسان ، ولا يتخلص منهما ولعله أول من فسر أسباب تقديم أرواحهم — بإذن من الله — تضحية لإنقاذ البشرية من الويلات والآلام . وهذه فكرة جينية تماما . لأن الجينيين قد اعتنقوها منذ البداية . لقد وجد من قبل أن الاسكندر قد صحب معه راهبا جينيا من الهند ، ذلك الذى أحرق نفسه اعتقادا منه بأنه يقدم نفسه تضحية للبشرية . وهذه النظرية دخلت فى البوذية أيضا فيما بعد ، ولذلك مارس كثير من الرهبان البوذيين هذه القرابين ، كما نجد هذه الظاهرة تتكرر فى عصرنا هذا بين حين وآخر بين الرهبان البوذيين فى فيتنام ضد السياسة الأمريكية فيها . ومن هنا اعتقد المسيحيون أن السيد المسيح ضحى بنفسه بالصلب لإنقاذ البشرية من الآلام والعذاب ، وذلك بعد تفسير « هارديان » هذه الظاهرة بهذا الشكل ، وفى غطاء من الفلسفة الغنوصية .

وأما معاصره « باسيليديس » — كما يشرح كليمان الاسكندرا فى المسيحية (١٥٠ — ٢١٢ م) مذهبه : بأن الروح قد ارتكبت الذنوب فى الحياة السابقة ، ولذلك تنال جزاءها فى هذه الحياة الثانية . ومن ثم يجوز التضحية بالأرواح فى سبيل النجاة والخلاص . وهذه نظرية التناسخ تماما ، تلك التى آمن بها « باسيليديس » وفسرها بهذا الشكل فى إطار الدين المسيحى . وكذلك تأثر بالبوذية فى قوله : إن الروح ليست لها صفات مميزة ، بل هى متصلة بالآلام والعواطف والانفعالات ، وأن الله لا يمكن رؤيته أو إدراكه ، بل هو لا يكاد يكون موجودا . وأن السيد المسيح قد دخلت روحه بعد وفاته فى حالة البرودة أى النرقانا وفق العقيدة البوذية .

مدرسة الاسكندرية

لقد صارت الاسكندرية منذ القرن الأول الميلادى منبع العلوم ومهد الثقافات ، وملتقى الحضارات التى تهوى إليهم النفوس ، وتشد إليها



لوحة (٢٥)
اثنان من الرهبان البوذيين



لوحة (٢٦)
ثلاثة من الرهبان الهندوس على طريقة اليجيين

الرحال ، وتلتقى فيها العقول والوجدان . يقول راوليسون : إن بولس الرسول (الذى استشهد فى عام ٦٧ م) نال ترحابا جاريا فى مدرسة الإسكندرية . لقد تلقاه « اريوباغوس » (Areopagus) فيها بحفاوة ونال فيها الراهب البوذى « بارىغازا » (Barygaza) نفس التقدير والترحاب . وكان هؤلاء الزوار والرواد يتفاهمون ويتناقشون باللغة العالمية الدارجة التى تكونت فيها فى ذلك الحين .

وبالإضافة إلى هذا اللقاء ، فقد تردد على الإسكندرية كذلك كثير من الحينيين والبوذيين وهم فى طريقهم إلى الروم . وهناك وثائق عديدة تشير إلى مثل هذه الزيارات ومن هنا يعتقد راوليسون أن الاسكندرية كانت على علم تام ومعرفة كاملة بأديان الهند وفرقها ونحلها .

اللقاء بين المسيحية والبوذية فى الاسكندرية

كان « تيمتوس كليمان » (Clement) : ١٥٠ - ٢١٨ م) لاهوتيا يونانيا ولد فى أثينا من أبوين وثنيين ، واعتنق المسيحية وتعلم على « بانتاينوس » رئيس مدرسة التعليم الدينى بالاسكندرية . وقد هجر الاسكندرية فى عام ٢٠٢ م فرارا من الاضطهاد الذى شنه « سيطميوس سفروس » على المسيحيين .

وكان هذا العالم الجليل ملما جدا بالبوذية . وذكر فى بعض كتبه بأن اليونانيين سرقوا البوذية وهم لم يزالوا فى طور البدوى . وهذا أول عالم مسيحى صرح بوضوح بالبوذية ، والبوذيين الذين أسبغوا على بوذا صفات الألوهية ونصبوه إلها من الآلهة . ولعله يقصد بذلك عرض بوذا فى صورة فئشو الإلهة المتجسد فيه . وكذلك ذكر هذا العالم عقيدة التناسخ وهيكلًا للبوذيين على صورة الأهرام المصرية ووضعوا تحته رفات بعض أوليائهم ، وذلك كرمز وتقديس لهذا الهيكل .

ويرى راوايسون (Raulison) على ضوء هذه التصريحات وجود ملامح متشابهة بين القصص البوذية وبين قصص بعض الأناجيل مثل ولادة كل من بوذا والسيد المسيح ، وأول وعظ لبوذا في بنارس ، والحوارين الإثني عشر .

لقد وردت هذه القصص البوذية في كتاب بوذى يسمى « لاليتافستارا » (Lalita vistara) وهذا يدل على اقتباس المسيحية هذه الأمور من البوذية بسبب كونها متأخرة جدا بالنسبة إلى البوذية بما يقرب من خمسة قرون . وناهيك بالدوى الذى أحدثته البوذية في العالم الرومانى قبل ظهور السيد المسيح وبعده .

وفي كتاب « جاتاكا » الذى يتضمن قصص بوذا ومعجزاته وكراماته نجد قصة جاء فيها أن واحدا من أخص أتباعه مشى على سطح الماء حينما كان فى حماسة انعقيدة عن بوذا . ولما طغى عليه السرور والبهجة وانخفضت عقيدته فى بوذا بدأ يغرق فى الماء . ومن المعروف أن المسيحية هى الأخرى تنسب قصة مماثلة لها إلى أتباع المسيحية .

وبالإضافة إلى ما أورده كليمان فقد أورد « ميلك كريندل » (mccrindle) نصوصا تدل على اتصال الإسكندرية المسيحية بالبوذية فى هذه الآونة ، وإن المسيحيين فيها قد أعجبوا بقصة الملكة مايا البوذية إلى أقصى الحدود . وقد حدث كل ذلك خلال القرنين الثانى والثالث الميلاديين .

وكذلك اتصل بالتصوف الهندى والبوذية « أمونيوس ساكاس (Ammonius Sacan) ذلك الذى يحتمل أن يكون من مواليد الهند (المتوفى عام ٢٤٢ م) فى المناطق اليونانية فيها . لقد درس هذا العالم كذلك الأفلاطونية الجديدة فى الاسكندرية ، وكما اتصل بالتصوف الهندى والبوذية العالم المسيحى الشهير (أوريجين) (origen)

المتوفى عام ٢٥٤ م) ذلك الذى عرض الكنيسة المسيحية بصورة منظمة ومنسقة لأول مرة .

وعلاوة على الأمور المذكورة فقد تركت الرهبانية الهندية وحياة العزلة والاستغراق أثرا بالغ الأهمية فى المسيحية فى سوريا . ويعترف بهذه الظاهرة جميع الباحثين دون استثناء ومن بينهم « ميكنيل » (W . H . mcneill) ذلك الذى لايرضى الاعتراف بأثر الهند فى المسيحية بكل صراحة وبرحابة صدر .

إن الظروف التى واجهتها المسيحية فى الامبراطورية الرومانية كانت شبيهة جدا بظروف البوذية ، لأن الوثنية الرومانية فرضت حصارها على البوذية كما فرضت على المسيحية فيما بعد . وهذه الظاهرة هى التى دعت المسيحية إلى الاقتراب من البوذية المنتشرة فى الشرق لأوسط والتجاوب معها والإستفادة منها .

ويرى راوليسون أن المسيحية فى الإسكندرية قد اتخذت من البهاكتية واليوجية ووحدة الوجود الهندية معظم خصائصها وملامحها البارزة مثل السبحة واتخاذها رمز التقديس والمهابة والمبالغة فى الرياضات البدنية والرهبانية والعزلة .

وقد قامت بعثة فرنسية من الارساليات برحلة تبشرية فى عام ١٨٤٢ م إلى « لاسا » عاصمة التبت ، الواقعة على رأس الهملايا ، واندشت إلى أقصى الحدود حينما وجدت تشابها كبيرا فى المراسيم البوذية وطقوسها وبين المسيحية الكاثوليكية . لأنها شاهدت فى الأديرة البوذية فى لاسا صولجان الأسقف ، وتاجه ، ورداء الكاهن على نفس الطريقة الكاثوليكية . كذلك وجدت صورة مماثلة لها فى جوفتين للمنشدتين فى المكان المقدس ، وفى الأناشيد ، والتعاويد ، والمبخرات المربوطة بخمس سلاسل ، ومنح البركة للمصلين على جبينهم باليد اليمنى للكاهن ، وكذلك كانت السبحة وعزوبة أكليروس مماثلة للكاثوليكية .

وناهيك بالتشابه الكامل في حياة الرهبانية والعزلة عن الدنيا ، والاعتكاف والصيام والمواكب الدينية ، والابتهالات ورش الماء المقدس .

ومن المعروف أن التبت لم تكن على صلة مباشرة بالشرق الأوسط ، بل عاشت في عزلة تامة عن الدنيا ماعدا الهند . لقد انتشرت فيها البوذية قديما عن طريق الهند ، وهذا الأمر يؤكد اصالة البوذية في هذه الأمور الطقوسية كلها ، تلك التي كانت منتشرة ومعروفة في أنحاء العالم البوذي في ذلك الحين ، وبصفة خاصة في العالم الروماني ، ومن هنا دخلت بخدافيرها إلى المسيحية في الاسكندرية في العهد الروماني .

ويرى بعض الباحثين الإفرنج أن السيد المسيح قد جاء في صورة طبق الأصل لبوذا . ومن هنا سمي « توماسا كيمبيس » (Thomasa - Kempis) « كتابه » محاكاة المسيح (gmitationob christ) يقصد بذلك محاكاته لبوذا .

ويرى باحث آخر وهو « إدوارد كونز » (Edwar dConze) أن المسيحية تتفق مع البوذية في عقيدة الآخرة هي « النرقانا » ، أي برودة مطلقة لا حياة ولا موت ، ولا نشور ، ولا عذاب ولا جزاء . وهذا يدل بوضوح على أن المسيحية كانت فعلا صورة مكررة للبوذية المتمثلة في المهايانية .

ومن ناحية أخرى فإن ظهور الكنائس المسيحية وسلطاتها ونظمها في البداية شبيهة بالبوذية إلى درجة كبيرة جدا . لأن البوذية في عصر بوذا لم تشهد معبدا ولا ديرا ، بل عاش بوذا حياة التنقل والتجول دون مسكن له أو مأوى . ولعل إنتشار الأديرة البوذية في أنحاء العالم بعد بوذا بقرون ، وفي الشرق الأوسط بالذات أيام الإغريق أعطى المسيحية فكرة إنشاء الكنائس على منوالها .

يقول كاتب انجليزى مشهور فى الرحلات والأسفار وهو «انغبورغ وودكوك» (Woodcock) بعد مشاهدته أروع آيات الفن والجمال فى المعابد البوذية الهندية فى أغوار اجتنا وألورا : أنها تشبه المسيحية من كل الوجوه . لأن تعاليم بوذا كانت بسيطة للغاية وحياته فقيرة جداً ، ولم يكن له معبد ولا دير ولا مسكن . ثم أنشئت هذه الأشياء وتطورت إلى أقصى الحدود وأصبحت تمثل أروع آيات الفن والجمال فى الهندسة المعمارية والتصوير والنحت والرسم ، كما أن حياة بوذا ، من خلال تمثاله عرضت فى صورة فخمة ، كأنه عاش حياة البهجة والترف والزخارف . ونفس ماحدث بالنسبة إلى المسيح والمسيحية أيضاً . لأن حياة المسيح فى البداية كانت شبيهة ببوذا ، وتعاليمه هى الأخرى اتسمت بنفس البساطة . إلا أنها عرضت فيهما بصورة فخمة بهيئة مزخرفة إلى أقصى الحدود . ويرى الكاتب أن الديانة البوذية المتمثلة فى العقيدة المهايانية تعرض بوذا منقذاً لبني الإنسان من ويلاته وآلامه ، وأوجد حلاً له وهو نفى الذات وتخفيف الملذات والأمانى وممارسة الضغط عليها . كذلك اتخذ المسيح آلام الإنسان ومصائبه محوراً أساسياً لتعاليمه ، إلا أنه ضحى بنفسه من أجل انقاذ البشرية وخلصها من المشكلات والآلام كحل نهائى ، وهذا هو الفرق الدقيق بينهما .

الاسكندرية مركز الثقافة فى العهد الرومانى

..ولما توفى الاسكندر فى عام ٣٢٣ ق م لم تكن لشعر الاسكندرية أية أهمية . ولكن بطليموس الأول (٣٢٣ — ٢٨٥) هو الذى أنشأها واتخذها عاصمة له ، وأعطاه المكانة الدولية . لقد كان بطليموس الأول صديق اسكندر ورفيق صباه ، وشريكاً له فى جميع غزواته فى آسيا الصغرى . ولما مات الاسكندر حكم مصر بالنيابة عنه وأنشأ هذه المدينة ، ودفن فيها رفات الاسكندر ، وأنشأ بها الفنارة إحدى

عجائب الدنيا السبع ، وأنشأ متحفاً ومكتبة . وكان حكم ابنه بطليموس فيلادلفوس ٢٨٥ - ٢٤٧ ق . م امتداداً لحكمه ، ثم بلغت الاسكندرية ذروة مجدها في ظل حكم بطليموس الثالث ٢٤٧ - ٢٢٢ ق . م . كانت أثينا في اليونان مركز الفكر والفلسفة قبل فتوحات الاسكندر . ولكن مكانتها ومميزاتها قد انتقلت آنذاك الى الاسكندرية . كانت فلسفة أثينا قبل ظهور مدرسة الاسكندرية تتمسك بالفكر اليوناني ، ولم ترض التجاوز عن حدوده ، ولكنها في الاسكندرية اتسعت للتجاوب مع جميع الأفكار والفلسفات العالمية . وقد حملت الاسكندرية لواء الفكر والعلم في القرن الثالث قبل الميلاد حينما أنشئت وظلت تحمله الى القرن الخامس قبل الميلاد . لقد تميزت مدرسة الاسكندرية في بداية عهدها بنزعتها العلمية ، وبخاصة العلم الرياضي ، ولكنها سرعان ما اشتغلت بالفلسفة منذ القرن الأول قبل الميلاد ، وأخذت تنظر في فلسفة الأديان بوجه خاص بعد ظهور المسيحية ومنذ حدوث الصراع الفكري بينها وبين وثنية اليونان والرومان وديانة المصريين القدماء ، بالإضافة الى الديانات الشرقية الشهيرة : البوذية واليهودية والزرادشتية والمناوية . وفي خضم هذه التيارات الفكرية والدينية ظهر في الاسكندرية « الفيثاغورية الجديدة » تحاول التوفيق بين الأديان ، ومنها نبعت جماعة اخوان الصفا ونحلان الوفاء في القرن الرابع الهجري عند المسلمين .

وظهرت كذلك في الاسكندرية مدرسة الافلاطونية الحديثة في محاولة التوفيق بين أفلاطون وأرسطو مع ميل إلى الأفلاطونية وقد حمل لواءها آخر كبار الفلاسفة في الزمن القديم وهو افلوطين ٢٠٥ - ٢٧٠ م

كان هدف أفلاطين من المدرسة أن تكون نبراساً يهدي النفوس إلى التقوى والصلاح والخير . فكان يصرف تلاميذه عن الاشتغال بأمور الدنيا ، ويحملهم على حياة من الزهد ونوصل إلى شفاء النفس بالتجرد عن جميع العلائق وامانة سائر الشهوات . وكان هو نفسه مهملًا أمر جسده محتقرا إياه ، ممتنعاً عن أكل اللحوم . وقد استهوت هذه التعاليم كثيراً من التلاميذ حتى

أن « روجاتيانوس » عضو انشيوخ نزل عن أملاكه وأمواله وعبيده والقابه ، وسار في طريق الزهد حتى أصبح لا يأكل إلا مرة واحدة كل يومين . وكان للناس - رجالا ونساء - فيه اعتقاد عظيم حتى أنهم عندما كانت تحضرهم الوفاة يعهدون بأبنائهم وبناتهم ، وما يملكون إلى رعايته ووصايته ، فكان منزله يعج بالصبيان وانبثات وكان لذلك يقوم بتعليمهم الأدب والشعر ، ويأخذ بيدهم إلى طريق الفلسفة ، ويحتفظ بأموالهم لا يمسها حتى يبلغوا مبلغ الرجال وسن الرشد .

كان أفلاطون plotinus منشىء المدرسة الأفلاطونية الحديثة Neoplatonic School مولعا بالفلسفة الهندوكية ، وهذا هو السبب في أنه صاحب (غورديان) Gordion في مهماته العسكرية ضد ساجور (ملك إيران) في عام ٢٤٢ م لكي تتيح له الفرصة للاتصال الشخصي بالهنود من مدارس وحدة الوجود والبهاكتية واليوجية ، وادخل مبادئ هذه الفلسفات كلها في الأفلاطونية الحديثة . ولذلك تجلت فلسفته في صورة مشابهة للبهاكتية واليوجية ووحدة الوجود ، واستطاع تفسير الروح على الطريقة الهندية بأنها تنحل في النهاية في القوة الحقيقية المطلقة العالمية وهو الله .

كذلك تأثر بالبوذية والحنينية ومن جراء ذلك امتنع عن ذبح الحيوانات وأكل لحومها .

معالم الحضارة البوذية والهندوكية

لم تكن توجد العمارات والمعابد والتماثيل والصور في عصر بوذا ، ولذلك لم يصنع أحد لبوذا تمثالا في عصره أو صورة له ، بل لم يشهد هذا العصر الفنانين الذين يستطيعون الحفر والنحت مطلقا بل هناك دلائل تشير إلى معارضة بوذا لجميع أنواع الفن والتصوير والزخارف لأنها تعارض تعاليمه التي تدعو إلى البساطة والزهد في الحياة . لأن مثل هذه الأدوات الحضارية لا يمكن توافرها لجميع الشعب . ولذلك كانت العمارات بسيطة ، تشيد باللبن المحفف بالشمس .

وفىما يتعلق بتذكار بوذا فقد احتفظوا بالأماكن التى ولد فيها ، والشجرة التى نال تحتها النور والضياء ، وشجرة ببيل وزهرة اللوتس ، وكل ذلك كان رمزا لقداسته ، كما وضعوا تذكارات لحواريه الذين إلتفوا حوله ولازموه على الدوام فى كل مكان . ولم يكن النحاتون فى عصره يستطيعون نحت أو حفر صورة وما يستطيعون إلا كتابة وحفر الأسماء فقط ، ولذلك وجدت أسماء بوذا وحواريه منحوتة كما وجدت أسماء كثير من الآلهة دون وجود صور أو تماثيل لهم .

وقد وجدت أوائل النماذج للفن البوذى فى كارلى التى تقع على مقربة من يومباى من ناحية الهضبة الغربية . فقد ازدهرت هذه المدينة ودخلت التاريخ منذ عصر أشوكا . وقد شيدت فيها أوائل نماذج للمعابد البوذية خلال القرن الثانى قبل الميلاد بمنتهى البساطة دون ظهور لون من الألوان الحضارية وزخارفها عليها وذلك وفق العقيدة الهينايانية التى نشرها أشوكا ، تلك التى تعرض بوذا كبشر ومصلح عظيم . ولم يعرض بوذا فى هذه الآونة فى صورة إله متجسد فيه فشنو ، كما عرضته العقيدة المهايانية فيما بعد . إن معبد كارلى يقع على قمة جبل ، ويبدو بناؤه من خلال أعمدته كأنه قناطر ، وكل ذلك فى منتهى البساطة . وكان الرهبان البوذيون يعتكفون فيه قبل ألفين سنة . وبمقابل هذا المعبد البوذى العتيق قد شيد أيام مجد الحضارة الهندوكية معبد آخر للاله سيثا ، وفيه فرجه منصوبا فى صورة أكليل من الزهور ، وذلك رمزا للخصوبة . ومن الجدير بالذكر أننا لا نجد فى هذا المعبد تمثالا لبوذا ، بل إنما نجد رموزه على عدة صور وأشكال .

الفاندارا مدرسة الفن المعمارى البوذى الجديد

ولما التقت الحضارات العالميه كلها فى ساحه الشرق الأوسط والهند عقب غزوات الاسكندر وانتصاراته ، امتزجت ثقافات هذه البلاد كلها فى شتى المجالات وأبرزها الفن المعمارى وصناعة التماثيل والنحت .

وقد اشتهرت كل من مصر والعراق في اصالتهما في الفن المعماري. والفنون الجميلة كلها منذ القدم ، ثم تجاوزت معها جميع البلدان في الشرق الاوسط . ومن المعروف ان الهند قد تخلقت في هذا الميدان منذ سقوط حضارة نهر الهند واستيلاء الآريين على مقاليد الامور في البلاد . ولذلك ظهرت بوادر الفن المعماري فيها منذ عصر شندرغبت موريا ٣٢١ — ٢٩٧ ق.م ، ثم تطورت هذه الفنون ، ودخلت في تطور جديد منذ عصر اشوكا (٢٧٣ — ٢٣٢ ق.م) ، ذلك الذي استخدم الصخور لصناعة اعمدة الدعايات والاعلام منها ، ونحت تعاليم بوذا على هذه الأعمدة باللغة البالية وبالحروف الفينيقية (لغة سوريا ولبنان السامية) . ومن المعروف أن البهو انقصرى العظيم الذي شيده جده كان على غرار بهو ملوك ايران . وبهذا يمكن أن يكون قد اشتغل في بلاطه صناع ايران واليونان ومهرتهما . ولكنه منذ سيطرة العنصر اليوناني على مناطق الحضارة في الهند وامتداد نفوذهم الى بحر قزوين من جهة ، والى الصين من جهة أخرى حدث اتصال دولي بين هذه البلدان ، وتبعاً لذلك ظهرت فنون ممزوجة تحمل صفات حضارات هذه البلدان كلها ومميزاتها ، ونعني بذلك حضارات الشرق الاوسط واليونان ، ثم الرومان والهند والصين . ولكن الصبغة الهندية واليونانية كانت غالبة عليها . وهذا المزيج من الفنون يتضمن الطراز المعماري وصناعة التماثيل والنحت والتصوير وسمى « الغاندارا » (Gandara) . وفي اثناء عملية الاحتمار في « تاكسيلا » على نهر الهند قد لوحظ أن أثر اليونان في هذه الفنون كان عميقاً جداً .

ويمثل أعظم تقدم فني في تماثيل « بوذا » الذي قام بصنعه كل من مهرة الهند واليونان الفنيين . وبهذا تركزت المهارة الهندية واليونانية وعبقريتهما في بوذا وآثاره ، لأن كلاهما كانا يقدسانه إلى أقصى الحدود ، وهما اللذان نشرتا البوذية من الصين إلى الشرق الأوسط .

وعلى ضوء هذه الحقائق يكون الفن الغانداري قد ظهر منذ القرن الأول قبل الميلاد ثم تطور وبلغ أقصى غاية النضج والكمال في عام ٢٠٠ م .

تطور فن الغاندارا

لقد ظهر فن الغاندارا بالمعنى الحقيقي منذ عصر الدولة الكوشانية . وفي أثناء الحفريات في تاكسيلا عثر على إفريز مزخرف بأنواع من الزخارف ، وتلوح فيه آثار اليونان بكل وضوح . ولكن الغانداري يطلق على تمثال بوذا الذى صنعه كل من الفنانين الهنود واليونانيين . وبهذا يختص هذا الفن باليونان والهند فقط ، ومع أن الفنانين الإيرانيين والعراقيين قد ساهموا في هذا الفن . وبانتشار البوذية في أنحاء العالم قد انتشر هذا الفن ، وانتقل إلى بلدان الشرق الأوسط إلى غاية بحر قزوين . والبحر الأسود من جهة ، وإلى الصين واليابان وسيلان من جهة أخرى . ومن المعروف أن أصالة الفن الغانداري لا يمكن استمرارها بسبب هذا الانتشار والشيوع الذى ناله هذا الفن في أنحاء العالم ، ومن هنا كان محتمل أن يمتزج هذا الفن بالطوابع المحلية لكل هذه البلاد ويمتص مميزاتهما ويظهر بشكل ممزوج جديد ، تذوب فيه أصالة الهند واليونان .

قد صنع أول تمثال لبوذا في الدولة الكوشانية . يرتدى بوذا في هذا التمثال كساء الرهبان العادى . ولكنه بعد تقدم فنون النحت والتماثيل عرض بوذا في غطاء فضفاض أنيق ممتاز ، وهذه الظاهرة واضحة المعنى في التماثيل التى صنعت له في الصين . كان تمثال بوذا في الدولة الكوشانية قد حفر على صخرة حمراء .

ماثورا

تقع ماثورا (Mathura) في شمال الهند بالقرب من « آغرا » موقع التاج محل . وقد عرفت هذه المدينة منذ القدم ونالت شهرة فائقة ودخلت في الأساطير بسبب كونها مسقط رأس « كرشنا » صاحب العجينا . ولم يزل فيها صنم لإله داراويدى قديمذى شعر أزرق . لقد انضمت هذه المدينة منذ القرن الثانى قبل الميلاد إلى الامبراطورية .

المورية التي أنشأها أشوكا . ومن هنا انتقل الفن الغاندارى من الدولة الكوشانية وتطور تطورا كبيرا . وقد حفر هناك تمثال بوذا بصورة متقدمة وفى حجم كبير وعلى صخرة طويلة ، الأمر الذى يدل على تقدم صناعة التماثيل فى هذه المدينة على أيدي الصناع المهرة . ولكنها مع ذلك لم تصل إلى مستوى كبير فى الصفاء والنعومة ، لأنها لم تزل فى طور متوسط ، إذ لم يصل إلى القرن الثالث الميلادى . وهذه التماذج هى التى نالت التقدير فى عصر غبتا منذ القرن الرابع الميلادى ، ثم تقدمت تقدما ملحوظا فيما بعد .

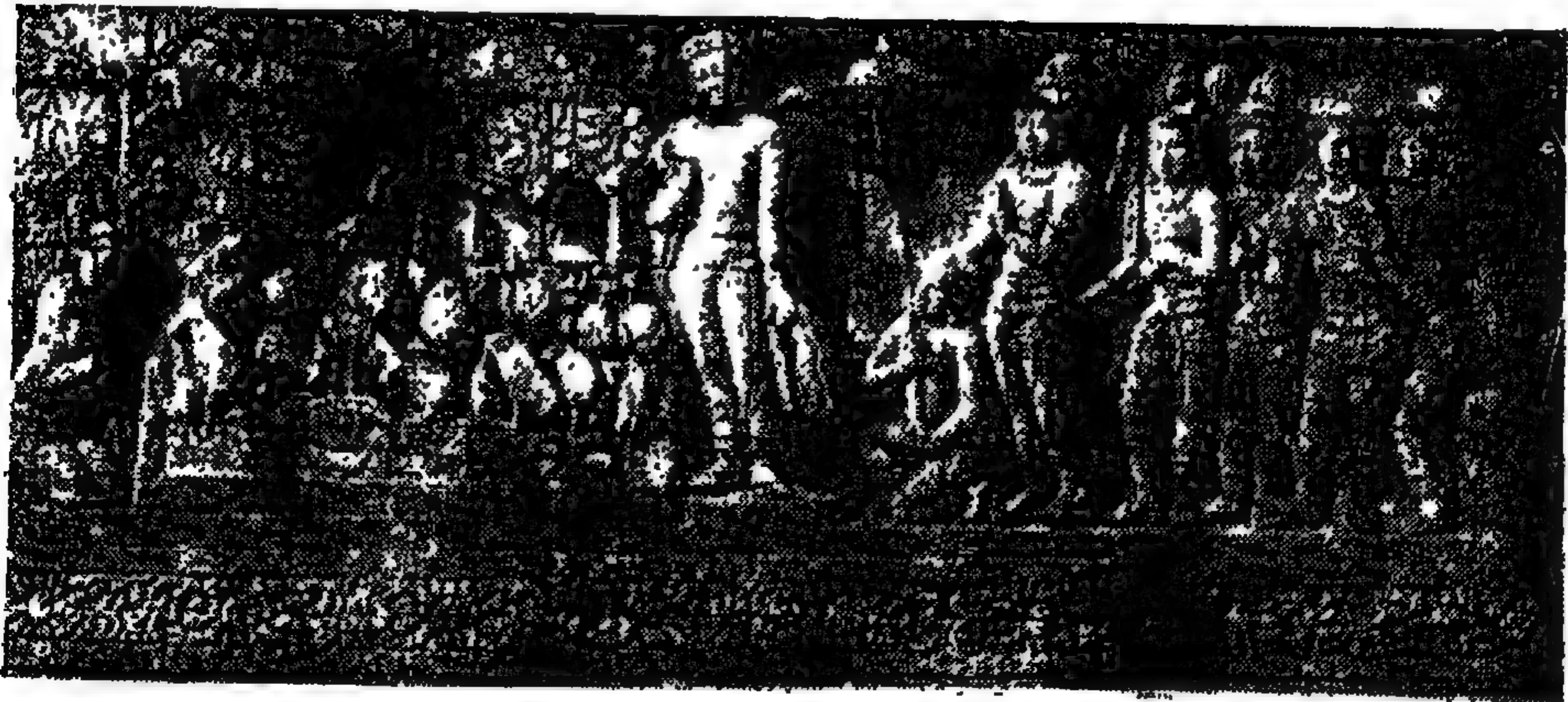
وكذلك نحتت فى ماثورا آلهة تشبه حوراء فى جمالها وفى منتهى الرقة والدقة ، ولا يظهر جسمها النحيل إلا إلى حقوها فقط ، وذلك على الأعمدة والحواجز . وهذه عينات رائعة تمثل دقة فن النحت ورقته ورشاقته وجماله .

ويوجد فى هذه المدينة معبد بوذى شيد فى القرن الأول الميلادى . ولكن مما يأخذنا الدهشة أننا نجد على المعبد تضاريس كبيرة وهى عبارة عن نقش منحوت للإلهة الهندية القديمة عارية المنظر ، مكشوفة الفرج مثيرة للشهوة والغرائز الجنسية ، بارزة الثدي ، قائمة على إنسان ، شكله كالحنزير ، تتدلى من يد عنقيد العنب ومن الأخرى إناء الخمر ، ويقرب منها رجلان فى غاية الشهوة لمعانقتها وهى على شرفة ويحاولان مداعبتها ومغازلتها . ولاندرى كيف دخلت هذه الإلهة المثيرة للغرائز الشهوانية فى معبد بوذى مقدس ؟ ومن المحتمل جدا أن الدراوديين فى هذه المنطقة لما اعتنقوا البوذية أدخلوا آلهتهم القديمة فى العقائد البوذية وطقوسها ، وبهذا ظهر فى هذا القرن خليط من الديانة البوذية والدراويدية التى طغى عليها الطابع البوذى .

لقد دخلت هذه المدينة فى حوزة إمبراطورية أشوكا فى البداية ، ثم انضمت إلى الدولة الكوشانية وأصبحت عاصمتها فى فصل الشتاء



لوحة (٢٨)
تمثال بوذا المصنوع خلال القرون الثاني
- الخامس الميلادي وفق الفن الغانداوي



لوحة (٢٧)
بوذا يستحم ويفسل ثيابه في نهر نرنفانا بعد
جهاد نفسي شاق استمر ست سنوات ، ثم يتجه الى الشجرة
التي اعتكف في ظلها حتى حصول النور والمعرفة (تمثال من جاوا)

يسبب مناخها الجميل في ذلك الحين . ومن هنا إمتزجت فيها الفنون الهندية والإغريقية ، وظهر مزيج من هذ الفن المتقدم ، الذى نعتقده بدون شك - صورة متطورة ومتقدمة للحضارة الكوشانية . وقد ظلت هذه الحضارة تنمو وتزدهر قرابة خمسة قرون ، أى منذ القرن الأول الميلادى حتى القرن الخامس الميلادى .

وتمثل العقيدة المهايانية البوذية في جميع هذه الفنون ، كما أنها دخلت في مرحلة التقدم والازدهار فيما بعد بسبب رعاية غبتا الذى كان من أعظم الملوك الهنود . ويجرى في هذه المدينة نهر الجمننا الشهير ، ويقع على شاطئه مقابل لهذه المدينة وعلى مسافة ستة أميال منها مدينة تاريخية أخرى تسمى « برندابان » . وهى مسقط رأس « كرشنا » ومرتعه في صباه . وهنا ظهرت معجزاته التى تنسبها إليه الأساطير . وقد ظهرت هذه المدينة منذ بداية العصر الآرى في التاريخ ، ثم نالت إعجاب الناس بسبب صلتها بكرشنا ، وأخيرا إحتضنت البوذية وتراثها الحضارى . ولكننا لانجد الآن في هذه المدينة إلا أطلال معابدها القديمة .

وبالإضافة إلى هذه المدن إزدهرت مدن كثيرة على وادى نهر الهند بفضل البوذية وانتشارها . إن المباني البوذية المبنية بالطوب في وادى السند على الرابية - وهى انقاض واطلال حضارة موهنجودارو وهارابا - يرجع تاريخها إلى القرنين الثانى والثالث الميلاديين . وخلال هذه الفترة إزدهرت المباني والعمارات بصورة متطورة جدا . وعلى جوار هذه المباني تقع أماكن مقدسة حيث كانت تؤدى المراسم الدينية .

سانشى

ثم إنتقل مركز الفن الغاندارى إلى « سانشى » (Sanchi) وسط الهند بالقرب من بهوبال . وهنا شيدت الناذج الأولى للهياكل

البوذية أو معابدها التي سميت إستوباس (Stupas) أو شايثيا (Chaitya) لأداء العبادات والطقوس وعقد المجالس والندوات . وفي نماذج المعبد من هذه المعابد تلوح لنا بوضوح الفن الروماني . وكذلك إحتفظت لنا هذه المدينة بأول نموذج للمعبد الهندوكى . ويتراءى لنا من رؤية هذا المعبد أو أعمده أنه قد شيد على الطراز الرومانى خلال القرن الرابع الميلادى ، وفى بداية عصر غبتا . وبعد مرور الزمن على هذه النماذج بدأت تتجلى العبقرية الهندوكية فى معابدها الشاهقة وهياكلها الناطحة السحاب . لقد تطورت المعابد الهندوكية منذ نهاية القرن الرابع الميلادى ، وبلغت القمة فى القرن الخامس الميلادى ، وتشبه معابدها فى هذه الآونة صورة مكعبة الشكل وعلى رأسها آلهة قديمة وشرقة عالية مثل البرج ، والطرق المنحنية حول المعبد ويتخللها أحيانا طريق ضيق وعليه سقف منحن .

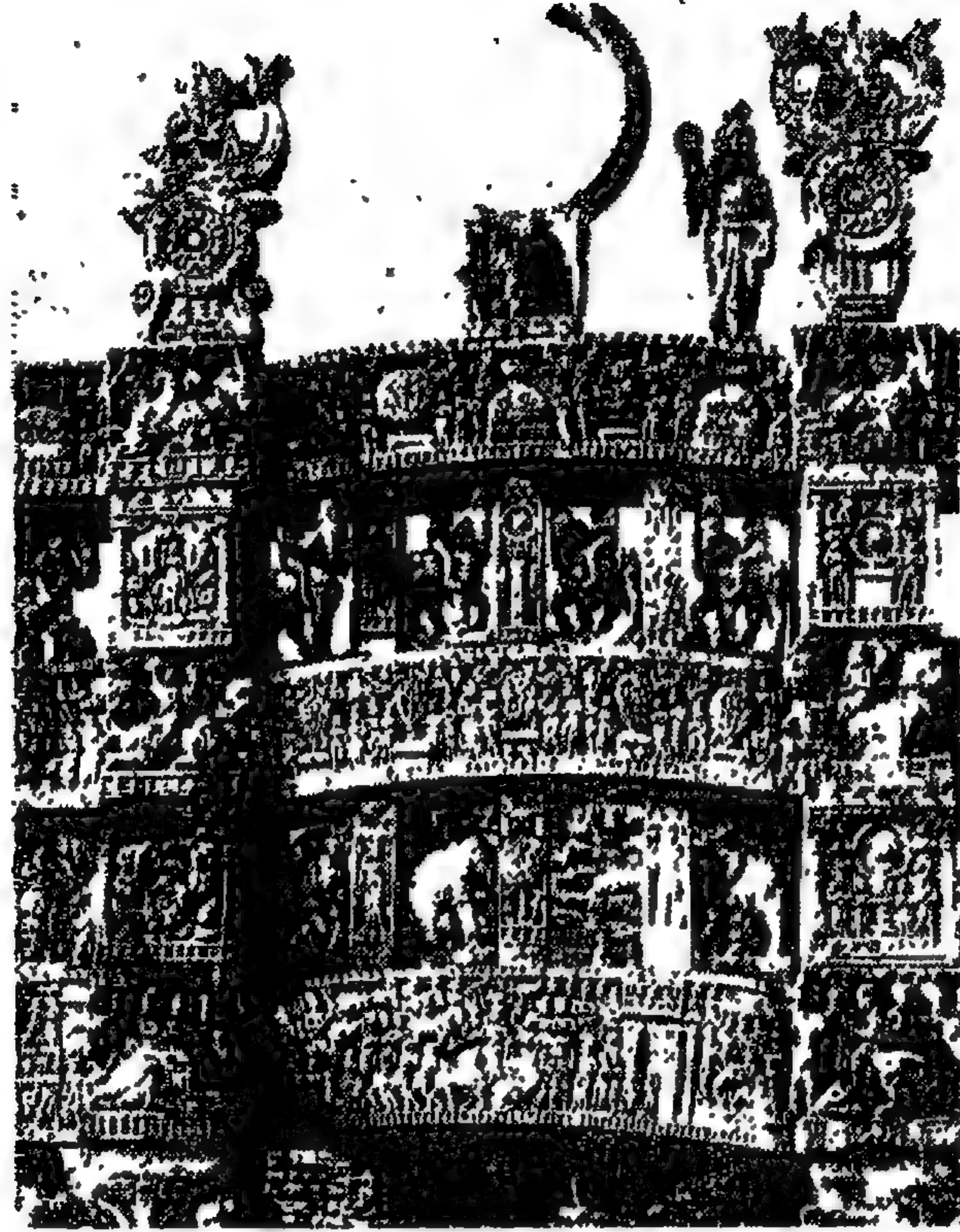
وهنا إستطاع الفن الغاندارى أن يدخل فى طور جديد من الإبداع والإتقان ، وخلق ذاتيته . ولذلك لانكاد نرى ملامح اليونان فى آثارها البوذية.

الآثار البوذية الأخرى والعملات

وعلى المناطق الممتدة من السند إلى داخل فتحات هندوكوش عثر علماء الأحفار على عملات وآثار بوذية تمثل أوائل نماذج الفن الغاندارى وعيناته الأولى ، وإن تاريخها يرجع من عام ١٠٠ ق.م إلى عام ٢٠٠ م . ويبدو أن هذه العملات قد سكها اليونانيون . وكذلك نحت هؤلاء التماثيل للشخصيات البوذية العظيمة مبتدئا من بوذا ومنتهيا إلى حواريه واشهر الرهبان والأولياء من أتباعه الذين ظهوروا خلال هذه القرون . ومن الجدير بالذكر أن



لوحة (٢٩)
معبد بوذي في سانشي



لوحة (٣٠)

— البوابة الشمالية من هذا المعبد . وفي الافريز الأول نرى شجرة
مقدمة ترمز الى وفاة بوذا وحصوله على المعرفة تحت ظلها . وعلى يمين
الافريز الأسفل نرى عجلة وهي رمز الوعظ الاول لبوذا الذي يعتبر بمثابة
القوانين البوذية . وعلى الشمال نجد الهة لاکشمى بين الفيلين وهما يرشان
عليها ماء نهر الجنجا المقدس . وبهذا يشير هذا المعبد الى خلط بين العقائد
البوذية والهندوكية .

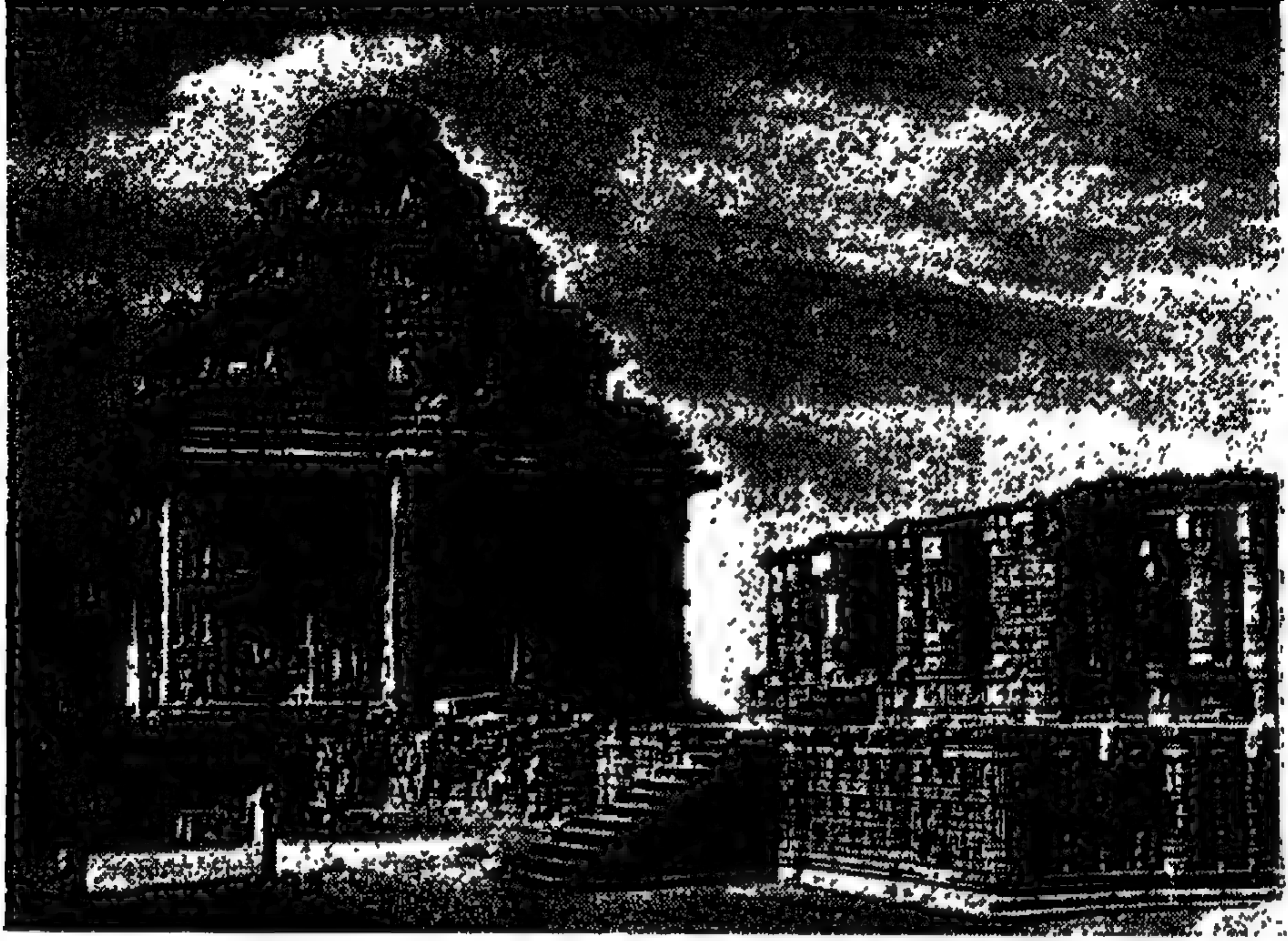
اليونانيين قد استوطنوا هذه المناطق منذ فتحها الاسكندر في القرن الرابع قبل الميلاد ، ولكنهم سرعان ما اعتنقوا البوذية وامتزجوا بالفكر الهندي وراثته ، وكما انتشر التزاوج والتناسل بين العنصرين الهندي واليوناني ؛ الأمر الذي أدى إلى ظهور نسل خليط من هذين العنصرين ومميزاتهم ؛ وإن كان الطابع اليوناني واضحاً على ملامحهم بسبب الاتصال الوثيق المباشر الذي تم بين هذه المناطق واليونان خلال هذه القرون الثلاثة. ومن هنا لا يصح نسبة هذا الفن إلى اليونان كلية ، وإن كان دور الهند فيه يسيراً ، بسبب تخلفها في الفنون الحضارية منذ نزوح الآريين إليها .

وتلوح للباحثين - في نفس الوقت - ملامح الهند والصين واضحة بصراحة ملموسة خلال بعض الآثار البوذية من هذا النوع والتي يرجع تاريخها إلى القرن الثالث الميلادي . والسبب في ذلك انتشار البوذية في أنحاء هذه البلدان من جنوب شرق آسيا واتخاذها الصبغة الرسمية فيها ، وعناية ملوك الكوشانية بهذه الفنون ، وذلك على الرغم من ميلهم الشديدة إلى النواحي التجارية والاقتصادية ، وذلك لجلب المنافع المادية والرفاهية الشاملة لبلادهم وتطويرها في هذا المجال إلى أقصى الحدود .

كانت سيلك (Silk) في شمال الكوشانية حلقة الاتصال بين الحضارة الكوشانية والصين من جهة ، وبينهما وبين إيران والعراق وآسيا الصغرى إلى غاية البحر الأسود من جهة أخرى . وعلى هذا الطريق وصل الفن الغانداري إلى الصين ومنطقة الشرق الأوسط .

أغوار اجنتا ومعابدها

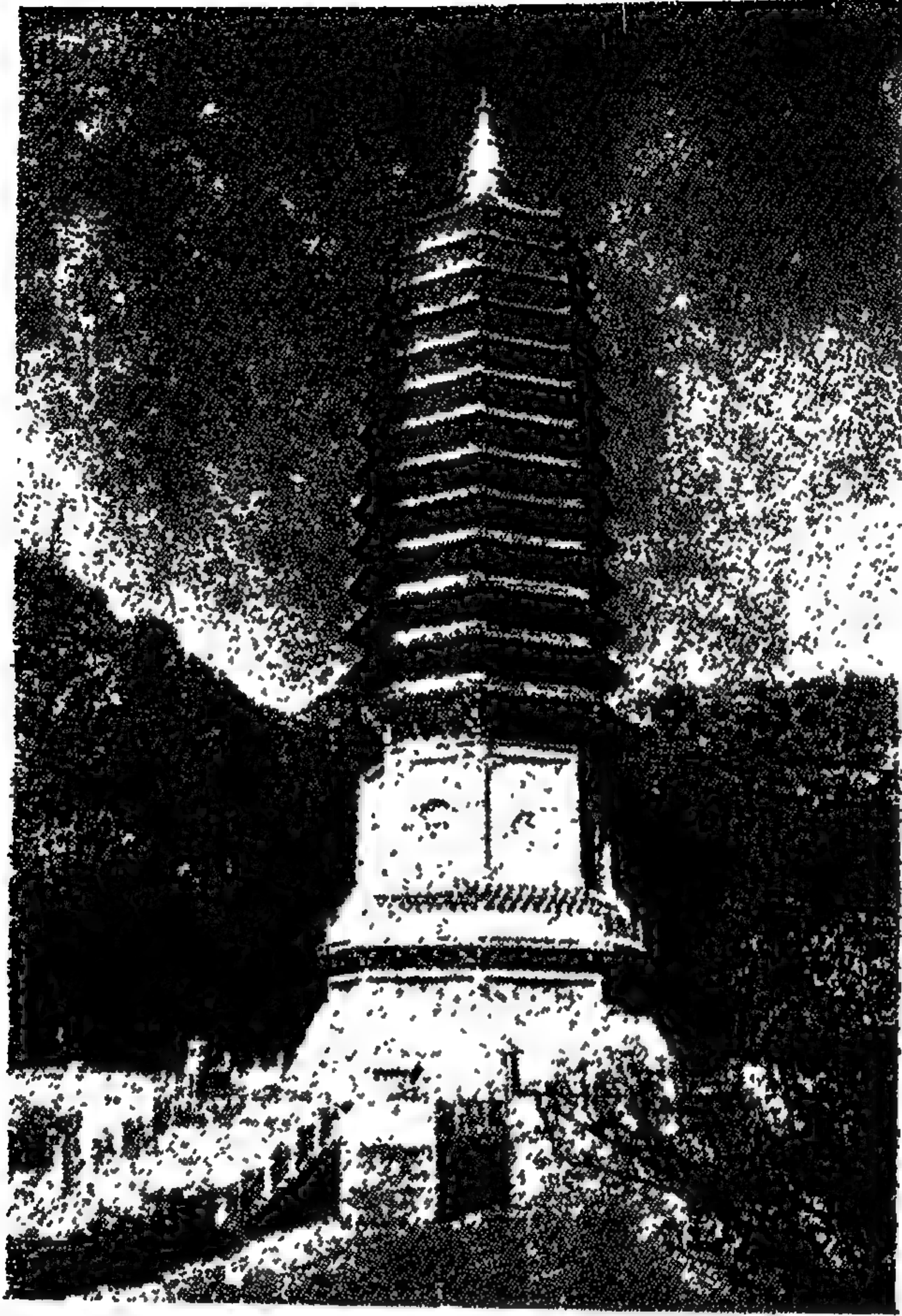
تقع أغوار اجنتا (Ajanta) على مسافة سبعين ميلاً من مدينة أورنغاباد في وسط الهند من ناحية الهضبة المنحدرة المائلة كالأفعى من خلال الوديان الضيقة وتتخللها المناطق القفر الصحرافية التي تشير إلى وجود عمران عظيم في هذه المنطقة قبل بضعة قرون . وأن بعض معابدها تشير إلى أنها قد شيدت في أوائل القرون الميلادية ، ولكنها ارتقت إلى القمة منذ القرن الخامس ووصلت إلى الذروة في القرن السادس الميلادي .



لوحة (٣١)
معبد الشمس في كورانات



لوحة (٣٢)
تمثال بوذا صنع حديثا في معبد
« لينغ اين » بالصين بارتفاع
يبلغ ٩ امتار تقريبا .



لوحة (٣٣)
معبد بوذا شيه حديثا
في بكين بالصين

ولعلها بدأت تأخذ مكانتها الخطيرة في التاريخ البوذي بعد « شانشي » مباشرة ، ثم وصلت منها فنونها العظيمة الخالدة إلى أغوار « الورا » التي تليها مباشرة .

إن الفن المعماري في هذه المعابد التي حفرت في الصخور تدل بوضوح على أنها تمثل العقيدة المهايانية البوذية الأولى . وفيها بهو عظيم فخم شيد للعبادة والطقوس ، يشد أنظار المشاهدين من آفاق الهند لرؤيته والوقوف أمامه إعجابا وتقديرا .

وأما النقوش المحفورة في هذه الأغوار والصور المنقوشة على جدران معابدها والتماثيل المنحوتة في كل جانب فهي تصور المواهب العظيمة والعبقرية الفذة في التصوير للفنانين الهنود . لقد سجل كثير من الرحالة انطباعات مشوقة ومغرية للغاية بعد مشاهدتهم الألوان والجمال في هذا النحت والرسم تلك التي تشد أوتار القلب ، وتثير العواطف والوجدان وتعزف في النفوس نغمات موسيقية حلوة ، وتدفع المواهب الشعرية للانفجار والتدفق .

ومن ناحية أخرى فإن هذه المعابد في هذه الأغوار من هذه المنطقة القفراء تثير إعجاب الباحثين ، لأننا لانجد ما يدل على قيام دولة بوذية في هذه المنطقة إطلاقا . ولعل التفسير المقنع في هذا الصدد أنها كانت تقع في طريق الحج للبوذيين ، كما أنها عاشت في ظل الدولة البوذية لمدة سبعة قرون ، تلك التي قامت في عصر أشوكا ، ثم تفككت عراها في صورة دول الطوائف واستمرت على ذلك ردحا طويلا من الزمن .

إن بوذا لم يعرض في هذه المعابد في صورة فخمة وفي مظهر مادي ممتلئ بحياة البهجة والزخارف ، كما عرض في الفنون الغاندارية التي ظهرت بعد اجنتا . بل عرضت حياته فيها على ضوء العقيدة المهايانية في منتهى البساطة والسذاجة . وأن تماثيله فيها هي الأخرى بسيطة للغاية ، لازخارف فيها ولا روعة فنية ولا فخامة ولا إبداع .

أغوار الورا ومعابدها

إن أغوار الورا (Ellora) الواقعة في وسط الهند من ناحية الغرب تمثل أروع آيات الفنون البوذية وقمة مجدها . وفي هذه الأغوار حفرت الصخور لتشديد معبد بوذي فخيم ومعابد أخرى كثيرة يبلغ عددها ثلاثين معبداً . أما أقدم معبد فيها فقد شيد خلال القرنين السادس والسابع الميلاديين . ولعل هذه المعابد تعد مرحلة متطورة ومتقدمة للفن الغانداري العظيم الذي ارتقى مدارج الملى في « سانشي » حتى القرن الخامس الميلادي . وهنا امتزجت البوذية المهايانية بالحضارة الدراويدية المزدهرة وآلهتها الشهيرة سيثا وفشنو وآلهة الآريين مثل براهما وفشتاكارام (Visvakaram) — إله الصناعات والفنون المعمارية — ولذلك تلوح لنا البوذية في هذه الأغوار ممزوجة بالعقائد الدراويدية والآرية ، واحتلت هذه الآلهة مكاناً بارزاً في المعابد البوذية .

ولعل سببه في نظرنا أن عصر غبتا الذهبي منذ القرن الخامس الميلادي قد أثر في الديانة البوذية إلى أقصى مدى . لأن الهندوكية استعادت قوتها في هذا العصر وتجلت في أبداع المظاهر وأروع الصور وبروح متساهمة جداً . وقد أصبحت البوذية في مثل هذه الظروف مضطرة للتجاوب مع الديانة الهندوكية ولذلك ظهر تراثها الفكري بهذه الصورة الممزوجة .

وإن معظم المعابد البوذية قد شيدت بالصخور ، وتبدو لنا من أول وهلة أنها كتل من الصخور المنحنية والمائلة إلى الأرض ، ولكن معابد الورا بالذات قد حفرت في جبل منحني بدلاً من الصخور . ومن هنا تلوح لنا هذه المعابد — إذا ألقينا نظرة عليها من فناء الدار — إنها تكاد تختفي تحت سطح الأرض ، وينبغي لمشاهدتها الصعود إلى الشرفة من أسفلها . وعلى واجهة هذه المعابد وعلى جدرانها وأعمدتها نجد حياة الآلهة محفورة بكل عناية .

وفي معبد هنا يسمى « دومارلينا » نرى أربع قاعات كبرى ، تبدو في اجتماعها على شكل الصليب . وهذا المعبد قد بنى تكريماً للإله سيثا القديم ، وأن واجهاته العديدة تشكل صورة رائعة لرقص الباليه المشهور في عصرنا من حيث الروعة والجمال والإبداع . وهذا أروع ما رسمه يراع الكهنة الآريون في إبان مجد حضارتهم في عصر غبنا .

ولكن معبد « كايلاسا » (kailasa) يمثل قمة الفنون الهندية المعمارية والحفرية والنحتية في ذلك الحين ، وليس هذا الصخر يمثل جزءاً من المعابد ؛ بل هو معبد تامل حفر في جبل . وأنه قائم على أرض يشبه الزاوية المستطيلة ، غارقاً في باطن الأرض ، يبلغ عمقه مائة قدم . وهذا المعبد أيضاً يمثل العقيدة المهايانية البوذية الممزوجة بالأفكار الآرية وال دراويدية ، ويحتضن تماثيل الآلهة . وقد استغرق حفر هذا المعبد على هذا الجبل الشاهق مدة قرن أو أزيد منه بقليل ، ورفع من تحت هذا المعبد ما يقرب من ثلاثة ملايين قدم مكعب من الصخور ؛ وأن جميع أعمدته وجدرانها وأجنحته وسقفه وسرادقه قد حفرت في الصخور الهائلة فصار كالطود العظيم . ولم يبن معبد عظيم من هذا النوع في تاريخ الهند فيما بعد . وإن داخل المعابد يسودها الظلام في بعض الأماكن بسبب ضخامة سقفها الصخرية ، ولذلك يضطر الإنسان إلى إشعال شمعة لإلقاء نظرة فاحصة على روعة هذه الصناعة وتقدمها المدهل في الصخور والجبال .

ويبدو أنه قد أنشئ عليه فيما بعد برج شاهق جداً . ومن المعروف أن الأبراج العالية لم تزل تعتبر رمزاً خالداً للمعابد الهندوكية ، وهي تشبه في مظهرها البروج في الكنائس الأوروبية ببعض الوجوه .

اليفتا

إن اليفتا (Elephanta) جزيرة تقع على مسافة ستة أميال من بومباي في الهضبة الغربية من ناحية الجنوب . وتصون بومباي من العواصف الخطيرة

لبحر العرب والتي تعصف على ساحل بومباي . وقد صارت هذه المدينة مركز الإله سيفثا وهو إله حضارة نهر الهند منذ القدم : وفي القرن الثامن الميلادي قد وجه أمراء « راشتراكوتا » (Rashtrakuta) عنايتهم الخاصة إلى هذه الجزيرة ، وحفروا معبداً كبيراً في الصخور الموجودة فيها لتبدو شبيهة بأغوار اجنتا والورا . لقد أفل نجم البوذيين في هذا العصر واندثرت دولهم في أنحاء البلاد ، واستعادت الديانة الآرية قوتها ومجدها مرة أخرى ، ولكن آلهتها الآرية مثل برهما وإندرا قد فقدت مكانتها في هذه الآونة ، واستعيد مجد الآلهة الدراويدية ، ولا سيما فشنو وسيفثا ، وحلت محل الآلهة الآريين ، ولذلك تعتبر معابد اليفنتا ، تمجيدياً لهذه الآلهة القديمة . ومن بين كثير من المعابد المحفورة في هذه الجزيرة لم يستكمل بناؤها الكامل إلا معبد واحد فقط وهو « غانيش غبثا » (Ganesh Gupta) ويضم هذا المعبد بهواً فخماً يغطي مساحة أربعين متراً مربعاً .

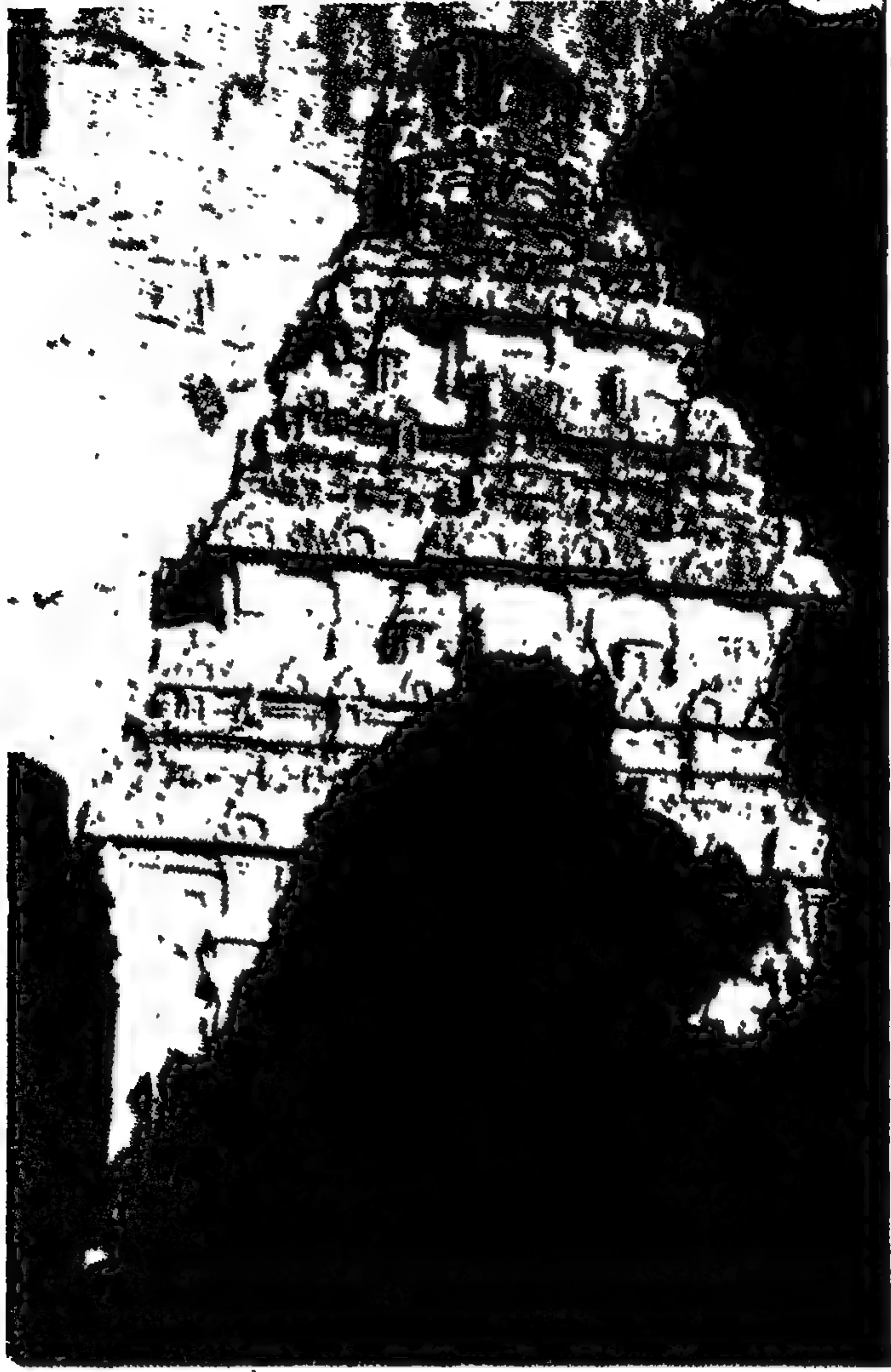
ثم انتقل هذا الفن المعماري إلى ولاية أوريسا في القرن الثامن الميلادي ، وظل يتطور فيها إلى القرن الثالث عشر الميلادي . وقد شيدت فيها ٣٥ معبداً فخماً خلال هذه القرون تمثل أروع فن معماري في الدقة والروعة والجمال . ومن أهم المعابد فيها معبد شيد في مدينة « بهونسوار » .

وكذلك يعتبر معبد الشمس في « كوناراك » من أعظم المعابد فيها :

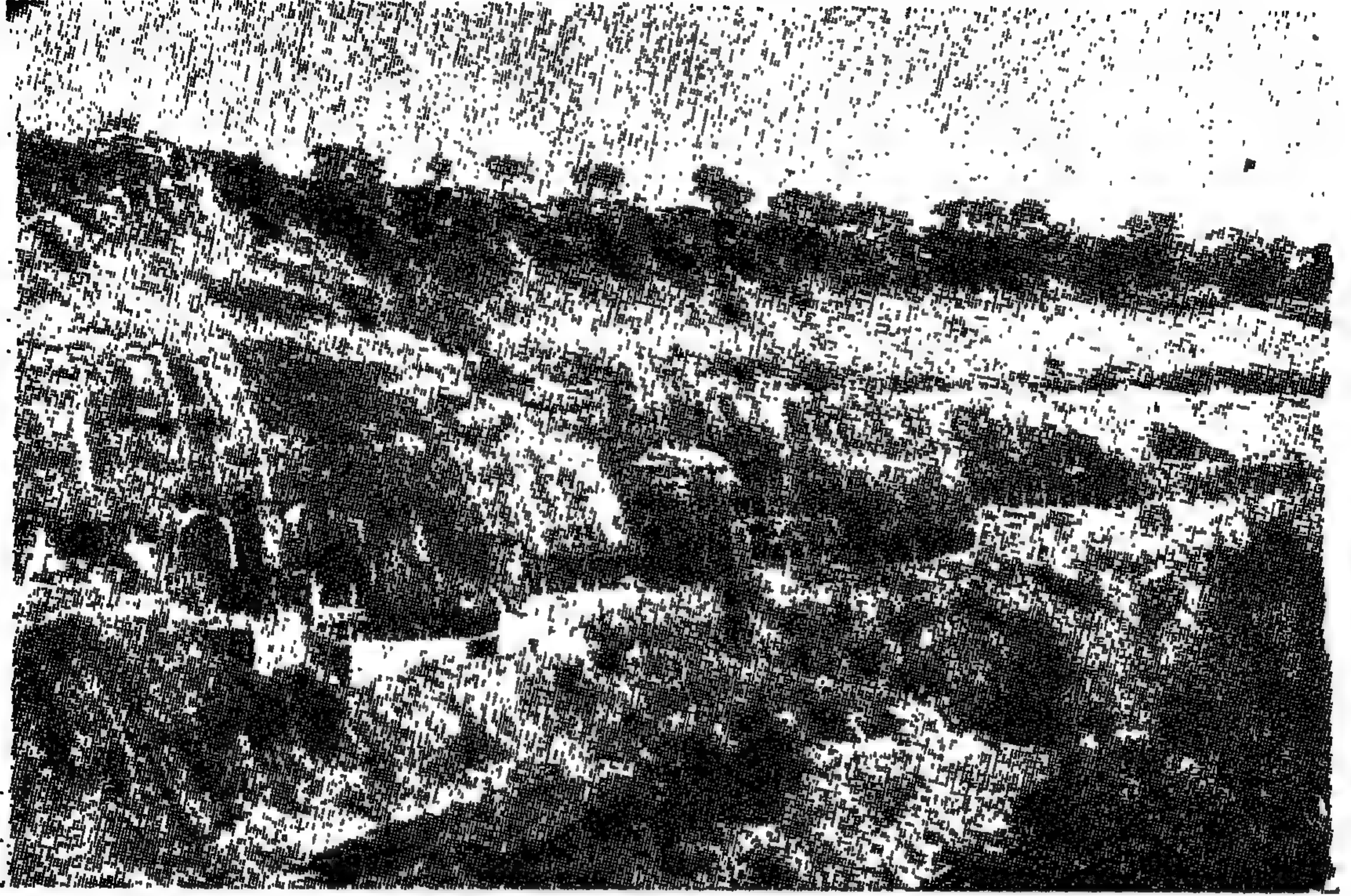
وكذلك انتقل هذا الفن منذ القرن الثاني الميلادي تقريباً إلى جنوب الهند واشتهرت مدينة امراواتي في هذا المجال بعد أن صارت مركز الديانة البوذية في هذه الفترة من الزمان . وقد حفرث نقوش رائعة على المعابد البوذية فيها في منتهى الرقة والدقة والجمال والنعومة .



لوحة (٣٥)
الاله سيقا وبارواتى زوجته في معبد الورا



لوحة (٣٤)
معبد كايلاسا في أغوار الورا



لوحة (٣٦)
اغوار اجنتا

بنارس

وقد ظهرت بنارس (الواقعة في اتاربراديش) في التاريخ في القرن الثامن قبل الميلاد حينما دخلت الهند الآرية في الطور المدني والحضارى لأول مرة، ثم تحددت معالمها منذ قيام الدولتين الكبيرتين أولاها «كوسالا» في ولاية اتاربراديش وثانيهما «مجدا» في ولاية بهار. وقد التى بوذا أول وعظه في هذه المدينة. ومن هنا نالت هذه المدينة مكانة التبجيل والتقديس لدى الهندوس. وبما زاد من قدسيته لدى الهندوس أن نهر الجنجا المقدس يجرى وسط هذه المدينة، وعلى شاطئ هذا النهر شيد اعظم معبد هندوكى في القرن الثامن عشر الميلادى: وبهذا تكون هذه المدينة قد نالت اعجاب الهندوس وتقديسهم من حيث المعالم الحضارية خلال القرون الأخيرة فقط. وقد اصبحت هذه المدينة منذ ذلك الحين كعبة الهندوس وقبلتهم حيث يتوجهون إليها من كل فج عميق من الهند لإداء شعائر الحج وفق التقاليد الهندوكية.

عصر شندرغبتا موريا الذهبى

(٣٢٠ - ٥٧٠ م)

وهذا «شندرغبتا موريا الأول» Chandra Gupta Maurya الذى ارتقى العرش في عام (٣٢٠-٥٧٠م) وهو شبيه جدا بسلفه شندرغبت موريا (٣٢٢-٢٩٨ ق.م). المذكور من قبل ذلك الذى رفع مكانة الهند إلى القمة في العلوم والفنون. وهذا الملك العظيم الذى نكتفى من الآن بذكر جزء من اسمه وهو «غبتا» - كما تعود كثير من المؤرخين الهنود - وكان أعظم ملوك الهند الذين تولوا عرش الهند حتى الآن. وهو الآخر قد أنشأ أعظم امبراطورية في الهند تشمل معظم اجزاء الهند، ولكنه اتخذ «بنغال» عاصمة له. في حين اتخذ سلفه «بتنه» في بهار عاصمة له، ثم امتدت رقعة امبراطوريته إلى المناطق الممتدة كلها الواقعة على ضفاف النهرين الجنجا والجمنا، ونعنى بذلك إلى غاية «دهلى» العاصمة الحالية للهند. ولما توفى «غبتا» في عام ٣٣٠ م خلفه ابنه «سامودرا - غبتا» (Samudra-Gupta)

٣٣٠-٣٨٠ م) ثم حفيده « شاندرافيتا موريا الثاني » (٣٨٠-٤١٥ م). لقد بلغت الهند خلال قرن قمة المجد وذروة العلا في جميع المجالات، واتسعت رقعتها رويدا رويدا من خليج بنغال إلى بحر العرب من ناحية ، ومن الهملابا إلى جنوب الهند من ناحية أخرى ، ولكن المناطق الجنوبية التي تكون الآن ولايات مدراس وميسور وكيرالا وآنديرا براديش لم تدخل في حوزة هذه الامبراطورية مطلقا بل عاشت منفصلة عنها كما سنذكره قريبا .

ولم تكن هذه الامبراطورية الشاملة على غرار الامبراطوريات التي ظهرت في الشرق الاوسط تلك التي كانت تحكم البلاد كلها مباشرة ونصدر أوامرها من العاصمة لتنفيذها حرفيا ، بل حاول هؤلاء الاباطرة ضم هذه الدول في صورة فيدرالية تقريبا ، واكتفوا بإرغام جميع الملوك الصغار على إعلان الولاء للامبراطورية والاعتراف بالخضوع والطاعة لها على أن يدفعوا لها الضرائب ويرسلوا إليها ممثليهم ، وهم يرحبون بدورهم بمندوبي الاباطرة في بلاطهم . وما عدا هذه الأمور فإنهم يتمتعون بالحرية الكاملة والحكم الذاتي المطبق داخليا في حدود مملكتهم كما يشاءون ، دون تدخل من الامبراطورية . وهذا النظام الجديد الذي اعترف بكل من المركزية واللامركزية في صورة فيدرالية سهلت الأمور إلى أقصى الحدود ، وأزالت جميع العراقيل والموانع عن طريق اتساع حدود الامبراطورية من جهة ، وابقاء الدول الصغرى من جهة أخرى ، وتبعاً لذلك اختفت جميع العوامل والبواعث التي تدفع الدول الصغرى إلى التمرد والعصيان وشن الحروب الأهلية والثورات ضد المركز أو الامبراطورية .

وليس لدينا وثائق تدل على ممارسة الاباطرة ضغوطهم على الملوك الصغار وشنهم حروبا شعواء ضدهم لاختضاعهم لسيطرتهم . وليس من المستبعد أنهم قد مارسوا الضغوط وشنوا الحروب ولكنها كانت قليلة للغاية — فيما يبدو لنا — ، وذلك على حسب ما تقتضيه الضرورة ، وفي بداية الأمر فقط؛

ولكنهم استطاعوا إعداد جيش جرار قوى اثار المهابة والخوف فى نفوس الملوك الصغار واقنعهم بالاعتراف بالامبراطورية بالطرق السلمية .

لقد ساد الأمن والسلام أنحاء البلاد لأول مرة بعد اشوكا ، واستقر النظام والقرار ، ولم يحدث شىء يعكر صفاء النظام والاستقرار للبلاد عدا حادثة مؤلمة فى عام ٤٦٠ م وهى تعرض البلاد لغارات القبائل البدوية المتدفقة على الشمال والزاحفة من ناحية ايران والتي سميت « افثاليت هونس » (Ephthalite Huns) ، ولكن سرعان ما قضى عليها ووضع الحد لما ارتكبت من الفوضى والقلق حتى عاد النظام والسلام .

ومما يثير الدهشة لدى المؤرخين استتباب الامن والنظام فى الهند فى هذه الآونة بالذات فى حين اشتد الصراع والمنازعات فى العالم المعاصر للهند وبصفة خاصة فى الشرق الأوسط والصين . وقد عمت البلوى والفوضى والاضطراب هذه البلاد كلها فى هذه الفترة من الزمان . وبسبب استقرار الأمن والنظام دخلت الهند أعظم مرحلة علمية فى تاريخ الهند قاطبة . ولذلك اجمع المؤرخون كلهم على تسمية هذا العهد بالعصر الذهبى فى تاريخ الهند قاطبة .

لقد تقدم المجتمع الهندى تقدما كبيرا فى جميع المجالات ومرافق الحياة ، سواء أكان ذلك فى المدن أو القرى . كان الاباطرة يتساحون إلى أقصى الحدود مع جميع الفرق والاتجاهات والميول والتزعات ، ولم يفرضوا عقيدة معينة على أحد ، ولم يرغبوا أحدا على اتباع مذهب فكرى معين . ولذلك تمتعت جميع الملل والنحل بالحرية والمساواة . ومن ناحية التنظيم والإدارة فقد كانت الحكومة توفر التسهيلات للفلاحين ولم ترغمهم على دفع ضرائب باهظة ، وكذلك لم يمارس الاقطاعيون الصغار أو ملاك الأرض ضغوطاً شديدة على هؤلاء . كانت القرى تتمتع بنفس الحرية والنظام القروى القديم المألوف ولم تكن هناك محاكم ولا قضاء للبت فى قضاياهم ، بل المجالس القروية المنتخبة هى التى كانت تمارس جميع هذه السلطات .

وفي عصر غبتا الثاني زار الهند رحالة صيني شهير وهو « فاهاسيان » (Fa hasien) ذلك الذي أشاد بالهند وأغرق في ثنائه على الحرية والمساواة والنظم والإدارة والرفاهية فيها .

لقد ظهرت تنظيمات شعبية عديدة في القرى والمدن داخل المعابد والأديار حتى تتمتع بكامل الحرية في مناقشة الأمور وإصدار الفتاوى والأحكام بدون أى ضغط خارجي من جهة السلطات الرسمية أو من أية جهة أخرى .

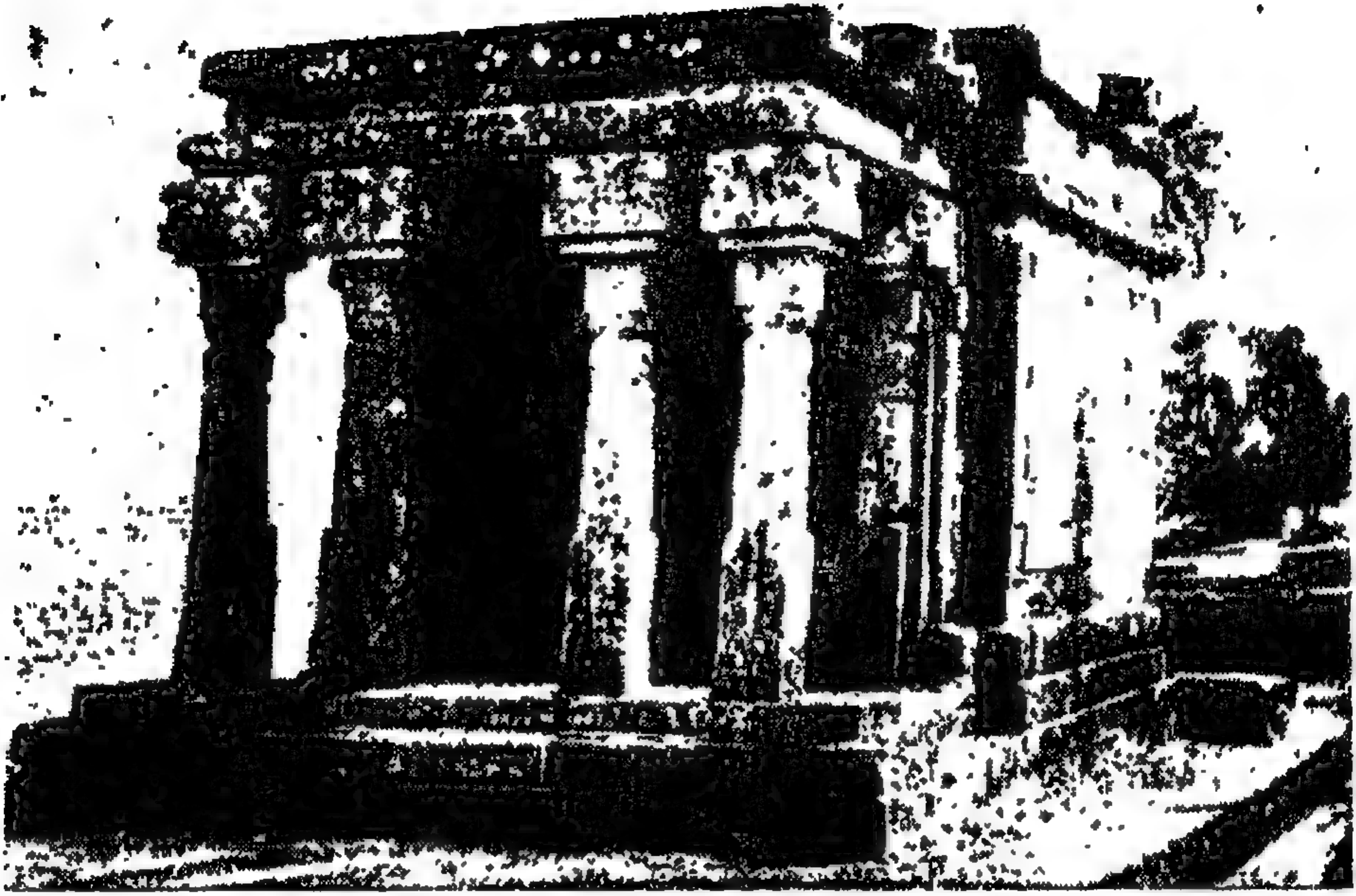
وعلى الرغم من ظهور كثير من الطوائف والفرق لم تنشب بينها الخلافات المذهبية والصراع أو المنافسات ، لأن مثل هذه العوامل قد أخدمت في مهادها ووضعت قوانين صارمة للقضاء على مثل هذه الأمور وحددت وظائف هذه الأمور وظائف هذه الطوائف بوضوح ودقة .

ويرى الباحثون أن الديانة الهندوكية الآرية قد تحولت في هذه العصر إلى ديانة عامة وسميت بالهندوكية ، ولم يكن هذا الاسم معروفاً من قبل .

تدوين الشريعة الهندوكية

وعلى الرغم من تسامح أباطرة أسرة غبتا مع جميع الأديان والطوائف كان عهدهم في الحقيقة عهد ارتفاع لجد الطوائف الآرية وتقاليدها وديانها واعلاء شأنها وتمجيدها وتقديسها وعرضها في صورة جديدة . وبهذا أفل نجم البوذية في الهند كدين رسمي للدولة وحلت محلها الديانة الكهنوتية الآرية ، ونالت التقدير والاحترام بهيكاهما الجديد وملاحمها المشرقة بعد إجراء تعديلات على ضوء تطور الأمور والملاسات . ومن هنا صار دين الهند الرسمي لأول مرة في تاريخها بهذه الصورة التوسعية ، إذ أن الهند صارت في هذا العصر أكبر امبراطورية لأول مرة في تاريخ الهند الطويل .

ومن المعروف أن الكنهة قد وضعوا أول كتاب تشريعي في القرن الثاني قبل الميلاد وهو « مانو — سمرتى » (manu simirti) الذي كان يتضمن



لوحة (٣٧)
اول معبد هندوكى فى عصر قبتيا
على طراز رومانى

الأمر التشريعية للديانة الهندوكية . وقد عرض الكهنة هذا الكتاب على أن « مانو » أقدم قديس لهم — وهو بمثابة آدم في ديانات الشرق الأوسط — قد تلقاه من الهيم العظيم « براهما » ، مباشرة . ومنذ ذلك الحين بدأ هذا الكتاب ينتقل شفويًا من جيل إلى جيل حتى تم تدوينه في سجل في القرن الثاني الميلادي . ولكنه وفي خلال هذه المدة الطويلة أضيفت إلى هذا الكتاب إضافات كثيرة في شتى الموضوعات الدينية وتضخم الكتاب في مضمونه ومحتوياته إلى درجة كبيرة . وأن هذا الكتاب بعد ظهوره على هذه الصورة الجديدة منذ القرن الثاني الميلادي زال مكانة التقديس والتبجيل لدى الآريين . ولعل سببه ظهور الديانة الهندوكية في طور جديد في هذه الآونة وتقليل شأن البوذية وتخفيف حدتها وحماسها وتراجعها من ميدان السياسة رويدا رويدا . وبعد هذا التدوين لم تضاف إلى هذا الكتاب إضافات جديدة .

وعلى ضوء هذا الكتاب ظهرت فيما بعد تفسيرات جديدة للتشريع الهندوكي وظهرت أربع مجموعات جديدة . وقد دوت هذه المجموعات في عصر غبنا وسميت « دهارما شاستراس » (Dharma - shastras) . وأن هذه الشريعة تبنى على المصادر الآتية :

(١) كتب الفيدا وشروحها (٢) التقاليد الهندوكية وعرفها ، وتجارب رجال الدين والكهنة والقديسين عبر القرون (٣) التجارب الفردية وقوانين الملوك والحكام في كل عصر وزمان .

لقد ظلت هذه التشريعات تسيطر على عقول الهندوس ووجدانهم عبر القرون ، واستلهم منها جميع الملوك أثناء إعداد تشريعاتهم وقوانينهم في كل عصر ، واقتفى آثارها جميع الهندوس دون إبداء معارضة صريحة في أي عصر ، ولم يحاول أحد منهم أن يبدى أية غضاضة ، بل احترامها غاية الاحترام وذلك اعتقادًا منهم بأنها صدرت من « براهما » إله الآلهة ، وليس للإنسان دخل في إعدادها وإصدارها وعرضها .

تطور الديانة الهندوكية منذ القرن الأول الميلادي

ومن الجدير بالذكر أن الديانة الآرية هي الأخرى سارت على نفس طريق الشرق الأوسط في مجال الحضارة حينما نسبت كل طور من الأطوار الحضارية إلى إله من الآلهة . لقد وجدنا مثلاً في أرض الرافدين إستعلاء مكانة إله الشمس في عصر السومريين ، وإله ماردوك في عصر البابليين ، وإله آشور في عصر الآشوريين . وكذلك نسبت الحضارة الهندية المتمثلة في الديانة الآرية إلى بعض الآلهة مثل الإله إندرا فور نزوح الآريين إلى الهند . وإلى براهما منذ القرن الثامن قبل الميلاد، وإلى الإلهين الدراوديين فشنو وسيثا منذ القرن الأول الميلادي إلى القرن السابع الميلادي . لقد ارتفع شأن الإله فشنو خلال هذه القرون وضمحل أمامه الإله سيثا . وإن علو مكانته يمثلها الكتاب الهندوكي الشهير « البهاغواتا » الذي ألف في القرن الأول الميلادي . وكذا بلغت شهرة الإله فشنو الذروة حينما تجسد فيه بوذا وفق نظرية المهايانية ، وانتقل عن طريق البوذية إلى العالم الحضاري كله . وفي إمبراطورية غبتا ازدهر شأن الإله سيثا وانتشرت الحضارة المنسوبة إليه ، ونال مكانة عظيمة في المعابد والطقوس والمراسيم لدى عامة الناس . ومن أجل ذلك نراه يحتل مكان الصدارة في المعابد التي شيدت في إمبراطوية غبتا في بمباي وأوريسا . وبالإضافة إلى هذا الإله الشامل الخوى في عقول الهنود في ذلك الحين ، ازدهر في بنغال عاصمة غبتا إله محلي وهو « ساكتاس » (saktas) وارتفع شأنه فيها .

ومن المعروف أن الإله سيثا هو أصلاً إله حضارة نهر الهند في موهنجودا روهارابا تلك الحضارة التي كانت على منوال حضارة الشرق الأوسط في تقدمها ومجدها . وهذا الإله الأعظم في تلك الحضارة قد سيطر على عقول الناس وفرض سيطرته عليهم ، وأرغمهم على الاعتراف

بسلطة الملوك على أنهم خلفاء الله في الأرض . وهذا هو السبب في أن هذا الإله الحضارى لما استعاد مجده في امبراطورية غبنا قضى على الدول المستقلة أو ملوك الطوائف وأجبرهم على تسليم القيادة العليا للمركز وقائده الإمبراطور باى شكل من الأشكال ولو كان ذلك في حدود الحكومات اللامركزية أو الفيدرالية .

بوراناس

لقد ذكرنا الكتاب « البهاغاوانا » الذى ظهر في القرن الأول الميلادى ليمجد الإله فشنو وتجسده في شتى الأشخاص . وهذه النظرية ظلت تتطور وتنسج حولها الأساطير وتحاك القصص وتناقشها الألسن ردحا طويلا من الزمن حتى تم تدوين مجموعة كبيرة منها في عصر غبنا . وهذا الكتاب يعطى المكانة الأولى لكورشنا ، ذلك الذى تجسد فيه فشنو ، ثم تنسج قصص وأساطير كثيرة تتعلق بظهور الكون وفق هذه النظرية ، ويحتل فيها فشنو مكان الصدارة .

ولكن كتاب برانا أو بوراناس (puranas) ومعناه : التراث القديم ، ظل يتطور حتى القرن العاشر الميلادى وبهذا يحتوى هذا الكتاب على مجموعات كبيرة ومجلدات ضخمة عديدة ويشكل موسوعة كبرى في الديانة الهندوكية .

ظهور المرونة في الهندوكية

وبسبب سياسة المرونة والسباحة بين الملوك وجميع الطوائف الهندوكية قام الكهنة بإجراء تعديلات في العقائد الهندوكية ، وجعلوها أكثر مرونة لتستظان في كنفها جميع الطبقات مبتدئا من الفلاح الجاهل ومنتهيا إلى البراهمة - الطائفة العليا - . وأصبح الدين الهندوكى مشوقا ومغريا لجميع الطبقات وحتى للبراويديين ، لأن الهمم القديم « فشنو » قد تحل محل الإله برهما إله الآريين ، وكذلك نال إله آخر لهم وهو سيفا .

مكانة مرموقة في المعابد الهندوكية كلها . ولذا أصبح الدين الهندوكي مستساغا وملائما لأحاسيسهم وعواطفهم وعمولهم .

سبب انسحاب البوذية من مكان القيادة

لقد قلنا إن الديانة البوذية قد دخلت مسرح السياسة والعلم والفكر منذ عصر اشوكا ، ثم تحولت من البساطة والسذاجة إلى القوة والمجد ، وحملت لواء الحضارة والثقافة للإنسانية جمعاء ردحا طويلا من الزمن . وإن الزخارف المدنية وأنوار الحضارة وطغيان المادية وسلطان النفوذ والقوة التي عاشت فيها البوذية زمنا طويلا أغرقت رجالها الدينيين في حب الجاه والمال والولع بحياة الترف والبذخ ، ثم حولت أدبرتهم ومعابدهم إلى قصور من النعيم والجنان . وهذه الظاهرة هي التي تدفع كل أمة متقدمة نحو الزوال والانحلال ثم إلى الانهيار والإندثار ، وكذلك شأن كل ديانة وحضارة . لأن رجال الدين والقديسين إذا استبدت بهم المادية والأطماع واستولت عليهم الشهوات والملذات أسرع الموت والفناء إليهم وإلى كل المعالم الحضارية عندهم . وهذا ما حدث للبوذية في الهند ، ومن نتيجة ذلك انسحبت من معارك الحياة وانعزلت لتعيش في داخل جدران معابدها وأديارها إلى الأبد .

انتشار الحضارة الهندية في جنوب شرق آسيا

لقد ازدهرت الثقافة والحضارة في عصر غبنا بصورة مذهلة في أنحاء الهند وانتشرت من أقصاها إلى أقصاها ، ثم تخطت حدود الهند وامتدت إلى آفاق جنوب شرق آسيا ، وأثرت في الصين واليابان وكوريا والبلاد الأخرى تأثيرا قويا . ومن المعروف أن الملك غبنا لم يخض معارك دامية ضد الملوك سواء أكان ذلك في داخل الهند أو خارجها ، ومع ذلك فاق عصره جميع العصور في مجال الحضارة والثقافة . وكذلك لم يكن غبنا متعصبا للديانة الهندوكية ، ومع ذلك أصبحت الديانتان البوذية والمسيحية ومناوئة لها في كل جهة .

ولعل ازدهار التجارة في هذا العصر كان أكبر باعث لانتشار الحضارة الهندية وثقافتها في الدول المجاورة للهند بهذا الشكل المدهش . ومن الجدير بالذكر أن الطرق التجارية من الناحية الشرقية الجنوبية نشطت إلى أقصى الحدود في هذا العصر ، واصبحت بلاد جنوب شرق آسيا ولا سيما جزر اندونيسيا وماليزيا على صلة رشيحة بالهند ، ومتفاعلة معها إلى أقصى الحدود في الثقافة والحضارة .

لقد التقت الصين بالحضارة الهندية العظيمة المتكونة من العناصر اليونانية والرومانية والعراقية والإيرانية منذ القرن الأول الميلادي عن طريق البوذية . ثم انتشرت الحضارة الهندية والديانة البوذية عن طريق الصين في اليابان وكوريا والمناطق المجاورة لها . ومن نتيجة ذلك تدفق سكان هذه البلاد على الهند لزيارة الأماكن المقدسة لبوذا في ولاية بهار عن طريق خليج بنغال مارين بـمدن بنغال المتصلة بولاية بهار . وقد أصبحت سجلات الرحلات لبعض أعظم الرحالة الصينيين وغيرهم خلال هذه القرون من أكبر وثائق تاريخ الهند السياسي والثقافي لهذه الفترة من الزمان . وكذلك انتشرت هذه الديانة فيما بعد في جزر ملايا واندونيسيا والهند الصينية وتايلاند وفلباين وبورما .

ولما قامت امبراطورية غبتا في القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، ازدهرت الديانة الهندوكية بصورتها الجديدة ، فأصدرت الكهنوددية فتاواها في تأييد الاسفار والرحلات خارج البلاد ، وذلك تشجيعا للتجارة والهجرة والرحلات بخلاف تزمهم في القرن الثالث قبل الميلاد حينما وقفوا ضد هذه الأمور وحرموا الاسفار والرحلات خارج البلاد لتوطيد مكانتهم وانقاذ حالتهم المالية المتدهورة من جراء التطورات المؤسفة ضد مصالحهم . وأما في هذه الفترة من الزمان فقد قام البراهمة أنفسهم بعدة رحلات تجارية إلى جزر ملايا وبورنيو واندونيسيا وبورما . وبهذا اتصلت بلدان جنوب شرق آسيا بالهند اتصالا وثيقا ، واستوردت من الهند أدواتها الثقافية المتقدمة

من جراء امتزاج الفنون الهندية والرومانية وخبراتها الفنية المتبادلة . وهذا الالتقاء وما ترتب على ذلك من تبادل الزيارات بين سكان البلدين أدى إلى انتشار الثقافة الهندية في هذه المناطق وتبعاً لذلك كان انتشار الديانة الهندوكية المتمثلة في الإله شيفا ، ذلك الذى أصبح رمز الحضارة الهندية في امبراطورية غبتا .

وكذلك بدأت السفن الهندية تتجول في بلاد افريقيا في هذا العصر . ولقد شوهدت سفنها في سواحل السودان وغينيا واثيوبيا ، واستوردت هذه البلاد من الهند الحبوب الغذائية والفواكه مثل الموز والأدوات الحضارية الأخرى . ومن المعروف أن الهند كانت على صلة وثيقة بمصر في عاصمتها الرومانية « الاسكندرية » .

يقول المؤرخون إن السفن التجارية الهندية لما قامت برحلاتها الأولى لجزر جنوب شرق آسيا كانت هذه البلاد تعيش في حالة بدوية للغاية ، بعيدة عن مظاهر الحضارة والثقافة ، تمارس الزراعة كمهنة اساسية بالإضافة إلى الملاحة في بحارها المحيطة بها وكان الأرز من أهم محاصيلها الزراعية . وإن تردد السفن الهندية وسكان الهند إليها قد صار موضع الإعجاب والدهشة لديهم ، لأنهم واجهوا أمة حضارية جديدة لم تتصورها عقولهم في ذلك الحين . فارست سفن الهند في سواحلهم واتصل الهنود بسكانها وصدروا إليهم بضائعهم وتزوجوا من نسايمهم ، فارتبطوا بهم ارتباطاً وثيقاً ، الأمر الذى دفع هؤلاء إلى التجارب مع الهند في الفكر والثقافة . وبهذه الاتصالات والصلات غزا الهنود قلوب هؤلاء جميعاً ، فانتقلت ثقافتهم وديانتهم إليهم بحذافيرها . لقد كشفت عملية الاحفار في هذه المناطق آثار اللغة السنسكريتية وآدابها وانتشارها في أنحاء تلك البلدان ، ونيلها المكانة الأولى في الأوساط الحكومية والشعبية على السواء . ولما كانت معظم بلاد جنوب شرق آسيا — عدا الصين واليابان وكوريا — قد اتصلت بالهند منذ عصر غبتا فقط ، ثم اتصلت بها اتصالاً وثيقاً واستوردت منها

الأدوات التجارية والحضارية ، فقد اعجب أهلها بالطبع بالديانة الهندوكية المتمثلة في الإله سيثا ، إله الحضارة الذي يفرض سيطرة الملوك على الشعب كله : ومن هنا أصبحت الدول القائمة في هذه الجزر مهيمنة على سكانها لأول مرة ، وسلم زعماء القبائل — من جراء هذه الأمور والتطورات — زمامهم للإله سيثا ، وتبعاً لذلك اعترفوا بسيادة الملوك والقانون والنظام على نظمهم القبائلية الطائفية المشتتة .

العلوم والفنون في عصر غيتا

لقد تقدمت العلوم والفنون تقدماً كبيراً في هذا العصر ، بل بلغت قمة المجد والعلا : ومن هنا اشتهر هذا العهد وسمى بالعصر الذهبي لدى مؤرخي الهنود والافرنج على السواء .

ومع ذلك لم يشهد هذا العصر أى تجديد أو أصالة في مجال الفكر والدين ، بل جل المحاولات تركزت في تأليف الشروح والتفسير للكتب القديمة مثل كتب الفيدا دون إضافة جديدة إلى أصل النصوص القديمة . وكذلك وجهت العناية إلى حفظ النصوص القديمة وتناقلها شفويًا من الأستاذ إلى التلميذ ، وذلك تقديسًا وتيمناً . وقد ساد الاعتقاد حتى في هذا العصر بأن العلم لن يأتي إلا بعد التلمذ على الأساتذة ، وأخذ أسرارهم منهم اعتماداً على الذاكرة والحفظ . وبهذا ظلت العقيدة الهندوكية محافظة دون حدوث تجديد جذري فيها .

اللغة السنسكريتية

لقد قلنا إن ظهور البوذية كان رد فعل عنيف ضد الفكر الآري وتراثه كله . فقد سارت البوذية في خط معاد سافر ضد اللغة السنسكريتية . ومن هنا ازدهرت لغة « بالي » ثم براكرت — إحدى اللهجات الشعبية في ولاية بهار — وصارت مناوئة للغة السنسكريتية ، وظهرت فيها الآداب والفنون بعد ذلك : ولكنها اختفت من المسرح السياسي والفكري

والأدبي في عصر غبنا ، وعادت اللغة السنسكريتية إلى مجدها ورونقها ونشاطها ، وألفت بها الكتب الدينية والأدبية والقصصية كلها ، وأصبحت لغة التخاطب والتفاهم والبلاط والجهات الرسمية ، كما سكت بها النقود والعملات . وإن ازدهار هذه اللغة بعد اختفائها من المسرح السياسي والشعبي قرابة ثمانمائة سنة يعتبر معجزة عظيمة لهذه اللغة وتراثها الخالد . وفي نفس الوقت ضعفت لغة براكرت البوذية واندثرت تماما ، ولكنها احتفظت بكيانها ومجدها بعد انتقالها بكامل هيكلها إلى سيلان ، ولم تزل فيها اللغة الرسمية الأولى ؛ وهي التي تسمى الآن في سيلان « السنغالية » .

لقد تقدمت الآداب تقدما ملحوظا ، ونالت الملاحم الهندية الشهيرة كالرامايانا والمهابهاراتا مكان التقديس والتبجيل ، كما أضيفت إليهما إضافات كثيرة في هذا العصر . إن القصص البطولية السسواردة فيهما ومشاهدها الرائعة أصبحت موضع التقدير والعبر والموعظة للقواد والضباط ، ولذلك كان الكهنة يرتلونهما في المناسبات البطولية للبلاد .

وكذلك وجهت العناية لقراءة الكتب المقدسة مثل الفيدا والجيتا للعبرة والموعظة نفسها ، وبذلك عادت لها الحياة مرة أخرى .

ومن الناحية اللغوية فقد واصلت الجهود من جديد لتطوير الدراسات النحوية والشعرية من حيث البديع والعروض ، تلك التي بدأها « باي نيني » خلال القرن الثالث قبل الميلاد . قد أضيفت شروح وتفسير إلى أصول « باي نيني » وتضخمت الدراسات في هذا المجال . وليس معنى ذلك أن الدراسات اللغوية والعروضية لم تنل أى اهتمام قبل عصر غبنا ، ولكن حركتها كانت بطيئة طوال السنين الألف الماضية حتى انفجرت كبركان في عصر غبنا خلال القرنين الرابع والخامس . وهذه العناية الكبيرة باللغة السنسكريتية هي التي دعت الأدباء واللغويين في هذا العصر إلى إعداد أول قاموس سنسكريتي ولأول مرة في تاريخ الهند . ومن الجديد بالذكر أن

هذه الدراسات اللغوية والعروضية الجديدة المتقدمة والمتطورة للسنسكريتية هي التي عكف البيروني على دراستها بهذا فیرها واستفاد منها إلى أقصى الحدود وسجل تبحره وتمكنه فيها في كتابه العظيم (تحقيق ما للهند) .

الطب

لقد اشتهرت الهند في مجال الطب منذ القدم . ولكن طبها حتى قيام الحضارة كان مفردا بسيطا ، يعتمد على الأعشاب والعقاقير والسحر والتماائم والتعاوين . ولما انتقلت الهند الى الطور الحضارى منذ القرن الرابع قبل الميلاد ظهر فيها الطب المركب وهو عبارة عن ظهور الأدوية المركبة وفق اصول الكيمياء من عناصر عديدة ، وظهرت العمليات واكتسب أطباء الهند خبرات واسعة في هذه المجالات كلها ، وتطور الطب من جراء ذلك الى أقصى الحدود منذ القرن الاول الميلادى وحصلت لها الذاتية والأصالة فيه .

ولقد مر الطب الهندي الحضارى بطورين في حياته . الاول منذ القرن الاول الميلادى الى القرن الرابع . وهذا يسمى « شاراكّا » (Charaka) ولا نجد في هذا الطب الدقة أو النظام بل تسوده الفوضى والخلط وسوء التنظيم وذلك في كل من جداوله وقوائمه التي تتعلق بالعلاج والمواصفات والأدوية . ولكنه منذ القرن الرابع دخل في طور جديد يسمى « سوس زوتا » « susruta » . وفي هذا الطور الثاني اتسم الطب بالتنسيق والتنظيم في كل الامور ، وزال الخلط والمزج والفوضى كلية . ومن هذا العصر دخلت الهند في مرحلة متقدمة في الطب وانتج اطباؤها إنتاجا ضخما يتسم بالأصالة والتجديد . وهذا الطب قد اعترف بالعمليات وادخلها كجزء اساسي فيه ، واذن بمزاولة اعمال التشريح للجثث . ومع أن التقاليد والمراسيم الجنائزية قد عارضت تشريح الجثث أشد المعارضة ، وحاولت دون تقدم هذا العلم واحرازه انجازات عظيمة ..

علم الفلك والهيئة

لقد ازدهر هذا العلم منذ اتصال الهند باليونان ، ثم استفادت الهند من تجارب إيران في ظل الدولة الساسانية ، ونتيجة لهذه الجهود استطاعت خلق أصالة وذاتية في هذا العلم . ولكن الباحثين يرون أن علم الفلك لدى الهنود في هذه الآونة كان مخلوطاً بالرياضيات .

وقد ظهرت الرياضيات منذ ظهور المعابد ومنازلها الشائخة . إن المذابح والقرايين في المعابد هي التي كانت عاملاً أساسياً لظهورها ، لأنها تستند إلى الحساب . وكذلك دعت الضرورة إلى معرفة حركات الشمس وحالات الجو والطقس فأدى إلى ازدهار هذا العلم ازدهاراً كبيراً . وقد ظهر أكبر عالم رياضي في عام ٤٩٩ م وهو « ارياباتا » (Aryabhata) ذلك الذي أجرى تعديلات عديدة في الرياضيات وابتكر فيها ابتكارات ، وهو الذي يرجع إليه الفضل في ظهور الأعداد والأرقام التي نستعملها اليوم في اللغات الافرنجية ، وهذه الأرقام هي التي انتقلت إلى العربية في العصر العباسي ، ثم تطورت في أوروبا على الشكل الذي نراه اليوم . وكذلك عرف هذا العالم استخدام النظام العشري والصفر ويعتبران من أهم الابتكارات في العالم الرياضي التي ظهرت في بابل في القرن الثامن عشر قبل الميلاد . ثم انتقلت إلى العواصم الحضارية لتتطور وتتقدم حتى وصلت إلى الهند لتبلغ القمة .

ومن الجدير بالملاحظة أن المجتمع الهندوسي لم يتمتع في هذا العصر بالروحانية فحسب وفق الحياة الصوفية المبنية على نفى الذات ووحدة الوجود ، بل زخارف الحضارة وأنوارها البديعة دفعت كثيراً من الناس إلى ممارسة حياة الترف والبذخ والشهوانية المغرقة إلى حد بعيد . ويبدو في ظاهر الأمر أنهما متناقضان جداً ، ولكن الحياة الحضارية تمهد السبيل لكلا اللونين من الحياة في كل عصر وزمان .

بداية عصر الظلام منذ سقوط امبراطورية غبتا الى الفتح الاسلامي

لقد عاشت هذه الامبراطورية قرنين ونصف قرن من الزمان حياة حافلة بالمجد والعظمة صاعدة وملتوية ومرتفعة ومتساقطة حتى كتب لها الزوال منذ عام ٥٧٠ م وفق سنة الحياة وسير الحضارة منذ ظهور هذا الكون . وإذا وصلت أية حضارة إلى قمة المجد وذروة العلا وجدناها من ذلك الحين تتجه إلى الانهيار ثم السقوط نهائيا . لأن الحياة الحضارية المفعمة بالمادية تجلب أنواعا من الأضرار ، ومن شأنها أن يتناوب جسدها السليم ألوان من الأضرار والعلل ، تشل قواه وتضيف إلى الجسد المريض وهنا إلى ومن حتى تبلغ حد الشيخوخة وتموت إلى الأبد ، ثم ينتقل لواء الحضارة إلى أمة جديدة لم تزل تتمتع بالصحة الموفورة بسبب ممارستها الحياة البدوية وبعدها عن زخارف الحضارة وأنوار المدنية ، ثم تنفجر شحنات هائلة من الطاقات الروحية من نفوسها الكامنة ، فتندفع هذه الأمة لتنشر رسالتها الجديدة ، وتبعا لذلك تستولى على قيادة الحضارة الإنسانية . ونفس ما حدث حينما انفجرت طاقات الهند الكامنة بفضل بوذا ورسائله السامية ، وحينما ارتفعت حضارة غبتا في الوقت الذي وصلت فيه الحضارة الرومانية إلى طور الشيخوخة . ولما آلت جميع الحضارات الانسانية إلى الزوال بعد حدوث أمراض الشيخوخة فيها ، فجرت الجزيرة العربية — منبع الرسالات السموية في الشرق الأوسط في كل عصر وزمان — شحنات جديدة من الطاقات الروحية ، فظهر الرسول العربي محمد عليه السلام وانطوت تحت لوائه جميع الحضارات الإنسانية حينذاك وصارت بلاد العرب مركز الحضارات الإنسانية مرة أخرى .

انهارت امبراطورية غبتا منذ عام ٥٧٠ م كما قلنا بعد إصابتها بمرض الشيخوخة من ناحية ، وتدفع بعض القبائل البدوية على الشمال من ناحية ثانية ، وتفكك عرى الوحدة أو الفيدرالية من ناحية ثالثة ، الأمر الذي أدى إلى ظهور ملوك الطوائف ، وكثرة المنازعات والمنافسات والصراع

فيما بينهم ، فسادت الفوضى أنحاء الهند ، وانهار النظام والأمن وحدث خلل هائل في ميزان القوى الداخلية . وتبعاً لذلك انتشرت الخلافات المذهبية . ومما زاد الطين بلة أنه قد تدفقت أمواج همجية وحشية على الهند ، وحطمت معالم الحضارة في المناطق التي قامت فيها الدولة الكوشانية . وهذه تسمى بالقبائل الهونية (Huns) . وهي في الحقيقة كانت إحدى الموجات الهمجية التي زحفت من شمال الروم ، ولكنها في نفس الوقت لم تكن من الأصل الهندي الأوربي . فقد جاست هذه القبائل من أقصاها إلى أقصاها الأمر الذي أدى إلى انهيارها إلى أقصى مدى .

ثم عاد إلى الهند شيء من الطمأنينة حينما استطاعت الهند التقاط أنفاسها بعد تجمع بعض قواها المنهارة في الشمال في أوائل القرن السابع الميلادي ، وإنشاء دولة سميت « هارشا » (Harsha) وهو اسم ملكها الأول . وهذه الدولة راعت كلا من البوذية والهندوكية ، ثم قامت دولة أخرى مناوئة لها من ناحية جنوبها في نفس المنطقة وهي « البولاكشتية » (pulakeshin) ، وهي الأخرى سميت باسم ملكها الأول ، وزاد بينهما التنافس والمنازعات في بعض الأحيان إلا أنهما تمكنا من صيانة استقلالهما وحريةهما قرابة ثمانين سنة . ثم زاد الصراع والمنازعات بين أمرائهما . وفي هذه الآونة دخل الإسلام هذه المنطقة الشالية التي ظلت تتصارع وتتنازع ، ففضى عليهما القائد العربي محمد بن القاسم وضم هذه الأراضي المفتوحة من ولاية السند إلى الدولة الأموية في دمشق وذلك بالتحديد في عام ٧١٢ م .

استقلال جنوب الهند عن الشمال حتي في العصر الإسلامي وازدهار حضارته

لقد كان جنوب الهند على اتصال وثيق بالشرق الأوسط والأمبراطورية الرومانية كما قلنا . ومن هنا أتاحت له فرصة عظيمة لتطوير حضارته وتقديمه

إلى أقصى الحدود بعد قيام الدولة الإسلامية في الشمال. لأن الفتوحات الإسلامية لم تمتد مطلقاً إلى حدوده ، اللهم إلا في القرن السابع عشر الميلادي حينما قامت دويلات إسلامية في ولايتي ميسور ومدراس تلك التي سرعان ما سقطت في أيدي الانجليز بعد سقوط « دلهي » العاصمة بزمن يبلغ نحو نصف قرن .

وفي هذه المنطقة علا نجم إلههم القديم « قشنو » ذلك الذي تجسد في رامنا وكرشنا ثم في بوذا ، لقد انشئت جميع المعابد في هذه المنطقة باسم الإله سيشا إله الحضارة والمجد عندهم .

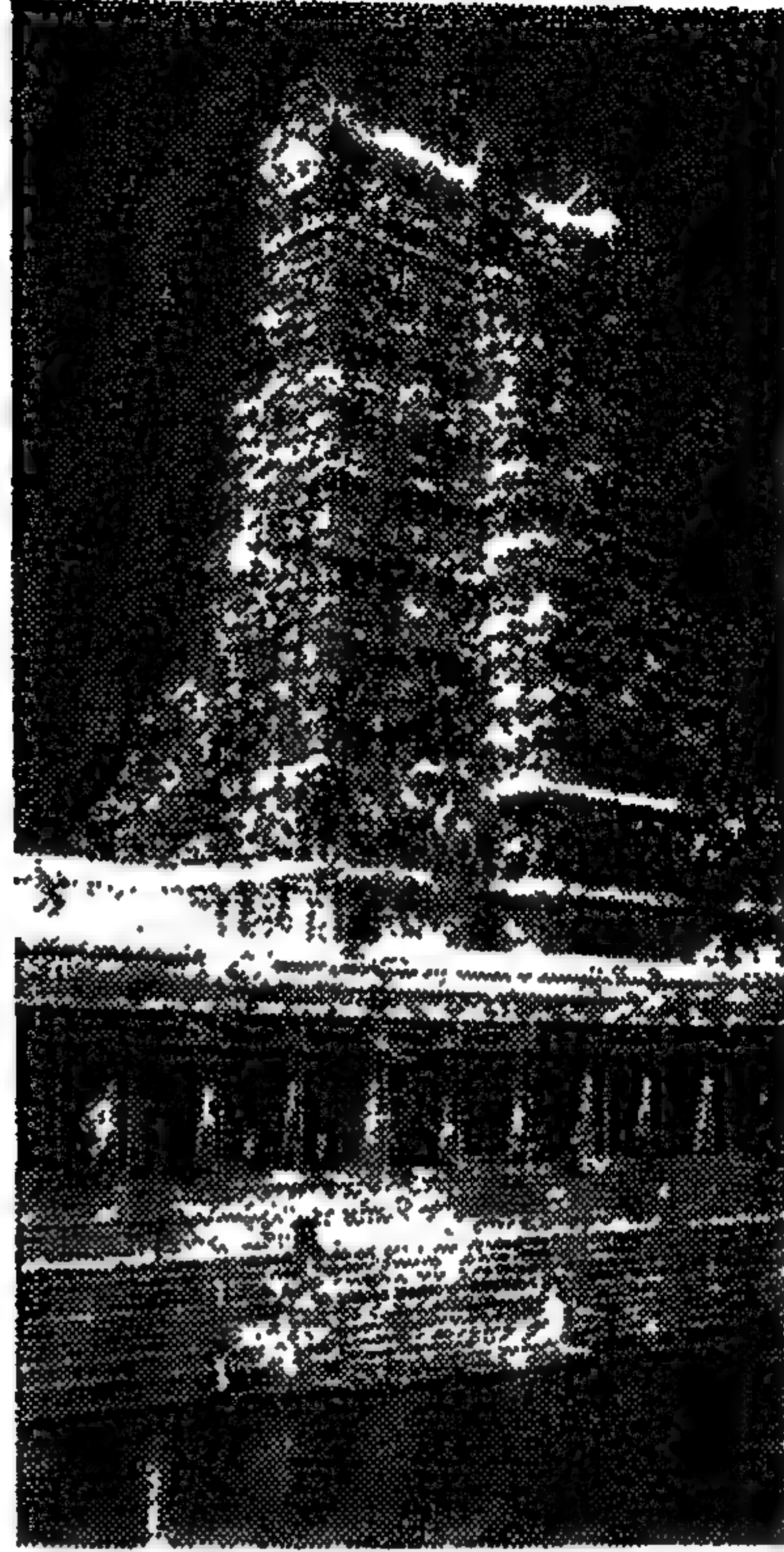
إن الهند الجنوبية التي تتكون من أربع ولايات وهي : مدراس وميسور وأنديرا براديش وكيرالا لم تدخل في حوزة أية إمبراطورية قامت في شمال الهند في أي عصر من العصور. كان العنصر الداروايدي يشكل أغلبية ساحقة في هذه الولايات منذ قدم التاريخ . ولذلك لم يمتد نفوذ أية إمبراطورية إلى حدودها . ومن ثم عاشت هذه المنطقة بعيدة عن الشمال تتمتع بحرية كاملة واستقلال تام وفي انفصال مستمر . وفي العصر الإسلامي أيضاً عاشت هذه المنطقة منفصلة انفصالا تاماً ، ذلك لأن الفتوحات الإسلامية لم تصل إليها قط ، ولذلك أصبحت هذه المنطقة مزدهرة ومتقدمة خلال جميع العصور تتمتع بكامل حريتها وتطور حضارتها . ومن هنا انتقل لواء الحضارة الهندوكية من الشمال إلى الجنوب في العصر الإسلامي . ولكن الجنوب في نفس الوقت فتح صدره للإسلام ليغزوه بالطرق السلمية وبالتبليغ . لقد قام بهذه الأدوار الرائعة فيها التجار العرب والجاليات العربية الموجودة فيه وصفوة من الصوفية والصالحين .

ومن المعروف أن الجنوب وموانئه الشهيرة كانت غاصة بتجار العرب في كل العصور ، وظل على اتصال وثيق دائماً بمباشري بلاد العرب ، ولذلك دخل الإسلام هذه المنطقة قبل دخول الجيوش الإسلامية في المناطق الشمالية التي تشكل الآن باكستان الغربية وهي ولايات السند وبنجاب وبلوشستان

والمناطق الجبلية . ومن هنا ظهرت جميع حركات التجديد في الديانة الهندوكية في هذه المنطقة إبان مجد الإسلام في الشمال : وظهر فيها مجددون ومصلحون ، وتجاوب هؤلاء مع تعاليم الإسلام والتجارب الصوفية الإسلامية التي كان صداها يتردد في أرجاء جنوب الهند وأدخلوها في الديانة الهندوكية لأول مرة ، ومن أبرزهم سانكارا (sankara) : (٧٨٨ - ٨٢٠ م) ذلك الذي أعاد تصميم الديانة الهندوكية على ضوء التصوف الإسلامي مستمدا عناصرها الأصلية من تعاليم كتب الفيدا الأخيرة ، ولا سيما البرهمنان واليوبانيشاد اللذان أعطيا للعالم لأول مرة نزعة التصوف ووحدة الوجود تلك التي تجلت في أبداع مظاهرها في مدرستي القنوصية والإسكندرية كما قلنا . وقد سميت حركته الإصلاحية الهندوكية بالفيدانتية (Vedant) . وهذه الحركة هي التي أخذت طريقها إلى الشمال فيما بعد ونالت الاحترام والقبول فيه . وبهذا تكون راية الدين الهندوكي الآري انتقلت ولأول مرة من الشمال إلى الجنوب . وكذلك الحركة البهاكتية الداراويتدية في الجنوب تجاوبت مع مبادئ الإسلام التوحيدية والتصوف الإسلامي وتجلت في مظهر جديد .

فنون الشرق الأوسط في الجنوب

لقد ازدهرت صناعة النحت والتماثيل ازدهارا كبيرا في منطقة البحر الأبيض المتوسط منذ القرن الثاني قبل الميلاد . وأصبحت أدواتها ومصنوعاتها في هذا الصدد من أهم مظاهر التجارة في تلك الآونة التي كانت تتلقى ترمحاب التجار ، وتنتقل عن طريقهم إلى جميع بلدان العالم . كانت الأسواق الرومانية تتزعم هذه الصناعة وتلك التجارة ، ومنها كانت تصدر إلى البلدان الأخرى بكميات هائلة . وبهذا أخذت هذه البضائع طريقها إلى الهند أيضاً . لقد بلغت العلاقات التجارية بين الروم والهند إلى ذروتها منذ القرن الأول الميلادي كما قلنا . وأنشأ الرومانيون مستعمراتهم وجالياتهم على سواحل الهند الشرقية والغربية على السواء . وقد أنشأوا



لوحة (٣٨)
معبد مدوري يمدراس



لوحة (٣٩)
معبد مهابالى بورم يمدراس على خليج بنغال

كذلك معابدهم المحتوية على قاعات واسعة للجلوس وعقد الندوات ، وقد وجدت هذه المعالم فى مدينة « باندشيرى » بالقرب من مدراس ، تلك المدينة التى احتلتها فرنسا فى القرن الثامن عشر الميلادى ولعل بعض الشخصيات الكبيرة قامت بإنشاء هذه المعالم الرومانية فى مدراس .

وهذه الظواهر كلها قد أدت إلى خلق مواهب فنية ذاتية فى الهنود تلك التى انفجرت فيما بعد ، ودفعت هذه الصناعات فى الهند إلى التقدم والإزدهار .

لقد دخلت مدراس فى المجال الحضارى منذ القرن الأول قبل الميلاد . وفى عصر شولاس فى هذه الآونة قد انشئ أعظم معبد فى « تانجور » وذلك خلال القرن الحادى عشر الميلادى ، وفى عصر باندياس فى مدوراي ، وأخيراً وصلت المعابد الهندوكية إلى القمة فى معبد مهابالى بورم الذى شيد على صخرة واحدة .

ومن المعروف أن معابد مدراس هى الأخرى قد شيدت لتكريم الإله سيفالاه الحضارة . وقد بنى أول معبد فى كانشى بورم خلال السنوات ٧٠٠-٧١٠ م .

معابد مدورى

وهذه مدينة شهيرة فى ولاية مدراس قد اتصلت بالامبراطورية الرومانية منذ القرن الأول الميلادى وأقيمت للجاليات الرومانية فيها مستعمرات فى عهد ملوك باندياس . وقد أشاد بها العلماء الرومانيون الذين زاروها فى القرن الأول الميلادى أمثال « بلىنوس الأكبر » (pliny) : (٣٣-٧٩ م) ذلك الذى كان من أشهر علماء الطبيعة . قصد بومباى من نواحي بركان القيسون عند انفجاره لينقذ بعض أصدقائه فمات بالغازات الكبريتية . صنف هذا العالم كتاب « التاريخى الطبيعى » وهو مفيد جداً للاطلاع على معارف الأقدمين . كذلك أشاد « بطليموس » (ptolmy) :

المتوفى بالقرب من الاسكندرية في ١٦١ او ١٦٧ م) وهو صاحب مؤلفات عظيمة في الفلك والرياضة والجغرافيا والطبيعة .

وقد حكمها ماوك ناكياس منذ القرن السادس عشر الميلادى وشيدوا فيها معابدهم لتمجيد الإله سيثا . ويقال في تسمية هذه المدينة أن الإله سيثا أحب فتاة حسناء ذات عيون سميكة اسمها الأميرة ميناكشى وباسمها سميت المدينة ، ثم حدث فيه تغييرات وتحريفات إلى أن سميت « مدورى » . لقد اشترت شركة الهند الشرقية الإنجليزية التى استولت على الهند هذه المدينة في عام ١٧٣٦ م ، ثم توغل الإنجليز عن طريقها إلى داخل الهند للإستيلاء عليها .

مهابالى بورد

لقد شهد هذا المعبد العظيم الذى يطل على خليج بنغال ملوك بالاڤاس أولئك الذين تولوا عرش مدراس منذ أربعة قرون ، وبهذا يكون هذا المعبد قد بنى فى القرن السابع عشر الميلادى ، حينما بلغ الفن المعمارى الهندى قمة المحب وذروة العلا . ولذلك يعتبر هذا المعبد آية الفن والجمال . وفى الحقيقة لقد بنى ملوك بالاڤاس على ناصية هذا البحر الجميل سبعة معابد شاهقة تناطح السحاب ، ولكن موجات البحر وعواصفه الطاغية قد ظلت تنقض عاها بقسوة طوال القرون الثلاثة ، وأحالت معظمها إلى أطلال ، فلم يبق منها الآن إلا معبد واحد فقط ينافس المعابد الهندوكية كلها فى روعة الفن وعظمة البناء . ويرجع خلود هذا المعبد إلى دقة الفن المعمارى الذى حفره على الصخور الشائخة ، وفى أسفله أغوار عميقة تثير دهشة الزوار والرواد حينما يتخيلون مهارة الأيدى العاملة التى وصلت إلى أعماقه بكل جدارة وشجاعة .

ويبدو أن الدراوديين فى هذه الآونة قد أصبحوا أصحاب تأثير دينى قوى للأمبراطورية غبنا تلك التى اندثرت فى نهاية القرن السادس

الميلادى ، مع أنها التى رفعت مجد الإله سيثا فى معابدها . ومع أن مدراس قد رفعت راية الإله قشنو منذ دخولها فى مجال التاريخ والحضارة والفكر ، إلا أن معبد مها بالى بورم قد شيد لتمجيد الإله سيثا . إننا نرى فى هذا المعبد تماثيل رائعة وصوراً عظيمة للآلهة ، ومن بينها صورة نزول الجنجا من السماء إلى الأرض ، وهى التى تحتل مكان الصدارة . وتبلغ هذه الصورة فى ارتفاعها ثلاثين قدماً ، وطولها ستين قدماً . وكذلك نجد صوراً رائعة للحيوانات والتديسين والأولياء . ومن بينها مشاهد رائعة لآلهة السماء التى تشاهد أرجنا — بطل ملحمة المهاهاراتا — والإله سيثا الذى يختفى عن الأنظار فى زيه السحري . وكذلك نجد صوراً جميلة للأفيال التى تتدفق وتندفع إلى الأمام كأمواج هائلة ، وعلى رأسها مخلوقات سموية تصعد إلى السماء بين مشاهد رائعة من الرقص والطرب .

الختمام

نذكر فى الختمام بعض الجوانب الحيوية الهامة المستمدة من الروح الهندية القديمة والتي لم تزل حية وناضجة ، وأصبحت موضع الإعجاب والتقدير لدى الشعوب العالمية بصفة عامة والشعب العربى من الخليج إلى المحيط بصفة خاصة بسبب صلتها الوثيقة بالهند منذ أقدم العصور كما عرضها هذا الكتاب .

اللغات العديدة

ان لغات الهند الحديثة كلها — وان كثر عددها واختلفت ألوانها وأشكالها — تنحدر فى الحقيقة من ثلاث لغات قديمة رئيسية وهى : السنسكريتية الآرية ، والبالية البوذية والتاميلية الدراويدية . إن معظم لغات شمال الهند ولا سيما لغات بهارواتاربراديش وبنجاب قد تفرعت من لغة البالية البراكريتية التى ازدهرت منذ عصر اشوكا ، ثم صارت لهجات عديدة على مرور الزمن وفق قانون اللغات فى كل عصر وزمان .

وقد استمدت بعض لهجات اثاربراديش طاقات هائلة من الوقود في العصر الإسلامي من اللغتين العربية والفارسية ، ثم تمخضت هذه المظاهر عن ظهور لغتين . أولاهما الأردية التي دخلت فيها الكلمات العربية والفارسية بكمية هائلة مع سلامة هيكلها البراكرتي وهندسة تركيبها وقواعدها اللغوية . وهي الان اللغة المشتركة العامة في كل من الهند وباكستان . والثانية الهندية التي تحاول حكومة الهند الحالية اعطاها الصبغة الرسمية للبلاد كلها ، وهي نفس اللغة الأردية ، إلا أنها تكتب بالحروف السنسكريتية القديمة — في حين تكتب الأردية بالحروف العربية — وتغلب فيها الكلمات السنسكريتية على نفس مقدار الكلمات الفارسية والعربية في الأردية .

وأن لغات بنغال وآسام وججرات وبومباي كلها كانت لهجات شعبية أصيلة لتلك المناطق ، إلا أنها استمدت من اللغة السنسكريتية كلماتها ومنفاهيمها وحروفها وهندسة تركيبها منذ امبراطورية غبنا ، ولذلك يحسن بنا أن نعدّها من أسرة اللغة السنسكريتية .

إن اللغة التأميلية الدزاويدية التي ازدهرت منذ القرن الأول الميلادي أمدت اللهجات الدارجة المنتشرة في جنوب الهند بكمية كبيرة من القوة الأمر الذي ساعد هذه اللهجات العامية على أن تصبح لغات مستقلة منذ القرن العاشر الميلادي وهي : الملايالم لغة كيرا لا ، والكبرى لغة ميسور ، وتيلوغو لغة آندارا براديش . وان كل لغة من هذه اللغات تزخر بعشرات من اللهجات ، ولكنها لا تستخدم في الكتابة ، بل إنما في التخاطب فقط . وعلى أساس هذه اللغات قسمت جمهورية الهند الى ولايات .

الرقص

وقد دخل الرقص في صميم الدين الآري منذ أقدم العصور ، وأصبح عنصرا هاما من عناصر الطقوس التي كانت تقدم بين يدي الآلهة .

إذ كانت تغنى أناشيد الفيدا أثناء الطقوس وتعزف الموسيقى ويقدم الرقص .
ونفس هذه الطقوس كانت تؤدي أثناء حفلات الزواج والمناسبات السارة
الأخرى . ثم انقطعت عذارى حسناوات طاهرات عفيفات لخدمة الآلهة في
المعابد ، وأصبحن مثل الراهبات ، وكن يقدمن أنواعا من الرقص بين
يدين الآلهة كعبادة ومناجاة .

إن الرقص الكلاسيكي الهندي يتميز بإيماءات تعبيرية رائعة تشترك فيها
الأرجل بحركاتها الخفيفة والحثيثة في نظام ودقة وتتناوبها الحفقات والنبرات
ويساهم الوجه والعيون وأصابع اليد بنفس الإشارات والإيماءات تعبيراً عما
تحتلج به النفوس وتخفيه الصدور من الأحاسيس والمشاعر . وكل هذه
الأمور تسير مع الإيقاعات الموسيقية الرائعة والنغمات الغنائية الجميلة .

لقد تمخض هذا الرقص التعبيري عن ظهور أربع مدارس :
(١) مدرسة بهاراتا ناتيام (Bharata Natyam) ومركزها «تانبور » بمدراس
(٢) وكاتا كالي (Kathakali) ومركزها مالا بار بكيرالا (٣) وكاتاك
(Kathak) ومركزها شمال الهند (٤) ومانيبور ومركزها آسام في
شرق الهند .

أما الرقص الأول فهو يحتل مكانا بارزا من بين جميع الرقصات الأخرى
لأنه صعب للغاية ، ويتعلق بالمعابد ، ويقدم بين يدين الآلهة تقديسا لها
وتبجيلا . وإن المران عليه واتقانه يتطلب زمنا طويلا تقدر بعشر سنوات ،
وإن عرضا واحدا منه يستغرق ما يقرب من أربع ساعات متواصلة دون
توقف أو فاصل .

والثاني يشبه الرقص البالي الأوربي إلى حد كبير . وإن التمثيل يحتل فيه
مكانا بارزا . ويقدم هذا الرقص في مكان مفتوح ويستمر طوال الليل .
إن الموضوعات لهذا الرقص تختار من بين الأساطير القديمة ، ولا سيما النواحي
الإنسانية العظيمة منها . ويضاف إليها أشياء جديدة رائعة للاثارة والتشويق

وجذب الأنظار والقلوب . وجل العناية فيه توجه إلى الزينة والزخارف واختيار أحسن الألوان ، واستخدام أجمل الأذواق ، ويغطي وجه الراقص بقناع لعرضه في شكل جميل جذاب يفوق التصور ، ويبدو أنه خيالي أو من العالم المثالي . وهكذا يبدو الماكياج خيالياً جداً بسبب التغالى والتصنع فيه إلى أقصى الحدود . وكذلك التقاليد والعادات التي تعرض من خلال هذا التمثيل غزيرة بالخيال ، وبعيدة عن الواقعية ، إلا أن الفرقة الموسيقية التي تصاحب هذا الرقص تكون عادية ، وكذلك الآلات الموسيقية لا تتجاوز الطبله والصنج والمغنيين . وهذان المغنيان يتحاوران وجها لوجه ، في حين يحاكيهما الراقص في رقصه الجميل وحركاته اليدوية البارة الرائعة . ويعتمد كل من الإبداع والروعة على مهارة الراقص وذكائه الخارق وتمثيله الرائع البديع . إن السماء والأرض تلعبان دور المسرح في هذا الرقص . ولهذه الأسباب كلها أصبح هذا الرقص أقرب إلى قلوب الشعب ووجدانه منه إلى الكلاسيكيين المثقفين .

والثالث رقص مغولي من شمال الهند ازدهر في العصر المغولي الاسلامي في بلاط الابطرة المغول . ولذلك يزخر بعناصر الفرحة والسرور والبهجة والمتعة . وليس هذا الرقص مغرقاً في الإيماء والتعبير والتصنع . وأهم ما يمتاز به هذا الرقص هو النشاط والحيوية . وهذا الرقص هو الآخر يستمد أصوله وعناصره من منابع تقاليد الهند القديمة . وفيه ناحيتان بارزتان: (١) حركات الأرجل (٢) والإيماء التعبيري . ويسير كل منهما وفق الإيقاعات الموسيقية وبمتمهى البراعة والصفاء والليونة دون اقتراف غلطة صغيرة ، وذلك وفق مهارة الراقصة وبراعتها الفنية . إن قصة القديس رادها كرشنا هي التي خلقت هذا الرقص واضفت عليه من مادتها الحصبة البكرة . وكذلك اضيفت إليه مادة أخرى من خلال الحياة الريفية وتقاليدها . وهذا الرقص مختص بالراقصات فقط .

والرابع مختص بعشاق الطبيعة والفطرة ، ويقدم هذا الرقص في مناسبات عديدة وفق تغير المواسم والفصول ، وحلول الصيف والشتاء ، وشعور البرودة والحرارة وتناوب السحاب والغيوم والاشراق والظلام، وتغير الطقوس والاجواء ، وتأثيرها في النفوس والوجدان . وهذا هو السبب في أنه أصبح فنا شعبيا جماهيريا ، تقبل عليه جميع الطبقات والاجناس دون تمييز في كل المواسم . وهذا الرقص له علاقة بكل من « كرشنا » - الإله المتجسد - و « رادها كرشنا » - القديس الشهير - . وقد خصص في كل قرية وفي كل معبد مكان لتقديم هذا الرقص في تكريم الشخصيات الدينية البارزة . ويشارك في هذا الرقص كل من الرجال والنساء ، ويقدمون أروع آيات الروعة والبراعة والمهارة التي اكتسبوها . وتعكس المرايا رقصاتهم مع كل جمالها وبهائها وتتضاعف روعتها وجمالها وسحرها من خلال رؤيتها في تلك المرايات ، وما يلوح لنا خلالها من الأنوار والأضواء . وتعزف الموسيقى بآلات عديدة ، ومعظمها ريفي، وعلى وحي من ايقاعاتها ونغمها تحف حركات الرقص أو تزيد ، وتتمايل الراقصات ويتأرجحن ويقفن ويتحركن . إن الوجوه البارزة في هذا الرقص تأتي من الريف والمناطق الجبلية . وتلعب أروع الأدوار ، ولا نجد من بينها إلا راقصا واحدا فقط يلعب دور « كرشنا » .

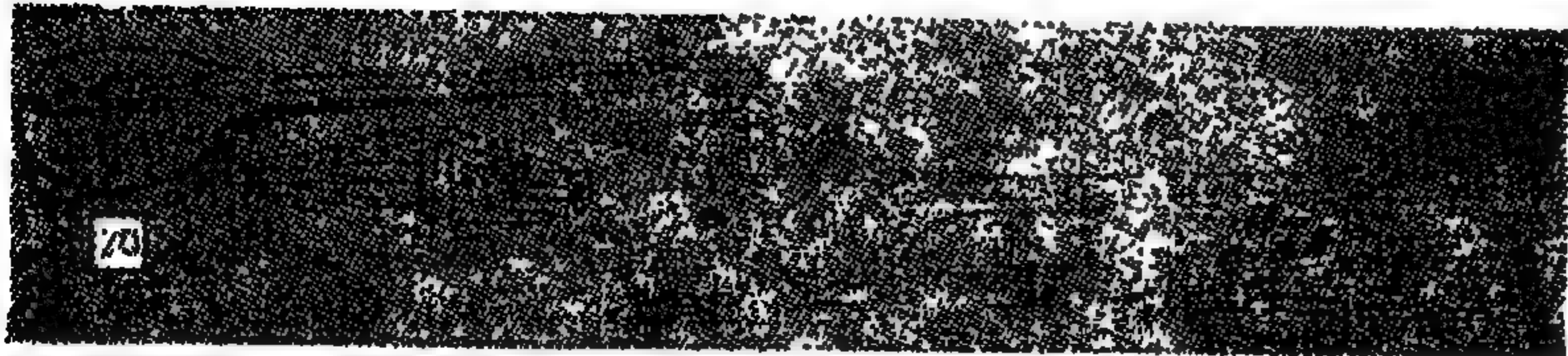
وبوحي من هذه الرقصات القديمة ظهرت مدارس جديدة من الرقص ومن أهمها « يوداي شانكار » (Uday shankar) التي تمتاز بروحها القديمة وعرضها الفني الجديد وتتسم بالطهارة والليونة والصفاء . وكذلك توجد هناك رقصات شعبية عديدة مثل الرقصات التي تقدمها الملاحات أيام الحصاد ، ولاسيما في « غوا » (Goa) ورقصات الجبلين كرقص النغا (naga) ورقص اللاما (lama) وما إلى ذلك .

الموسيقى والغناء

إن الموسيقى والغناء كانا يعتبران من صميم الدين وطقوسه منذ عصر الفيدا .



لوحة (٤٠)
رقص بهاراتيانا تام المدراسي



لوحة (٤١)
آلات موسيقية



لوحة (٤٢)
رقص بها راتيانا تام



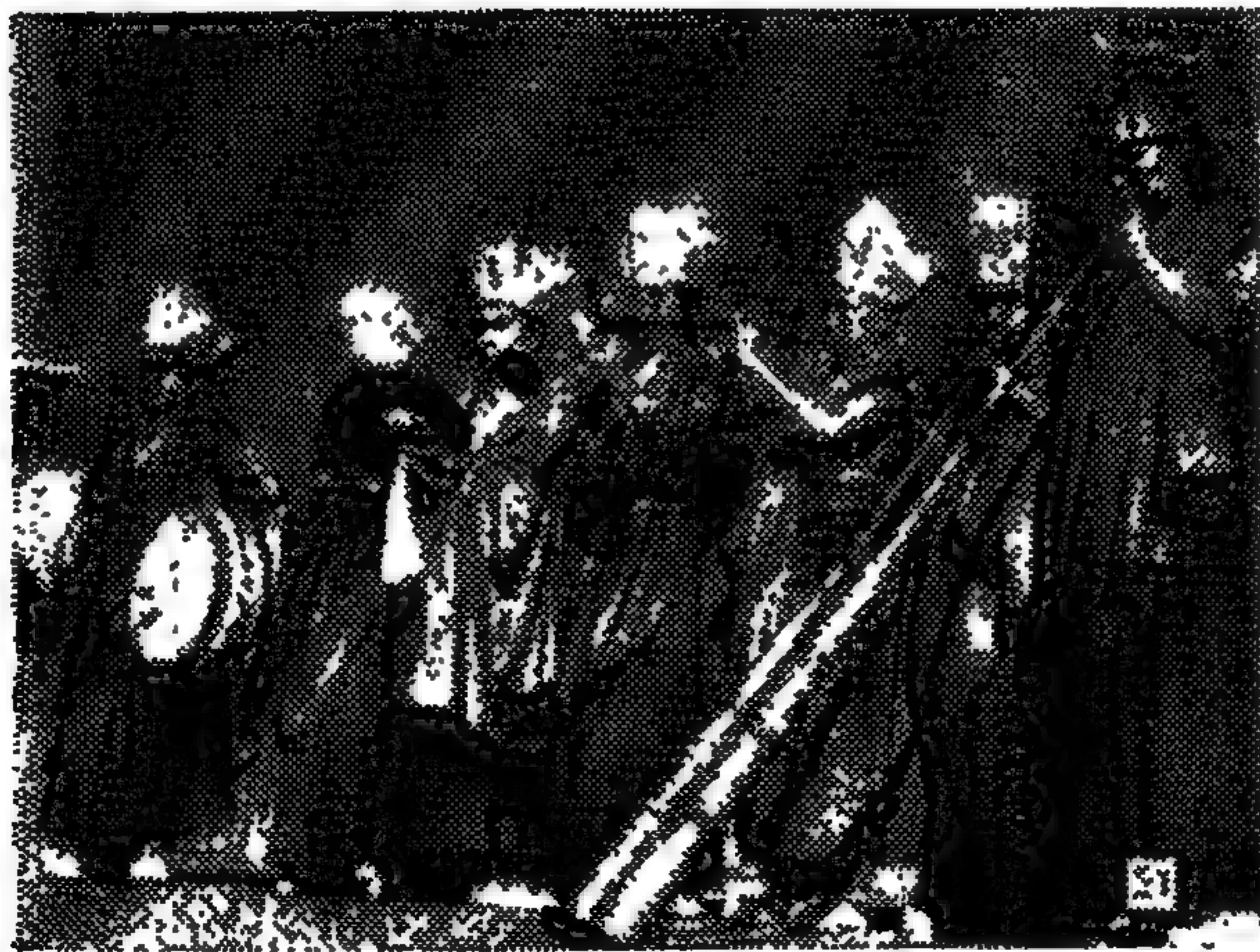
لوحة (٤٣)
حكاية عاطفية تعبر عنها بالأيدي والعيون في رقصة شعبية
من ولاية راجستان



لوحة (٤٥)
رقص ما نيبور



لوحة (٤٤)
رقص كاتاكالى من مالابار



لوحة (٤٦)
رقص دار جلنغ الشعبى



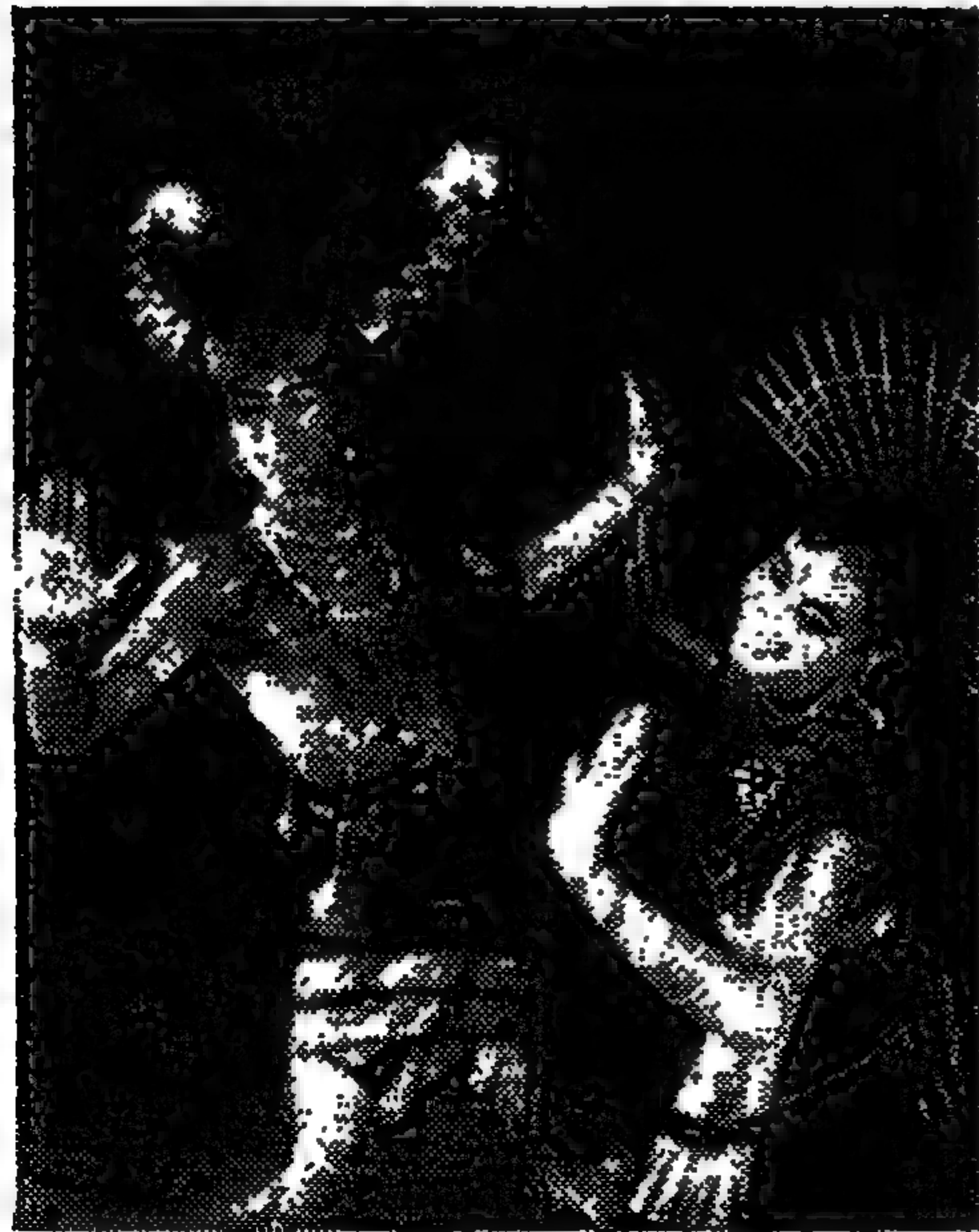
لوحة (٤٧)
رقصات غاربا الشعبية في ججرات



لوحة (٤٨)
العباب الاطفال في العيد



لوحة (٤٩)
رقص شعبي بمناسبة الحصاد في غوا



لوحة (٥٠)
رقص قبائل ناغا الشعبي في آسام



لوحة (٥١)
رقص يقدمه فرقة بوداشانكار



لوحة (٥٢)
رقصات باليه تقدمها فرقة في بومباي

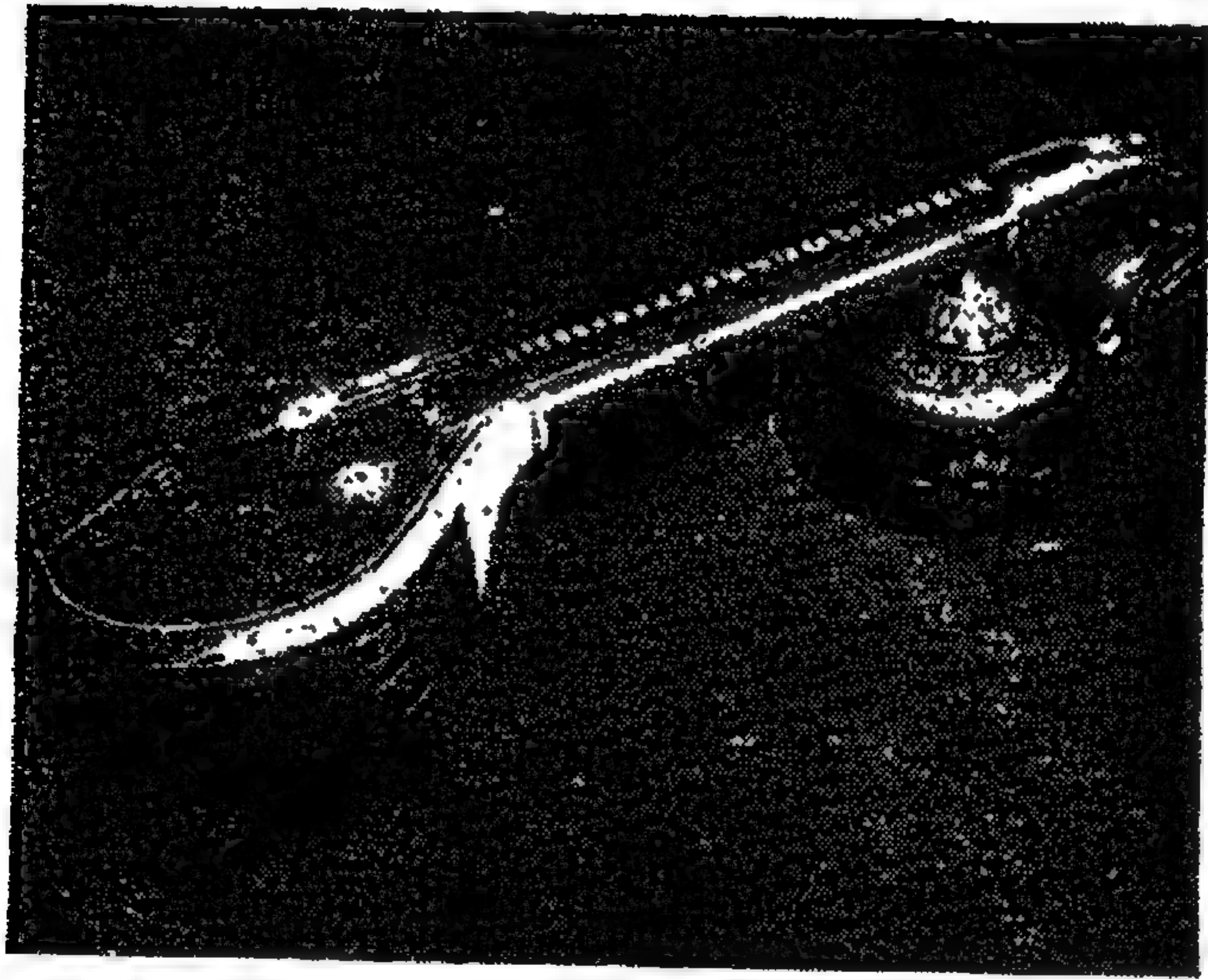
ومن المعروف أن كتب الفيدا قد ألقت بالشعر السندكريتي ، وأبيات مختارة منها كانت ترتل بين يدي الآلهة أثناء أداء الطقوس في نغمات موسيقية حلوة . وبهذا كانت الموسيقى والغناء يسيران جنباً إلى جنب مع الرقص . وفي العصر البوذي أيضاً نال كلاهما نفس التقدير والرحيب . ومع ذلك فقد ظل كلاهما يتناقل بالأسن ، وتحفظه الصدور وينتقل من جيل إلى جيل . وكان الاعتقاد السائد في ذلك الحين أن هذه الفنون الدينية لا تأتي إلا بعد التلمذ على الأساتذة ومحكاتهم فيها ، وحنظهم إياها عن ظهر قلب ، بعد تلقيها عن ألسنتهم المقدسة . وقد دونت هذه الأعمال الفنية لأول مرة في عصر غبتا خلال القرنين الرابع والخامس حينما تقدمت الآداب والفنون . وكان « بهاراتا » أعظم فنان في ذلك العصر ، ذلك الذي دون أعماله الموسيقية الخالدة . ومن هذا اليوم دخلت الموسيقى في طور فني متقدم .

وكان العرض الموسيقى يتقدم في العصور الساحقة في قصور الملوك والأمراء وذلك إيماناً منهم بقداسة هذا الفن ، ورغبة في تسلية أنفسهم في ساعات العزلة أو الفراغ ، لتمتلي قلوبهم بالفرحة والبهجة والمتعة الروحية . وكذلك خصصت لها أجنحة في المعابد لتقديمها بين يدي الآلهة لإثارة النشوة واللهفة والحب والحنان في قلوب العباد تجاه الآلهة . ولكنها لم تدخل في هذه الآونة إلى المجالس الشعبية وندواتها لإثارة الجماهير ، ولم تتخذ طابعاً شعبياً عاماً . ومن هنا ظهرت جماعات اتخذت الموسيقى والغناء مهنة خاصة ، واحتكرتها لمدة طويلة .

ونمختصت هذه الروائع الفنية العتيقة الخالدة عن ظهور مدرستين عظيمتين وهما مدرسة شمال الهند ، ومدرسة الكرناتك الجنوبية . وأما الأولى فهي — حقيقة — خلاصة الموسيقى القديمة الخالدة : بالإضافة إلى العناصر البناءة الخالدة من الموسيقى الفارسية والعربية التي امتزجت بها في العصور الإسلامية . وبهذا تكون هذه الموسيقى ممثلة للطابع الشرقي العالمي ، ومميزات الروح الشرقية كلها ، أي : الهندية والفارسية والعربية . والثانية هي الموسيقى الهندية



لوحة (٥٣)
يعزف على الستار



لوحة (٥٤)
فيينا الآلة الموسيقية



لوحة (٥٥)
يعزف على آلة الشهنائي الموسيقية

الأصيلة دون امتزاج بأى عنصر من العناصر الخارجية ، ومركزها مدراس . ومن الغريب جدا أن العالم الغربى لم يستطيع حتى الآن فهم الموسيقى الهندية الشرقية الأصيلة على الرغم من فهمه النواحي الهندية الأخرى الكثيرة . وفى حين تغزو الموسيقى الهندية — من خلال أفلامها — البلدان الشرقية كلها والتي يعتقد الغرب بأنها ممتلئة بالتناقضات ومتأخرة ومتزمنة للغاية . والسبب الرئيسى فى ذلك إختلاف الطبائع الشرقية والغربية وامتزجهما فى التجاوب مع النغمات والنبرات والإيقاعات . وهذه الأمور كلها خارجة عن نطاق العلم والقواعد ، ومتصلة إتصالا وثيقا بالأذواق والطبائع .

وإن الآلات الموسيقية الهندية كثيرة جدا ، بعضها قديم وبعضها جديد . وقد ظهرت فى العصور الإسلامية بسبب عناية الملوك المسلمين بالموسيقى إلى درجة كبيرة مثل : فينا (Vina) وهى آلة قديمة ، والستار (Sitar) والشهناي (Shahnai) وهما ظهرتا فى العصور الإسلامية ، كما توجد كذلك آلات موسيقية شعبية كثيرة .

المسرح والتمثيل

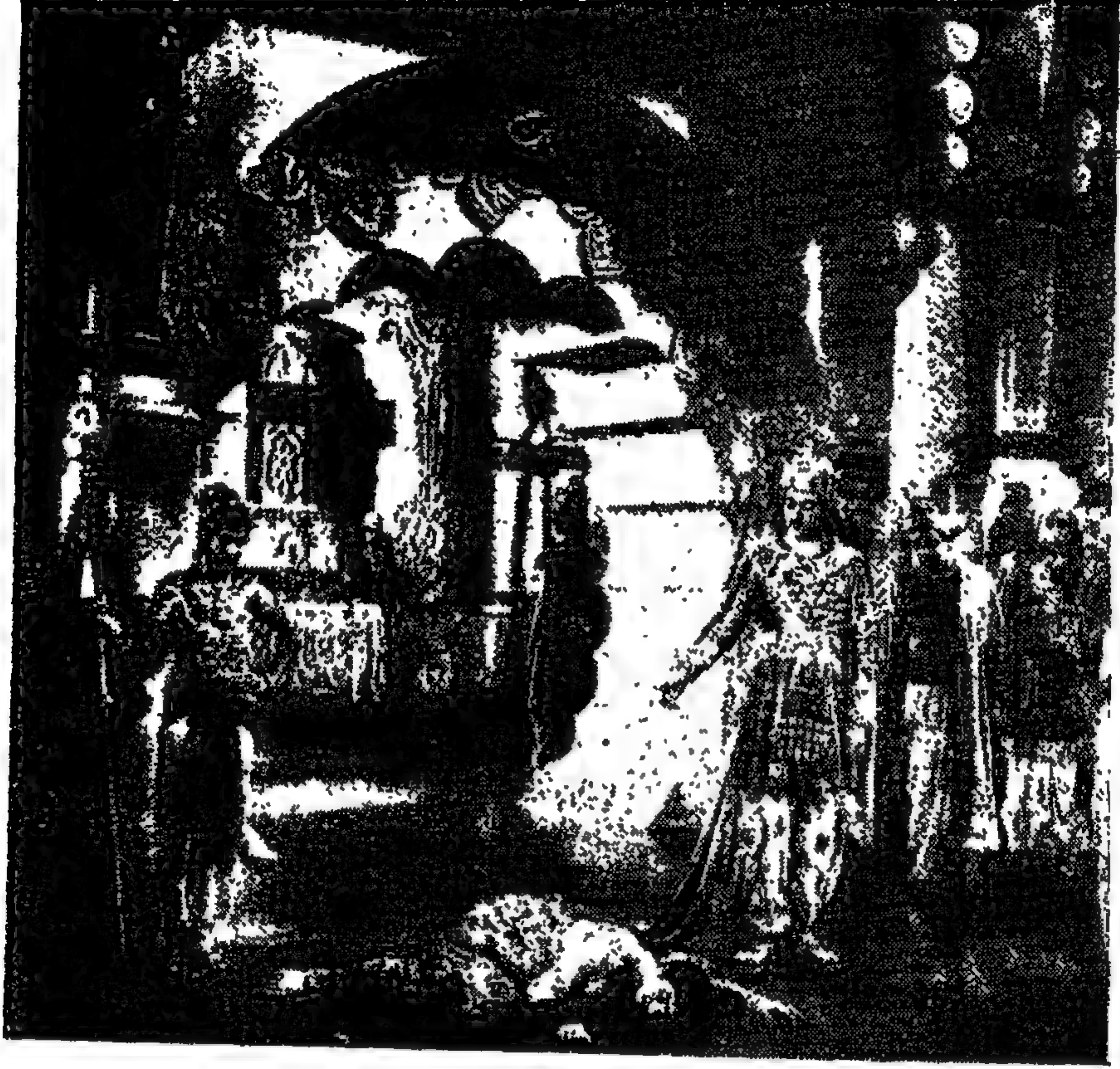
لقد قلنا إن الفن المسرحى قد تقدم فى الهند منذ القرن الأول الميلادى وبلغ القمة فى مسرحية شكستلا . وظل الأمر كذلك يتقدم ويتطور . وكان هذا الفن يتطلب أن يسير معه الرقص والتمثيل جنباً إلى جنب . وكانت المسرحيات تقدم صورا رائعة حية نابضة بالأساطير التى تعبر عن الجوانب الروحية والفلسفية . لقد وجدت كلمات للتعبير عن المسرح منذ البداية ، وهى لم تزل تستعمل فى نفس المعنى فى شتى لغات الهند ومن بينها اللغات الدراويديه كالتأمل فى مدارس ، وهى مثل : « ناتيا » (Natya) أو « ناتاكا » (Nataka) . وتطلق على الرقص كلمه « نرتيا » (Nritya) .

ومن المعروف أن الرقص والموسيقى والغناء كانت عناصر هامة للمسرحية منذ القدم . كانت المسرحيات تتضمن الجوانب الروحية كلها .

ولم تكن تشمل المأساة أو التراجيديا في بداية الأمر ، ولذلك لم تكن المسرحيات السنسكريتية فسيحة المجال ، متسعة الآفاق ، تنطلق إلى جميع الأجواء دون قيد أو شرط . كان اختيار الموضوعات وتطبيقها أهم جانب في الفن المسرحي السنسكريتي . لقد وجدت - وفق الموضوعات - النواحي الساخرة والهزلية والجدية والعاطفية والرمزية بخدافيرها . ولم تكن المناظر الطبيعية للمشاهد الحية موجودة ، ولكن الممثلين كانوا يعرضونها بمهارتهم الفنية وذكايتهم الخارق وبراعتهم التمثيلية وحوارهم المشرق الخلاب ، ولغتهم الجميلة ، وكذلك عبرت عن الأحاسيس الرقيقة والمشاعر القوية الجياشة بحركات الأيدي والوجوه والعيون بكل براعة ورقة ودقة .

ولما آلت الامبراطورية الهندية إلى الزوال بعد انقراض عصر غبنا ، اضمحل الفن المسرحي في بلاط الملوك ، ولكنه ظل نشيطا متحفزا في الأوساط الشعبية . وأصبحت الهند الجنوبية مرتعا خصبا لتقدم المسرحيات من شتى الأنواع في كل من بلاط الملوك والمجالس الشعبية ومحافلها . وكانت هذه المسرحيات تقدم في كل من القصور الملكية والأمكنة المفتوحة تحت سقف السماء لجماهير الشعب . وكانت الفرق المسرحية تتكون من المحترفين أو من هواة المسرحية ، وتنقل من قرية إلى قرية ، وتعيش حياة التجول والتطواف دون وجود مقر دائم لها .

ومنذ قيام الدولة الإسلامية في الهند لم تعد لها مكانة في القصور وبلاط الملوك ، لأن المسلمين لم يرغبوا فيها ، إلا أنها عاشت في قلوب الشعب الهندوكي وازدهرت في قراه وريفه في صورة متجولة . وهذه المسرحيات الشعبية كانت تختار المصادفة والمفاجأة محورا أساسيا لموضوعاتها ، وذلك لإثارة نفوس الشعب ووجدانه ، وأسر قلوبهم وعواطفهم وشده انتباههم إلى الموضوع على الدوام ليكون في انتظار المشاهد المقبلة المثيرة المناجئة في لهفة وشوق . كانت الحفلات تبدأ عادة عند منتصف الليل وتستمر حتى انفلاق الصبح ،



لوحة (٥٦)
مشهد من مسرحية شكنتلا

ويكون العرض مستمرا دون توقف . وكانت الأضواء الساطعة من الكشافات والنجوم والقمر تضيئ الألوان والزخارف والأشكال البديعة على الأشخاص والأدوار والمشاهد في صورة طبيعية دون تصنع على الإطلاق .

ولم تزل هذه المسرحيات الريفية تلعب دوراً كبيراً في حياة الشعب الهندوكي ، وتستمد موضوعاتها ومشاهداتها وخيالاتها الحصب من خلال الملاحم السنسكريتية الخالدة المهاجرات والرامايات .

ومنذ القرن التاسع عشر دخلت المسرحيات الهندية في طور جديد حينما امتزجت بالفن المسرحي الأوربي . وقد تم أول امتزاج من هذا النوع في مدينة كلكتا عاصمة بنغال ، التي اتخذها الإنجليز مركز الثقافة الأوربية . لقد تجاوزت المسرحيات البنغالية فيها مع المسرحيات الإنجليزية إلى حد بعيد ، واستمدت منها الموضوعات والأفكار والأدوار والتمثيل . ولعل قصة يوليوس قيصر أول مسرحية أوربية عرضت في كلكتا . ثم شارك كثير من الكتاب بنصيب وافر في إدخال الجوانب الإنجليزية الحية العظيمة وموضوعاتها الخالدة في المسرحيات البنغالية ، كما ألف عدد منهم بوحى من الثقافة الغربية مسرحيات بنغالية عديدة . ثم ظهر عدد من مؤلفي المسرحيات ، ومن أبرزهم « دواركانات طاغور » جد طاغور الشاعر العظيم ، ثم طاغور نفسه .

وبهذا انتشرت المسرحيات في أنحاء الهند تمثل الجانبين الهندي والأوربي على السواء .

الأعياد الهندوكية

إن الأعياد الهندوكية كلها مستمدة من الأحداث الماضية وأساطيرها . وهي تحتفل إما بذكرى الآلهة أو أبطالها الخالدين . وبهذا كثرت الأعياد عند الهندوس وبلغت ما يقرب من سبعين عيداً . ولكن معظمها ليس مشهوراً ، بل هي محلية ، أو مختصة ببعض الطوائف ، ويحتفل بها في مناسبات عديدة . سارة أو حزينة في ذكرى الخالدين . وكذلك هناك أعياد تتعلق بالحركات القمرية والنجومية مثل عيد ليلة البدر الكامل .

ومن بين تلك الأعياد الكثيرة اشتهرت ستة أعياد فقط تلك التي يحتفل بها على المستوى القومى فى معظم أنحاء البلاد . وهى : ١- ديوالى أو ديباوالى (Deebavali or Diwali) وهو عيد الشمع . تشعل فيه شموع الزيتية وهى عبارة عن السلاطين الطينية التى توضع فيها الزيوت ، وتشعل النار فى قطعة من القماش فيها ، وتوضع فى كل مكان بأعداد كبيرة ، على واجهة الدار وفنائها والطرق والشوارع والحدائق والروضات . وتضاء البلاد فى هذه الليلة وتلأل الأسواق وتغطى أنوارها وأضواؤها كل مكان : البيوت والأسواق والمعابد والطرق والشوارع . يقع هذا العيد فى شهر أكتوبر من كل عام ويختلف يومه مع اختلاف التقويم الهندوكى . وهو يحتفل فيه بمناسبة عودة « راما » — بطل ملحمة الرامايانا — من منفاه إلى وطنه . وتبدأ الاستعدادات لهذا اليوم قبل أسبوع تقريبا ، وتوجه السيدات عناية خاصة إلى تبييض المنازل وترتيب أدواتها وتنسيق أمورها . وفى الصباح الباكر ليوم العيد يستحم كل فرد ، ويلبس ملابس جديدة نظيفة وفخمة على حسب غناه وفقره ، ويزور الأصدقاء ، ويتعانق كل واحد مع غيره ويتبادل الناس الهدايا . كما توجه العناية إلى إعداد أحسن المأكولات والمشروبات . ويعتبر الأطفال هذا العيد أسعد يوم فى حياتهم ، فيذهبون إلى الأسواق لشراء أنواع من المفرقات والصواريخ النارية ويطلقونها وهم فى غاية السرور والبهجة . وفى المساء تتجمع كل عائلة فى منزلها لتقديم الصلوات إلى « الإلهة لاكشمى » تلك التى تمنح البركة والسعادة . وهذا فى شمال الهند . وأما فى بنغال فتقدم الصلوات للإلهة كالى . وكذلك تختلف هذه الصلوات فى الهند الجنوبية باختلاف الملل والنحل فيها .

٢- راخى (Rakhi) أو (راكشاباندهان) (Rakshabandhan) : ويحتفل بهذا العيد رمزا للمودة والمحبة بين الإخوة والإخوات فى كل عائلة ، وتوثيقها وتجديدها طول الحياة . ومن الجدير بالذكر أن العلاقات بين الإخوة والإخوات بين الهندود تفوق التصور . وكل ذلك يرجع إلى تقاليد الهند القديمة

الرمزية الأسطورية . ويحتفل بهذا العيد حقيقة في ذكرى الإله إندرا — الإله الآرى الأصل الذى جاء من موطنه الأصلي فى أوربا — . وتحكى الأساطير أنه لحقته الهزيمة مرة فى معاركه ضد العقاريت . وحينئذ تقدمت إليه زوجته (ساخى) (Sachi) وربطت حول معصمه تيممة لينتصر على جميع أعدائه : [وبفضل هذه التيممة وسحرها انتصر اندرا على العقاريت وقضى عليهم ومنح له طاقات هائلة تفوق التصور .

وفى هذا اليوم تحاول كل أخت فى كل عائلة أن تربط رباطا ملونا حول أخيها ، وترتل آيات الشكر والطلاسم أثناء هذه العملية ، وتتمنى لأخيها السعادة والقوة والمجد والانتصار . ثم تقدم له الحلوى رمزا للعلاقات الزدية المتوثقة المتبادلة بينهما ، وهو الآخر بدوره يقدم لها الهدايا النقدية ، ويتعاهد كلاهما فى هذه الآونة على مساعدة الآخر ومساندته ومناصرته فى كل المحن والآفات والمشاركة فى السرور والفرح .

٣ — (فاسانت بانشامى) (Vasant panchami) : وهذا عيد الربيع ويحتفل به فى مستهل فصل الربيع ، وذلك حينما تفتتح البراعم ، وتورق الأشجار ، وتعود النضارة والبهجة للأغصان ، ويبتسم كل شئ فى هذا الكون ، ويبتهج كل فرد وترقص الطيور والحيوانات وتتغنى البلابل على الأغصان . ويلبس كل فرد فى هذا العيد الملابس الصفراء ، يضع الرجال عمامة صفراء على رؤوسهم ، وترتدى السيدات ساريات صفراء ، ويلبس الأطفال ملابس صفراء ، وكل شئ يكون أصفر فى هذا اليوم . ولعل الأطفال أكثر الناس بهجة وسرورا . فيتدفقون على الميادين لاطلاق الطائرات الصفراء فى الهواء ويبتجون كل البهجة .

ويحتفل بهذا العيد فى الحقيقة فى ذكرى انتصار الإله سيفقا على عدوه الإله كامديفا (Kamedeva) — إله الحب والهوى — فقد أحاله سيفقا إلى رماد بمجرد لقاء نظرة غاضبة عليه بعينه الثالثة .

ولكن البنغاليين يحتفلون بهذا العيد تمجيداً للإلهة ساراسواتى — إلهة العلوم والمعارف — ويسيرون في موكب عظيم يحملون أصنامها ، ثم يغرقونها في مياه الأنهار .

٤ — هولى (Holi) : يحتفل بهذا العيد في شهر مارس من كل عام وذلك في ذكرى انتصار « كرشنا » — الإله المتجسد وصاحب الجيوتا — على عدوه الرهيب « هوليكّا » (Holika) ذلك الذى لقي مصرعه على يد كرشنا في هذا اليوم . وفي هذا اليوم تقدم الألعاب متنوعة ، ومن أهمها رش المياه الملونة على جميع الناس . فيحمل كل فرد مرشة في يده مليئة بالماء الملون ، ويرشه على كل من يلقاه في الطرقات والشوارع والبيوت ولا يستثنى منه أحد ، كائناً من كان ، سواء أكان صديقاً أو عدواً ، ومهما بلغت مكانته واختلقت ديانته وجنسياته . وهذه العملية تقوم بها عادة جماعة من الناس يطوفون الشوارع والطرقات كلها حتى لا يفلت أحد من قبضتهم فيرشون عليه الماء وهم في منتهى البهجة والسرور . وفي المساء يتجمع الكل حول النار الموقدة التي ينطلق لهيبها إلى السماء ، ويقدمون أنواع الأغاني والأناشيد في ذلك الحين وبهذا ينتهى هذا العيد .

٥ — دوسيراه (Dusserah) : وهذا العيد يختلف في كل منطقة . ففي شمال الهند يحتفل هذا العيد بمناسبة ذكرى راما — بطل الملحمة الرامايانا — وانتصاره على عدوه اللدود راون الشرير — ملك سيلان — ذلك الذى خطف زوجته من إحدى غابات جنوب الهند . وكان يقضى فيها مع أسرته أيام الحزن ومتاعب المنفى . ويسبق هذا العيد أيام يعقد فيها عديد من المسرحيات والحفلات . وفي يوم العيد تقام حفلات عظيمة في سرادق فخمة في أنحاء المدن والقرى ، وتحرق فيها تماثيل راون — ملك سيلان — وأعوانه وتتحول إلى رماد وسط هتافات مدوية وتهليل وابتهاجات صارخة .

أما في جنوب الهند فيحتفل بهذا العيد لمدة سبعة أيام في صور مختلفة

تماماً عن الشمال . ولا شأن لهذا العيد فيها براما وراون . بل يصنع في كل بيت دمي طينية تمثل عدداً من الآلهة . وفي مساء كل يوم تتبادل الزيارات بين الناس ويلتقى كل فرد مع أصحابه وأصدقائه ، وتفتح الأبواب على مصاريحها طوال الأيام التسعة . وفي اليوم التاسع تقدم الصلوات للإلهة ساراسواتى — إلهة العلوم والمعارف ، وكذلك تقدم العبادة لجميع الأدوات والآلات رمزاً لمساعدتها الإنسان في شؤونه وحرفته ومهنته .

ولكن في ميسور فقد اتخذ هذا العيد صورة مغايرة تماماً . فإن المهاراجا (أى الملك الإقطاعى) يقيم الرلاثم والمآدب والحفلات لمدة تسعة أيام في قصره ، وفي اليوم العاشر يخرج في موكب عظيم ، وعلى ظهر فيل ، وهو دجه مصنوع من الذهب :

وفي بنغال يحتفل بهذا العيد تكريماً للإلهة دورغا (Durga) ، وتستمر حفلاته أربعة أيام . وفي اليوم الرابع يخرج الناس وسط موكب عظيم يحملون تمثال الآلهة دورغا وهى راقبة على ظهر الأسد ، ويطوقها الآلهة من كل جهة للهجوم عليها . ثم تغرق في مياه الأنهار . ويرمز هذا العيد في بنغال إلى عودة الإلهة بارفاتى (parvati) إلى وطنها وإلى زوجها سيثا . وهذا العيد يعتبر من أشهر الأعياد في بنغال .

٦ — وبالإضافة إلى هذه الأعياد الشهيرة التى ترمز إلى الآلهة والأساطير والأحداث الدينية المقدسة ، تقام كذلك أعياد كثيرة مثل عيد « مها كنب » (mahakumb) الذى يحتفل به في بعض المدن الشهيرة مثل : هاردوار ، وإله آباد ، وأوجين ، وناسك ، وذلك مرة في كل اثنتى عشرة سنة . ويعتقد أن المستحم في نهر الجنججا المقدس في هذه الأيام يكون في منتهى البركة والسعادة واليمن . وهذا العيد يرمز إلى أصل الإنسان وخلوده ، وشجرة الخلد التى تمنح الخلود للبشرية . وقد وضعت الآلهة



لوحة (٥٧)
احراق جثة راون وأعيانه



لوحة (٥٨)
- الموكب الملكي بمناسبة الاحتفال بعيد دوسيراه في ميسور



لوحة (٥٩)
الاستحمام في الجنجا المقدس في معبد بنارس



لوحة (٦١)
تمثال الاله دورغا في احتفال
عيد دوسيراه في ينغال



لوحة (٦٠)
احتفال دوسيراه

رحيق هذه الشجرة في إناء في مكان محفوظ ، ولكن بعض الشياطين
اطلعت عليه ، وحاولت خطفه بشتى الطرق والوسائل . ولذلك دارت المعارك
بينها وبين الآلهة . وقد سقط الرحيق أربع مرات - أثناء المعركة - في
البلدان التي تحتفل بهذا العيد . ثم تدخل الإله فشنو في المعركة وفض النزاع
بتوزيع الرحيق على المتصارعين على حسب استحقاقهم .

وهو احتفال عظيم تندفق الجماهير من أنحاء البلاد للمشاركة فيه على
هذه المدن : ويقضى الناس أيامهم في الصيام والاستحمام في نهر الجنجا وفي
العبادة والتأمل . ويخرج الرهبان والبوغيون وسط موكب عظيم في هذه
المناسبة ويقدمون للجماهير المحتشدة طول الطريق العشاء الرباني رمزاً
لمقداسهم وصلتهم بالله .

المراجع الأفرنجية

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان الطبع وتاريخه
1	A critical Suvey of Indian philosophy	Dr. Chandradhar Sharma	London 1960
2	Ancient Times : A History of Earlyworld	Tames Henry Bre-astered	London 1944
3	A Short History of Chinese	Mary A. Nourse	New York 1943
4	Face of India	George Woodcock	London 1964
5	Hinduism	Louis Renoun	New York 1963
6	Hinduism	K.S. Seu	London 1963
7	History of Religions	E.O. James	London 1956
8	Iran	R.Ghirshman	London 1961
9	Larousse Encyclopedia of Mythology		London 1959
10	New Ligh on the Most An-cient East	Gordon Childe	London 1958
11	Selected writings of Mah-atma Grandhi	Ronald Duncan	London 1946
12	The China : Their History And culture	Kennelt Scott Latourctte	London 1964
13	The Chinese	Winifred Galbr-aith	Cairo 1963
14	The Encyclopedia of Brita-nica		London 1960
15	The Encyclopedia of Ame-rica		Washington 1961
16	The Hindu view of Life	Dr. Radhakrishn-an.	London 1957

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان الطبع وتاريخه
17	The Legacy of Indian (H.G. Rawlison) وفيه مقال راوليسون بعنوان : India in European Literature And Thought.	G.T. Garralt	London 1945
18	The Rise of the West	W.H. McNeill	London 1965
19	The Wisdom of India	Linyutang	London 1956
20	Buddhism	Edward Conze	London 1951
21	Buddhism in China	Chao pu-chu	Peking 1960

المراجع العربية

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان الطبع وتاريخه
٢٢	إيران ماضيها وحاضرها	تأليف «دونا دولبر» وترجمة الدكتور عبد المنعم محمد حسنين	القاهرة ١٩٥٨
٢٣	تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية	الدكتور محمد إسماعيل الندوى	بيروت ١٩٦٨
٢٤	تراث الموسيقى العالمية	تأليف «كورت زاكس» وترجمة الدكتورة سميحة الحولى	القاهرة ١٩٦٤
٢٥	التراث الهندى	همايون كبير - ترجمة مجلس الهند للروابط الثقافية	نيودلهى
٢٦	المدارس الفلسفية	الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى	القاهرة ١٩٦٥

بحوث المؤلف في مجلة تراث الانسانية الصادرة في القاهرة

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان الطبع وتاريخه
٢٧	الجيتا		أغسطس ١٩٦٤
٢٨	شكنتلا		أغسطس ١٩٦٥
٢٩	الراما يانا		مايو ١٩٦٦
٣٠	المهابهاراتا		أكتوبر ونوفمبر ١٩٦٧
٣١	الأساطير الهندية		مايو ١٩٦٨

قائمة الموضوعات

الرقم	الموضوع	الصفحة
١	تقديم	٩
٢	الفصل الأول : ملامح الهند الطبيعية والجغرافية	١١
٣	وجه الهند من الجو	١١
٤	تقسيم الهند الجغرافي	١١
٥	صورة الهملايا من الجو	١١
٦	موقع الهملايا والمناطق الشهيرة في أحضانها	١٢
٧	نهر الهند	١٢
٨	كشمير	١٣
٩	ولايتا السند وبنجاب .	١٣
١٠	المناطق الجبلية المتاخمة لحدود ولاية السند	١٣
١١	نهر الجنجا والبرهمبترا والمناطق الشهيرة بين شواطئها	١٤
١٢	ولاية بنغال ومدينتها الشهيرة كلكتا	١٤
١٣	التقاء نهري الجنجا والجمنا في الله آباد	١٥
١٤	مدينتا بنارس وآغرا	١٥
١٥	ولاية بهار مسقط رأس بوذا	١٥
١٦	دهلي العاصمة	١٦
١٧	الهضاب الشرقية والغربية وأشهر المدن حولهما	١٦
١٨	أشهر مدن الهضبة الغربية	١٧
١٩	بومباي	١٨
٢٠	الأرض الجنوبية وأشهر مدنها	١٨

الرقم	الموضوع	الصفحة
٢١	مدراس	١٩
٢٢	ميسور	١٩
٢٣	كيرالا	١٩
٢٤	بين اذنود والهنود الحمر	٢٠
٢٥	الفصل الثاني : أوائل الحضارات الهندية المعاصرة للحضارات السومرية في أرض الرافدين والفرعونية في وادي النيل : « موهنجودارو وهارابا »	٢١
٢٦	حضارة الشرق الأوسط : أرض الرافدين وفلسطين ومصر	٢٣
٢٧	أسباب ظهور هذه الحضارات	٢٤
٢٨	مناطق الشرق الأوسط الأخرى	٢٤
٢٩	سبب وجود الملامح المتشابهة بين سكان الهند والعراق	٢٥
٣٠	أوجه التشابه الأخرى بين الهند والعراق	٢٦
٣١	بين الهند والعراق ومصر	٢٩
٣٢	معالم الحضارة في وادي نهر الهند	٣٠
٣٣	التجارة والبضائع التجارية	٣٤
٣٤	وسائل المواصلات	٣٥
٣٥	المباني : طرازها ومواد بنائها ومحتوياتها	٣٦
٣٦	الملابس والحلي	٣٧
٣٧	الأدوات المنزلية	٤٠
٣٨	الحيوانات	٤١
٣٩	نظام الري	٤٣
٤٠	المعادن	٤٣
٤١	الأسلحة	٤٣

الرقم	الموضوع	الصفحة
٤٢	الدين	٤٤
٤٣	مراسيم الدفن	٤٦
٤٤	دور حضارة وادي نهر الهند في تكييف التقاليد الهندية وديانتها عبر القرون	٤٨
٤٥	الهند تتجاوب مع العراق في بعض النواحي	٥٠
٤٦	امتداد الحضارة في وادي نهر الهند وحياتها	٥٣
٤٧	متاعب هذه الحضارة وأسباب اضمحلالها	٥٥
٤٨	من هم الدراويديون ؟	٥٦
٤٩	نهاية الحضارة الدراويدية	٥٩
٥٠	الفصل الثالث : الحضارة الآرية وديانتها	٦١
٥١	تحقيق شخصية الآريين	٦١
٥٢	معنى الآري	٦٣
٥٣	حياة الآريين في بلادهم ولغاتهم	٦٣
٥٤	أسباب اندثار حضارة وادي نهر الهند إلى الأبد وانتصار الآريين	٦٤
٥٥	مقار الآريين في الهند وظهور النظام القروي وازدهاره في عهدهم	٦٦
٥٦	ظهور أولى المدن والحكومات المدنية في العصر الآري	٧٥
٥٧	النظام الزراعي بين عثمري حضارة وادي نهر الهند والآريين	٧٦
٥٨	الآلهة والطقوس من الأصل الهندي والأوربي	٧٧
٥٩	المشروبات المقدسة	٨٢
٦٠	آلهة حضارة نهر الهند عند الآريين	٨٣

الرقم	الموضوع	الصفحة
٦١	دور فشنو وسيثا في خلق نهر الجنجنا المقدس	٨٥
٦٢	الآلهة التي ظهرت على تراب الهند	٨٨
٦٣	البرهما وتطور مدلولاته إلى الكهنة وإله الآلهة والطائفة العليا	٨٩
٦٤	آلهة الحيوانات والجمادات	٩٣
٦٥	حياة الآلهة وصفاتها مثل الإنسان	٩٣
٦٦	عقائد الآريين وتجاوبهم مع الشرق الأوسط	٩٤
٦٧	الطقوس	٩٥
٦٨	تجاوب الآريين مع بعض عقائد الشرق الأوسط	٩٥
٦٩	الآخرة	٩٦
٧٠	طبيعة ديانة الفيدا	٩٨
٧١	كتب الفيدا وقيمتها	٩٨
٧٢	تفوق طبيعة الكهنوت وظهور الطبقات	١٠٠
٧٣	عقيدتا كارما والتناسخ وصلتهما بالنظام الطبقي	١٠٤
٧٤	فلسفة نفي الذات أو الحلول أو وحدة الوجود من خلال كتاب اليوبانديشاد	١٠٦
٧٥	أصحاب نظرية وحدة الوجود	١٠٦
٧٦	الكهنة ووحدة الوجود.	١٠٧
٧٧	اليوجا	١٠٨
٧٨	التقمص أو التجسد	١١٠
٧٩	إثبات الذات أو الفلسفة الإيجابية من خلال كتاب الجيتا	١١٣
٨٠	الجيتا	١١٤
٨١	الإلهاد	١١٤

الرقم	الموضوع	الصفحة
٨٢	حركة بهاكتي كرد فعل ضد عتميدة التناسخ والتفرقة الطبقية العنصرية	١١٧
٨٣	أسباب ظهور الاتجاهات المتناقضة المتصارعة في هذا العصر	١١٨
٨٤	كتب الشريعة الهندوكية	١١٩
٨٥	موقف الهندوكية من الرسالة السماوية	١٢٠
٨٦	هل صنع الآريون التماثيل والأصنام ؟	١٢٢
٨٧	هل كان الآريون نباتيين أصلاً ؟	١٢٢
٨٨	طبيعة الديانة الهندوكية وسر خلودها	١٢٤
٨٩	ملحمة المهاهارانا	١٢٦
٩٠	ملحمة الرامايانا	١٢٩
٩١	كرشنا وراما واتخاذهما صورة الآلهة	١٣٤
٩٢	الديانة الجينية	١٤٢
٩٣	بوذا : حياته وتعاليمه	١٤٥
٩٤	البوذية في عصر بوذا	١٥١
٩٥	البوذية بعد وفاة بوذا	١٥٣
٩٦	فرقتان بوذيتان : المهايانا والهييانا	١٥٤
٩٧	الفصل الرابع : دخول الهند في طور الحضارة من جديد والتقاؤها مع العواصم الحضارية الكبرى في العالم	١٥٥
٩٨	بقية أجزاء الهند طوال العصر الآري	١٥٨
٩٩	الهند والشرق الأوسط منذ القرن الثامن قبل الميلاد	١٥٩
١٠٠	الهند وإيران	١٦١
١٠١	ظهور اليونان على المسرح العالمي واتصالها بالشرق الأوسط والهند	١٦٢

الرقم	الموضوع	الصفحة
١٠٢	الهند واليونان : قبل غزو الإسكندر	١٦٥
١٠٣	الإسكندر والهند : والتقاء الحضارات العالمية في ساحة واحدة	١٦٧
١٠٤	لأول مرة	
١٠٥	ظهور أول إمبراطورية بقيادة شندر غبت	١٦٨
١٠٦	الإمبراطور أشوكا : مبشر الديانة البوذية في العالم	١٧١
١٠٧	الإمبراطور أشوكا وتوطيد علاقات الهند مع آسيا ومصر واليونان وانتشار البوذية في عصره	١٧١
١٠٨	العلاقات الهندية واليونانية بعد أشوكا	١٧٤
١٠٩	الصين في مجال الحضارة والفكر	١٧٥
١١٠	الديانة الكونفوسية	١٨١
١١١	الديانة الطاوسية	١٨١
١١٢	المدرسة القانونية	١٨١
١١٣	الصين والشرق الأوسط	١٨٢
١١٤	الهند والصين	١٨٤
١١٥	الهندوكية منذ عصر الإمبراطور أشوكا	١٨٥
١١٦	الهندوكية في موقف الدفاع	١٨٦
١١٧	الصراع بين اللغتين : السنسكريتية والبالية وازدهار الفنون والآداب	١٨٨
١١٨	مسرحية شكنتلا	١٩١
١١٩	العلوم والفنون	١٩٢
١٢٠	النظم السياسية في الأسرة المورية	١٩٤
١٢١	الفصل الخامس : الهند منذ القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن السابع الميلادي	١٩٥

الرقم	الموضوع	الصفحة
١٢٢	ظهور الإمبراطورية الرومانية على المسرح العالمى واتصالها بالهند	١٩٧
١٢٣	تطورات جديدة فى إيران والعراق خلال العصر الرومانى	١٩٩
١٢٤	العصر الساسانى	٢٠١
١٢٥	الحركات الدينية والعلمية فى إيران	٢٠٣
١٢٦	العلاقات بين الهند والروم	٢٠٤
١٢٧	جنوب الهند فى مجال الحضارة واتصاله بالروم	٢٠٦
١٢٨	الإسكندرية وجنوب الهند	٢٠٧
١٢٩	ظهور لغة دولية شعبية فى الإسكندرية	٢٠٩
١٣٠	الهند وبلاد العرب	٢٠٩
١٣١	مجد الديانة البوذية كديانة عالمية أولى	٢١٠
١٣٢	الهندوكية فى آسيا الصغرى وسوريا	٢١٢
١٣٣	مشكلات الرومانية ومصائبها	٢١٢
١٣٤	الفلسفة الغنوصية واتصالها بالبوذية	٢١٤
١٣٥	مدرسة الإسكندرية	٢١٥
١٣٦	اللقاء بين المسيحية والبوذية فى الإسكندرية	٢١٨
١٣٧	الإسكندرية مركز الثقافة فى العهد الرومانى	٢٢٢
١٣٨	معالم الحضارة البوذية والهندوكية	٢٢٤
١٣٩	الغاندارا مدرسة الفن المعمارى البوذى الجديد	٢٢٥
١٤٠	تطور فن الغاندارا	٢٢٧
١٤١	ماثورا	٢٢٧
١٤٢	سانشى	٢٣٠
١٤٣	الآثار البوذية الأخرى والعملات	٢٣١

الرقم	الموضوع	الصفحة
١٤٤	أغوار أجنثا ومعابدها	٢٣٤
١٤٥	أغوار الورا ومعابدها	٢٣٩
١٤٦	اليفتتا	٢٤٠
١٤٧	بنارس	٢٤٥
١٤٨	عصر شندرغبنا موريا الذهبي	٢٤٥
١٤٩	تدوين الشريعة الهندوكية	٢٤٨
١٥٠	تطور الديانة الهندوكية منذ القرن الأول الميلادي	٢٥١
١٥١	بوراناس	٢٥٢
١٥٢	ظهور المرونة في الهندوكية	٢٥٢
١٥٣	سبب إنسحاب البوذية من مكان القيادة	٢٥٣
١٥٤	إنتشار الحضارة الهندية في جنوب شرق آسيا	٢٥٣
١٥٥	العلوم والفنون في عصر غبنا	٢٥٦
١٥٦	اللغة السنسكريتية	٢٥٦
١٥٧	الطب	٢٥٨
١٥٨	علم الفلك والهيئة	٢٥٩
١٥٩	بداية عصر الظلام منذ سقوط إمبراطورية غبنا إلى الفتح الإسلامي	٢٦٠
١٦٠	استقلال جنوب الهند عن الشمال حتى في العصر الإسلامي وازدهار حضارته	٢٦١
١٦١	فنون الشرق الأوسط في الجنوب	٢٦٣
١٦٢	معبد مدوري	٢٦٥
١٦٣	مهابالي بورم	٢٦٦
١٦٤	الختام	٢٦٧
١٦٥	اللغات العديدة	٢٦٧

الرقم	الموضوع	الصفحة
١٦٦	الرقص	٢٣٨
١٦٧	الموسيقى والغناء	٢٧١
١٦٨	المسرح والتمثيل	٢٨١
١٦٩	الأعياد الهندوكية	٢٨٤
١٧٠	المراجع	٢٩٢

قائمة اللوحات

الصفحة	الموضوع	سلسل
٢٧	تمثال حجري لرجل من موهنجودارو	١
٢٨	تمائيل للسومريين من أرض الرافدين	٢
٢٨	تمائيل نحاسية لراقصات من هارابا	٣
٣٣	زهريّة مرسومة من موهنجودارو	٤
٣٨	حلى من موهنجودارو	٥
٣٩	حمام عظيم من حضارة موهنجودارو	٦
٤٢	أختام و تمائم من موهنجودارو	٧
٥١	الإله سيفا من حضارة موهنجودارو ذى الوجوه الثلاثة	٨
٧١	غاندى	٩
٧٢	وفى بهاوى	١٠
٧٩	الإله اندرا يجلس على فيله	١١
٧٩	أغنى إلهة النار	١٢
٨٦	الإله فشنو ينام على الأفعى	١٣
٩١	الآلهة تقوم بطحن مياه البحار	١٤
٩٢	الإلهة لاكشمى	١٥
	هانومان - البطل القرد - يخوض المعركة ضد راون - ملك	
١٣٣	سيلان - فى نصرة رام	١٦
	سيتا وهانومان ويتوسطهما راما وتحتهم جماعة من القرد	
١٣٥	تقدم لهم الصلوات	١٧
١٣٦	الإله سيفا فى صورة جديدة عند الآريين والدرأوديين	١٨

الصفحة	الموضوع	سلسل
١٣٨	كرشنا وهو طفل يلعب على ثعبان	١٩
١٣٩	كرشنا يسرق ملابس راعيات الغنم	٢٠
١٧٦	العملات والأختام الهندية واليونانية التي عثر عليها في شمال الهند الغربية	٢١
١٧٧	ثلاثة أسود ذات شوارب خشنة : رمزاً للسلام والمحبة للإمبراطور أشوكا . وتحتها ثور وضعها أشوكا على أعمدة من الصخور خلال القرن الثالث قبل الميلاد . وهذه الأسود قد اتخذتها جمهورية الهند الآن رمزاً للسلام والمحبة بين الشعوب العالمية	٢٢
١٧٨	ديمي تريوس (Demetrius : ١٩٠ - ١٦٠ ق . م) ملك باكتيريا اليوناني يلبس ملابس عليها رسوم الأفيال رمزاً لانتصاره على الهند وضمه إليها إلى حوزته	٢٣
١٧٩	هندية خلال العصر اليوناني بالهند	٢٤
٢١٦	اثنان من الرهبان البوذيين	٢٥
٢١٧	ثلاثة من الرهبان الهندوس على طريقة اليوجيين	٢٦
٢٢٩	تمثال بوذا المصنوع خلال القرن الثاني - الخامس الميلادي وفق الفن الغانداري	٢٧
٢٢٩	بوذا يستحم ويغسل ثيابه في نهر نرغانا بعد جهاد نفسي شاق استمر ست سنوات ، ثم يتجه إلى الشجرة التي اعتكف في ظلها حتى حصول النور والمعرفة (تمثال من جاوا)	٢٨
٢٣٢	معبد بوذي في سانشي	٢٩
٢٣٣	البوابة الشمالية من هذا المعبد . وفي الأفريز الأول نرى	٣٠

الصفحة	الموضوع	س
	شجرة مقدسة ترمز إلى وفاة بوذا وحصوله على المعرفة تحت ظلها . وعلى يمين الأفريز الأسفل نرى عجلة وهي رمز الوعظ الأول لبوذا الذي يعتبر بمثابة القوانين البوذية . وعلى الشمال نجد الإلهة لاكشمى بين الفيلين وهما يرشان عليها ماء نهر الجنجا المقدس . وبهذا يشير هذا المعبد إلى خاطر بين العقائد البوذية والهندوكية .	
٢٣٥	معبد الشمس في كورانانك	٣١
	تمثال بوذا صنع حديثاً في معبد «لينغ اين» في «هانغ هو» بالصين بارتفاع يبلغ ٩ أمتار تقريباً .	٣٢
٢٣٦	معبد بوذا شيد حديثاً في بكين بالصين	٣٣
٢٣٧	الإله سيفا وبارواتي زوجته في معبد الورا	٣٤
٢٤٢	معبد كايلاسا في أغوار الورا	٣٥
٢٤٣	أغوار أجنتا	٣٦
٢٤٤	أول معبد هندوكى في عصر غبتا على طراز رومانى	٣٧
٢٤٩	معبد مدورى بمدراس	٣٨
٢٦٤	معبد مهابالى بورم بمدراس على خليج بنغال	٣٩
٢٦٤	رقص بهاراتيانانام المدراسى	٤٠
٢٧٢	آلات موسيقية	٤١
٢٧٢	رقص بهاراتيانانام	٤٢
٢٧٣	حكاية عاطفية تعبر عنها بالأيدى والعيون فى رقصة شعبية من ولاية راجستان	٤٣
٢٧٣	رقص كاناكالى من مالابار	٤٤
٨٧٤		

الصفحة	الموضوع	س
٢٧٤	رقص دارجلنغ الشعبي	٤٥
٢٧٤	رقص مانيبور	٤٦
٢٧٥	رقصات غاربا الشعبية في جيجرات	٤٧
٢٧٥	ألعاب الأطفال في العيد	٤٨
٢٧٦	رقص شعبي بمناسبة الحصاد في غوا	٤٩
٢٧٦	رقص قبائل ناغا الشعبي في آسام	٥٠
٢٧٧	رقص يقدمه فرقة بوداشانكار	٥١
٢٧٧	رقصات باليه تقدمها فرقة في بومباي	٥٢
٢٧٩	يعزف على الستار	٥٣
٢٧٩	فيना الآلة الموسيقية	٥٤
٢٨٠	يعزف على آلة الشهنائي الموسيقية	٥٥
٢٨٣	مشهد من مسرحية شكنتلا	٥٦
٢٨٩	إحراق جثة راون وأعوانه	٥٧
٢٨٩	الموكب الملكي بمناسبة الاحتفال بعيد دوسيراه في ميسور	٥٨
٢٩٠	الاستحمام في نهر الجنجا المقدس في معبد بنارس	٥٩
٢٩٠	احتفال دوسيراه	٦٠
٢٩٠	تمثال الإله دورغا في احتفال عيد دوسيراه في بنغال .	٦١

الخرائط

١ - الهند والعراق

٢ - الهند

٣ - الهند والامبراطورية الرومانية

THE ANCIENT INDIA : CIVILIZATIONS AND RELIGIONS

By

Dr. Muhammad Ismail Nadwi
M.A. (Cairo) Ph.D. (Ain Shams)

الثن ٥ ٤ قرشا

Bibliotheca Alexandrina



0214368



أخصائون
في المطبوعات
العاجلة

الشعب
مؤسسة صحفية عربية

تصدر
عن

مطبوعات
دار الشعب

الإدارة: ٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة - ت ٣١٨١٠ • مكتبة دار الشعب - ت ٢٩٩٩١

رئيس مجلس الإدارة:
السيد إبراهيم

الطابع: مصر - ت ٣١٨١٠ - ٣١٨١٨ - ٣١٨١٩
دير النحاس - تليفون ٨٤٤٨١٠

التوزيع: مكتبة دار الشعب

١٢٩٠ هـ — ١٩٧٠ م